الروح لابن القيم

في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل
من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء

[قل الروح من أمر ربي ، وما
أوتيتم من العلم إلا قليلا]
(قرآن كريم)

تأليف

الامام شمس الدين أبي عبد الله بن قيم الجوزية
المتوفى في سنة إحدى وخمسين وسبعمائه

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م
بيروت - لبنان

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتصف بصفات الكمال [1] المنعوت بنعوت الجلال . الذى علم ما كان وما يكون وما هو كائن فى الحال والمآل . وحكم بالموت على كل ذى روح من مخلوقاته . وساوى فيه بين الملك والمملوك والغنى والفقير والشريف والضعيف والعاصى والمطيع من سكان أرضه وسماواته . فهو الذى عدل فى الآخرة بين بريائه ، قبض روح هذا بعد ما عمر الدنيا وزخرف البناء وتوطنها وليست لحى وطنا ، وقبض روح الآخر الذى اجتهد فى إصلاح آخرته وجعل الدنيا لجة واتخذ صالح الاعمال فيها سفنا . فشتان ما بين خروج الروحين من الجسدين ، هذه لها السعادة والهناء . وتلك لها الخيبة والشقاوة والعناء . هذه ترتع فى رياض الجنة وتأوى إلى قناديل معلقة فى العرش فى لذة ونعيم . وتلك محبوسة تعذب فى نار الجحيم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إله تحبب إلى عباده بنعمه وآلائه وابتدأهم سبحانه وتعالى باحسانه العميم وعطائه فعياذا بعزته جل جلاله أن نختم بالاساءة وقد بدأنا بالإحسان فله سبحانه الحمد والشكر والنعمة والفضل والخلق والأمر والثناء الحسن الجميل والامتنان . وأشهد أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه عبده ورسوله الطيب الروح والجسد سيد ولد آدم وأفضل من قام وركع وسجد الذى أنزل عليه فى كتابه العزيز ، ومن أصدق من الله قيلا (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وعلى آله وصحبه خير القرون الذين اهتدوا وما بدلوا تبديلا صلاة دائمة بدوام السموات والأرض إلى أن يرث الله سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها للحساب والعرض وسلم تسليما كثيراً .

---

[1] ستعلم فى أثناء هذه الخطبة أنها ليست بقلم ابن القيم ولعلها بقلم البقاعى فإن فى كشف الظنون بعد ذكر كتاب الروح لابن القيم مالفظه « اختصره برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعى وسماه سر الروح وتوفى سنة ٨٨٥ — الحمد لله المتصف بصفات الكمال — الخ » وكأنه شبه على صاحب كشف الظنون فزعم أن البقاعى اختصر كتاب ابن القيم والظاهر أن البقاعى إنما صدر كتاب ابن القيم بهذه الخطبة وكأنه سماه من عنده سر الروح لأن ابن القيم لم يسم كتابه وإنما اشتهر بكتاب الروح لأنه كتاب فى مضمون الروح ثم صار ذلك علما بالغلبة والله أعلم .

(وبعد) فهذا كتاب عظيم النفع جليل القدر كثير الفائدة ماصنف مثله فى معناه فلا تكاد تجد ما تضمنه من بدائع الفوائد وفوائد القلائد فى كتاب سواه . ويشتمل على جملة من المسائل تتضمن الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار ، وأقوال العلماء الأخيار ، لاأدرى أسئل مصنفه قدس الله روحه عنها فأجاب . أم سئل عن البعض ولكن هو أطال الخطاب. فإنى رأيته مجرداً عن خطبة وسؤال أصلا مبتدئا فيه بقوله (أما المسألة الأولى وهى هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم أم لا) فأحببت بعد استخارة الله سبحانه وتعالى أن أفتتحه بهذه الخطبة المباركة العظيمة . لكونه كتاباً فى ضمن مسائله التى تتأملها وتشاهدها كل درة يتيمة لينشرح صدر الناظر فيه . ولتقوى همته على النظر فى بدائع فوائده ودقائق معانيه . والله سبحانه وتعالى المسئول المرجو الاجابة أن يعصمنا من الزيغ والزلل . وأن يوفقنا لصالح النية والقول والعمل . وأن يرفع درجات مؤلفه فى جنات النعيم . وأن ينفع به الناظر فيه إنه سميع عليم . إنه على كل شىء قدير . وبالإجابة جدير . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(قال) الشيخ الإمام العالم العامل ترجمان القرآن ، ذو الفنون الحسان ، شيخ الإسلام ، قدوة الأنام ، أوحد الحفاظ ، فارس المعانى والألفاظ ، علامة العلماء ، وارث الأنبياء ، عمدة المفسرين بغية المجتهدين شمس الدين أبو عبد الله ابن الشيخ الإمام العالم العامل شرف الدين أبى بكر ابن الشيخ الكبير أيوب بن سعد الشهير بابن قيم الجوزية الحنبلى الدمشقى قدس الله تعالى روحه ونور ضريحه وجعل أبواب الجنان بين يديه مفتوحة ، ولسائر علماء الإسلام المجاهدة النقاد الأعلام آمين وصلى الله على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين وآله وصحبه أجمعين ؟

المسألة الأولى

وهى هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم أم لا ؟

قال ابن عبدالبر ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : مامن مسلم يمر على قبر أخيه كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام . فهذا نص فى أنه يعرفه بعينه ويرد عليه السلام .

وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه متعددة أنه أمر بقتلى بدر فألقوا فى قليب ثم جاء حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم يافلان ابن فلان ويافلان ابن فلان هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقا فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا فقال له عمر يارسول الله ماتخاطب من أقوام قـــد جيفوا فقال والذى بعثنى بالحق ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون جوابا .

وثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه .

وقد شرع النبى صلى الله عليه وآله وسلم لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول السلام عليكم دار قوم مؤمنين وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل — ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد .

والسلف مجمعون على هـذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحى له ويستبشر به .

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا فى كتاب القبور باب معرفة الموتى بزيارة الأحياء .

﴿حدثنا﴾ محمد بن عون حدثنا يحيى بن يمان عن عبد الله بن سمعان عن زيد بن أسلم عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مامن رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم .

﴿حدثنا﴾ محمد بن قدامة الجوهرى حدثنا معن بن عيسى القزاز أخبرنا هشام بن سعد حدثنا زيد بن أسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام .

﴿حدثنا﴾ محمد بن الحسين حدثنى يحيى بن بسطام الاصغر حدثنى مسمع حدثنى رجل من آل عاصم الجحدرى قال : رأيت عاصما الجحدرى فى منامى بعد موته بسنتين فقلت أليس

قدمت ؟ قال بلى قلت فأين أنت ؟ قال أنا والله فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزنى فنتلقى أخباركم قال قلت أجسادكم أم أرواحكم قال هيهات بليت الاجسام وإنما تتلاقى الارواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال نعم نعلم بها عشية الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قال قلت فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال لفضل يوم الجمعة وعظمته .

و﴿حدثنا﴾ محمد بن الحسين حدثنى بكر بن محمد حدثنا حسن القصاب قال كنت أغدو مع محمد بن واسع فى كل غداة سبت حتى نأتى الجبان فنقف على القبور فنسلم عليهم وندعو لهم ثم ننصرف فقلت ذات يوم لوصيرت هذا اليوم يوم الاثنين قال بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوماقبلها ويوما بعدها .

﴿حدثنى﴾ محمد حدثنا عبد العزيز بن ابان قال حدثنا سفيان الثورى قال بلغنى عن الضحاك أنه قال من زار قبرا يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته فقيل له وكيف ذلك ؟ قال لمكان يوم الجمعة .

﴿حدثنا﴾ خالد بن خداش حدثنا جعفر بن سليمان عن أبى التياح قال كان مطرف يغدو فإذا كان يوم الجمعة أدلج (قال وسمعت أبا التياح) يقول بلغنا انه كان ينور له فى سوطه فأقبل ليلة حتى إذا كان عند مقابر القوم وهو على فرسه فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره فقالوا هذا مطرف يأتى الجمعة قلت وتعلمون عندكم يوم الجمعة ؟ قالوا نعم ونعلم مايقول فيه الطير قلت ومايقولون ؟ قالوا يقولون سلام سلام .

﴿حدثنى﴾ محمد بن الحسين حدثنى يحيى بن أبى بكير حدثنى الفضل بن موفق ابن خال سفيان بن عيينة قال لما مات أبى جزعت عليه جزعاً شديداً فكنت آتى قبره فى كل يوم ثم قصرت عن ذلك ماشاء الله ثم انى اتيته يوما فبينا أنا جالس عند القبر غلبتنى عيناى فنمت فرأيت كأن قبر ابى قد انفرج وكأنه قاعد فى قبره متوشحا أكفانه عليه سحنة الموتى [1] قال فكأنى بكيت لما رأيته قال يابنى ما أبطأ بك عنى قلت وإنك لتعلم بمجيئى ؟ قال ماجئت مرة إلا علمتها وقد كنت تأتينى فآنس بك وأسر بك ويسر من حولى بدعائك قال فكنت آتيه بعد ذلك كثيراً .

﴿حدثنى﴾ محمد حدثنى يحيى بن بسطام حدثنى عثمان بن سوادة الطفاوى قال وكانت أمه من العابدات وكان يقال لها راهبة قال لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت ياذخرى

---

[1] السحنة : الهيئة واللون .

وذخيرتى ومن عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى لاتخذلنى عند الموت ولا توحشنى فى قبرى قال فماتت فكنت آتيها فى كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولاهل القبور فرأيتها ذات يوم فى منامى فقلت لها ياأمه كيف أنت ؟ قالت أى بنى ان للموت لكربة شديدة وإنى بحمد الله لفى برزخ محمود نفترش فيه الريحان وتتوسد فيه السندس والاستبرق إلى يوم النشور فقلت لها ألك حاجة ؟ قالت نعم قلت وما هى ؟ قالت لاتدع ماكنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا فإنى لابشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك . يقال لى ياراهبة هذا ابنك قد أقبل فأسر ويسر بذلك من حولى من الاموات .

(حدثنى) محمد بن عبد العزيز بن سليمان حدثنا بشر بن منصور قال لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان فيشهد الصلاة على الجنائز فاذا أمسى وقف على باب المقابر فقال آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن مسيئكم وقبل حسناتكم لا يزيد على هؤلاء الكلمات قال فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو قال فبينا أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاءونى فقلت ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا نحن أهل المقابر قلت ما حاجتكم ؟ قالوا إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك فقلت وما هى؟ قالوا الدعوات التى كنت تدعو بها قال قلت فإنى أعود لذلك قال فما تركتها بعد .

(حدثنى) محمد حدثنى أحمد بن سهل حدثنى رشد بن سعد عن رجل عن يزيد بن أبى حبيب ان سليم بن عمير مر على مقبرة وهو حاقن قد غلبه البول فقال له بعض أصحابه لو نزلت إلى هذه المقابر فبلت فى بعض حفرها فبكى ثم قال سبحان الله والله إنى لأستحيى من الأموات كما استحيى من الاحياء ولولا أن الميت يشعر بذلك لما استحيا منه .

(وأبلغ) من ذلك أن للميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه . قال عبد الله بن المبارك حدثنى ثور بن يزيد عن ابراهيم عن أبى أيوب قال تعرض أعمال الاحياء على الموتى فاذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وإن رأوا سوءاً قالوا اللهم راجع به . وذكر ابن أبى الدنيا عن أحمد بن أبى الحوارى قال حدثنى محمد أخى قال دخل عباد بن عباد على ابراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال عظنى قال بم أعظك أصلحك الله بلغنى ان أعمال الاحياء تعرض على أقاربهم الموتى فانظر ما يعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من عملك فبكى ابراهيم حتى اخضلت لحيته .

(قال) ابن أبى الدنيا وحدثنى محمد بن الحسين حدثنى خالد بن عمرو الأموى حدثنا صدقة بن سليمان الجعفرى قال كانت لى شرة سيجة فمات أبى فأنبت وندمت على ما فرطت قال ثم زللت أيما زلة فرأيت أبى فى المنام فقال أى بنى ما كان أشد فرحى بك أعمالك تعرض علينا فنشبهها

بأعمال الصالحين فلما كانت هذه المرأة استحييت لذلك حياء شديداً فلا تحزنى فيمن حولى من الأموات . قال فكنت أسمعه بعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر وكان جاراً لى بالكوفة أسألك إنابة لارجعة فيها ولا حور . يامصلح الصالحين ويا هادى المضلين ويا أرحم الراحمين .

وهذا باب فى آثار كثيرة عن الصحابة وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول : اللهم إنى أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة . كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله .

ويكفى فى هذا تسمية المسلم عليهم زائرا ولولا أنهم يشعرون به لما صح تسميته زائرا فإن المزور إن لم يعلم بزيارة من زاره لم يصح أن يقال زاره ، هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم ، وكذلك السلام عليهم أيضاً فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلم محال وقد علم النبى صلى الله عليه وآله وسلم أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية .

وهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد وإن لم يسمع المسلم الرد وإذا صلى الرجل قريباً منهم شاهدوه وعلموا صلاته وغبطوه على ذلك .

(قال) يزيد بن هارون أخبرنا سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى [1] أن ابن ساس خرج فى جنازة فى يوم وعليه ثياب خفاف فانتهى إلى قبر قال فصليت ركعتين ثم اتكأت عليه فوالله إن قلبى ليقظان إذ سمعت صوتاً من القبر ، إليك عنى لاتؤذنى فإنكم قوم تعملون ولا تعلمون ونحن قوم نعلم ولا نعمل ولأن يكون لى مثل ركعتيك أحب إلى من كذا وكذا ، فهذا قد علم باتكاء الرجل على القبر وبصلاته .

(وقال) ابن أبى الدنيا حدثنى الحسين بن على العجلى حدثنا محمد بن الصلت حدثنا اسماعيل ابن عياش عن ثابت بن سليم حدثنا أبو قلابة قال أقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت منزلا فتطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسى على قبر فنمت ثم انتبهت فإذا صاحب القبر يشتكينى يقول قد آذيتنى منذ الليلة ثم قال إنكم تعملون ولا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ثم قال جزى الله أهل الدنيا خيراً أقرئهم منا السلام فإنه يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال .

---

[1] هو عبد الرحمن بن مل — تقريب .

و ﴿حدثني﴾ الحسين العجلي حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا مالك بن مغول عن منصور عن زيد بن وهب قال خرجت إلى الجبانة فجلست فيها فإذا رجل قد جاء إلى قبر فسواه ثم تحول إلى فجلس قال فقلت لمن هذا القبر ؟ قال أخ لى فقلت أخ لك ؟ فقال أخ لى فى الله رأيته فيما يرى النائم فقلت فلان عشت الحمد لله رب العالمين قال قد قلتها لأن أقدر على أن أقولها أحب إلى من الدنيا وما فيها ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنونى فإن فلانا قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلى من الدنيا وما فيها .

﴿حدثني﴾ أبو بكر التيمى حدثنا عبد الله بن صالح حدثنى الليث بن سعد حدثنى حميد الطويل عن مطرف بن عبد الله الحرشى قال خرجنا إلى الربيع فى زمانه فقلنا ندخل يوم الجمعة لشهودها وطريقنا على المقبرة قال فدخلنا فرأيت جنازة فى المقبرة فقلت لو اغتنمت شهود هذه الجنازة فشهدتها قال فاعتزلت ناحية قريباً من قبر فركعت ركعتين خففتهما لم أرض اتقانهما ونعست فرأيت صاحب القبر يكلمنى وقال ركعت ركعتين لم ترض اتقانهما ؟ قلت قد كان ذلك ، قال تعملون ولا تعلمون ولا نستطيع أن نعمل لأن أكون ركعت مثل ركعتيك أحب إلى من الدنيا بحذافيرها فقلت من هاهنا ؟ فقال كلهم مسلم وكلهم قد أصاب خيرا فقلت من هاهنا أفضل ؟ فأشار إلى قبر فقلت فى نفسى اللهم ربنا اخرجه إلى فأكلمه قال فخرج من قبره فتى شاب فقلت أنت أفضل من هاهنا ؟ قال قد قالوا ذلك قلت فبأى شىء نلت ذلك فوالله ما أرى لك ذلك السن فأقول نلت ذلك بطول الحج والعمرة والجهاد فى سبيل الله والعمل قال قد ابتليت بالمصائب فرزقت الصبر عليها فبذلك فضلتهم .

وهذه المرائى وإن لم تصح بمجردها لاثبات مثل ذلك فهى على كثرتها وأنها لا يحصيها إلا الله قد تواطأت على هذا المعنى وقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم أرى رؤياكم قد تواطأت على أنها فى العشر الأواخر يعنى ليلة القدر فإذا تواطأت رؤيا المؤمنين على شىء كان كتواطؤ روايتهم له وكتواطؤ رأيهم على استحسانه واستقباحه ومارآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن ومارأوه قبيحاً فهو عند الله قبيح على أنا لم نثبت هذا بمجرد الرؤيا بل بما ذكرناه من الحجج وغيرها .

وقد ثبت فى الصحيح أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه (فروى) مسلم فى صحيحه من حديث عبد الرحمن بن شماسة المهرى قال حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياق الموت فبكى طويلا وحول وجهه إلى الجدار فجعل ابنه يقول ما يبكيك يا أبتاه أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكذا ؟ فأقبل بوجهه فقال إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإنى كنت على أطباق ثلاث لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضاً لرسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم منى ولا أحب إلى أن أكون قد استمكنت منه فقتلته فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار فلما جعل الله الاسلام فى قلبى لقيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت ابسط يدك فلأبايعك فبسط يمينه قال فقبضت يدى قال فقال مالك ياعمرو ؟ قال قلت أردت أن اشترط قال تشترط ماذا ؟ قلت أن يغفر لى قال أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟ وما كان أحد أحب إلى من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أجل فى عينى منه وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأنى لم أكن أملأ عينى منه ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة ، ثم ولينا أشياء ما أدرى ما حالى فيها فإذا أنامت فلا تصحبنى نائحة ولا نار فإذا دفنتمونى فسنوا على التراب سنا ثم أقيموا حول قبرى قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربى فدل على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويسر بهم .

وقد ذكر عن جماعة من السلف أنهم أوصوا أن يقرأ عند قبورهم وقت الدفن قال عبد الحق يروى أن عبد الله بن عمر أمر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة . وممن رأى ذلك المعلى بن عبد الرحمن وكان الامام أحمد ينكر ذلك أولا حيث لم يبلغه فيه أثر ثم رجع عن ذلك .

(وقال الخلال) فى الجامع ، كتاب القراءة عند القبور (اخبرنا) العباس بن محمد الدورى حدثنا يحيى بن معين حدثنا مبشر الحلبى حدثنى عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه قال قال أبى إذا أنامت فضعنى فى اللحد وقل بسم الله وعلى سنة رسول الله وسن على التراب سنا واقرأ عند رأسى بفاتحة البقرة فإنى سمعت عبد الله بن عمر يقول ذلك (قال) عباس الدورى سألت أحمد بن حنبل قلت تحفظ فى القراءة على القبر شيئاً ؟ فقال لا وسألت يحيى ابن معين فحدثنى بهذا الحديث .

(قال الخلال) وأخبرنى الحسن بن أحمد الوراق حدثنى على بن موسى الحداد وكان صدوقا قال كنت مع أحمد بن حنبل ومحمد بن قدامة الجوهرى فى جنازة فلما دفن الميت جلس رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد ياهذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لاحمد بن حنبل يا أبا عبد الله ما تقول فى مبشر الحلبى ؟ قال ثقة قال كتبت عنه شيئاً ، قال نعم فأخبرنى مبشر عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه بفاتحة البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك فقال له أحمد فارجع وقل للرجل يقرأ .

(وقال) الحسن بن الصباح الزعفرانى سألت الشافعى عن القراءة عنـــد القبر فقال لابأس بها .

(وذكر الخلال) عن الشعبى قال كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرءون عنده القرآن . قال وأخبرنى أبو يحيى الناقد قال سمعت الحسن بن الجروى يقول مررت على قبر أخت لى فقرأت عندها تبارك لمـــا يذكر فيها فجاءنى رجل فقال إنى رأيت أختك فى المنام تقول جزى الله أبا على خيراً فقد انتفعت بما قرأ (أخبرنى) الحسن بن الهيثم قال سمعت أبا بكر بن الأطروش ابن بنت أبى نصر بن التمار يقول كان رجل يجىء إلى قبر أمه يوم الجمعة فيقرأ سورة يس فجاء فى بعض أيامه فقرأ سورة يس ثم قال اللهم إن كنت قسمت لهذه السورة ثواباً فاجعله فى أهل هذه المقابر فلما كان يوم الجمعة التى تليها جاءت امرأة فقالت أنت فلان ابن فلانة ؟ قال نعم قالت إن بنتا لى ماتت فرأيتها فى النوم جالسة على شفير قبرها فقلت ما أجلسك هاهنا ؟ فقالت إن فلان ابن فلانة جاء إلى قبر أمه فقرأ سورة يس وجعل ثوابها لأهل المقابر فأصابنا من روح ذلك أو غفر لنا أو نحو ذلك .

(وفى النسائى) وغيره من حديث معقل بن يسار المزنى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال اقرأوا « يس » عند موتاكم . وهذا يحتمل أن يراد به قراءتها على المحتضر عند موته مثل قوله : لقنوا موتاكم لا إله إلا الله . ويحتمل أن يراد به القراءة عنـــد القبر . والأول أظهر لوجوه .

(الأول) أنه نظير قوله : لقنوا موتاكم لا إله إلا الله .

(الثانى) انتفاع المحتضر بهذه السورة لما فيها من التوحيد والمعاد والبشرى بالجنة لأهل التوحيد وغبطة من مات عليه بقوله (ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) فتستبشر الروح بذلك فتحب لقاء الله فيحب الله لقاءها فإن هذه السورة قلب القرآن ولها خاصية عجيبة فى قراءتها عند المحتضر .

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزى قال كنا عند شيخنا أبى الوقت عبد الأول وهو فى السياق وكان آخر عهدنا به أنه نظر إلى السماء وضحك وقال (ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) وقضى .

(الثالث) ان هذا عمل الناس وعادتهم قديما وحديثاً يقرأون « يس » عند المحتضر .

(الرابع) ان الصحابة لو فهموا من قوله صلى الله عليه وآله وسلم اقرأوا « يس » عند موتاكم ، قراءتها عند القبر ؛ لما أخلوا به وكان ذلك أمراً معتاداً مشهوراً بينهم .

(الخامس) ان انتفاعه باستماعها وحضور قلبه وذهنه عند قراءتها فى آخر عهده بالدنيا هو المقصود وأما قراءتها عند قبره فانه لايثاب على ذلك لان الثواب إما بالقراءة أوبالاستماع وهو عمل وقد انقطع من الميت .

وقد ترجم الحافظ أبو محمد عبد الحق الأشبيلى على هـــذا فقال ذكر ماجاء ان الموتى يسألون عن الاحياء ويعرفون أقوالهم وأعمالهم ثم قال (ذكر) أبو عمر بن عبد البر من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما من رجل يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام . ويروى هذا من حديث أبى هريرة مرفوعا قال فإن لم يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام .

(قال) ويروى من حديث عائشة رضى الله عنهـا أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما من رجل يزور قبر أخيه فيجلس عنده إلا استأنس به حتى يقوم .

واحتج الحافظ أبو محمد فى هذا الباب بمـا رواه أبو داود فى سننه من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مامن أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام . قال وقال سليمان بن نعيم رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى النوم فقلت يارسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه منهم ؟ قال نعم وأرد عليهم ، قال وكان صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم أن يقولوا إذا دخلوا المقابر السلام عليكم أهل الديار الحديث . قال وهذا يدل على أن الميت يعرف سلام من يسلم عليه ودعاء من يدعو له .

(قال أبو محمد) ويذكر عن الفضل بن الموفق قال كنت آتى قبر أبى المرة بعد المرة فأكثر من ذلك فشهدت يوماً جنازة فى المقبرة التى دفن فيها فتعجلت لحاجتى ولم آته فلما كان من الليل رأيته فى المنام فقال لى يابنى لم لا تأتينى ؟ قلت له يا أبت وإنك لتعلم بى إذا أتيتك ؟ قال أى والله يابنى لاأزال أطلع عليك حين تطلع من القنطرة حتى تصل إلى وتقعد عندى ثم تقوم فلا أزال أنظر إليك حتى تجوز القنطرة .

قال ابن أبى الدنيا : حدثنى إبراهيم بن بشار الكوفى قال حـــدثنى الفضل بن الموفق فذكر القصة .

وصح عن عمرو بن دينار أنه قال ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون فى أهله بعده وأنهم ليغسلونه ويكفنونه وأنه لينظر إليهم .

وصح عن مجاهد أنه قال إن الرجل ليبشر فى قبره بصلاح ولده من بعده .

فصـــل

ويدل على هذا أيضاً ما جرى عليه عمل الناس قديماً وإلى الآن من تلقين الميت فى قبره ولولا أنه يسمع ذلك وينتفع به لم يكن فيه فائدة وكان عبثاً وقد سئل عنه الإمام أحمد رحمه الله فاستحسنه واحتج عليه بالعمل .

ويروى فيه حديث ضعيف ذكره الطبرانى فى معجمه من حديث أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يافلان ابن فلانة فإنه يسمع ولايجيب ثم ليقل يافلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوى قاعداً ثم ليقل يافلان ابن فلانة يقول أرشدنا رحمك الله ولكنكم لاتسمعون ، فيقول أذكر ماخرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنك رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبياً ، وبالقرآن إماماً ، فان منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما ويقول انطلق بنا ما يقعدنا عندهذا وقد لقن حجته ويكون الله ورسوله حجيجه دونهما فقال رجل يارسول الله فإن لم يعرف أمه ؟ قال ينسبه إلى أمه حواء .

فهذا الحديث وإن لم يثبت فاتصال العمل به فى سائر الأمصار والأعصار من غير انكار كاف فى العمل به وما أجرى الله سبحانه العادة قط بأن أمة طبقت مشارق الأرض ومغاربها وهى أكمل الأمم عقولا وأوفرها معارف تطبق على مخاطبة من لايسمع ولا يعقل وتستحسن ذلك لاينكره منها منكر بل سنه الأول للآخر ويقتدى فيه الآخر بالأول فلولا ان المخاطب يسمع لكان ذلك بمنزلة الخطاب للتراب والخشب والحجر والمعدوم وهذا وان استحسنه واحد فالعلماء قاطبة على استقباحه واستهجانه .

وقد روى أبو داود فى سننه بإسناد لا بأس به أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم حضر جنازة رجل فلما دفن قال سلوا لأخيكم التثبيت فإنه الآن يسأل . فأخبر أنه يسأل حينئذ وإذا كان يسأل فإنه يسمع التلقين .

وقد صح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا ولوا منصرفين . وذكر عبد الحق عن بعض الصالحين قال مات أخ لى فرأيته فى النوم فقلت يا أخى ما كان حالك حين وضعت فى قبرك ؟ قال أتانى آت بشهاب من نار فلولا أن داعياً دعا لى لهلكت .

وقال شبيب بن شيبة أوصتنى أمى عند موتها فقالت يابنى إذا دفنتنى فقم عند قبرى وقل يا أم شبيب قولى لا إله إلا الله فلما دفنتها قمت عند قبرها فقلت يا أم شبيب قولى لا إله إلا

الله ثم انصرفت فلما كان من الليل رأيتها فى النوم فقالت يا بنى كدت أهلك لولا أن تداركنى لاإله إلا الله فقد حفظت وصيتى يابنى .

وذكر ابن أبى الدنيا عن تماضر بنت سهل امرأة أيوب بن عيينة قالت رأيت سفيان بن عيينة فى النوم فقال جزى الله أخى أيوب عنى خيراً فإنه يزورنى كثيراً وقد كان عندى اليوم فقال أيوب نعم حضرت الجبان اليوم فذهبت إلى قبره .

وصح عن حمـــاد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب أن الصعب بن جثامة وعوف ابن مالك كانا متآخيين قال صعب لعوف أى أخى أينا مات قبل صاحبه فليتراءا له قال أو يكون ذلك ؟ قال نعم فمات صعب فرآه عوف فيما يرى النائم كأنه قد أتاه قال قلت أى أخى قال نعم قلت مافعل بكم ؟ قال غفر لنا بعد المصائب قال ورأيت لمعة سوداء فى عنقه قلت أى أخى ماهذا ؟ قال عشرة دنانير استسلفتها من فلان اليهودى فهن فى قرنى فأعطوه إياها ، واعلم أى أخى أنه لم يحدث فى أهلى حدث بعد موتى إلا قد لحق بى خبره حتى هرة لنا ماتت منذ أيام ، واعلم أن بنتى تموت إلى ستة أيام فاستوصوا بها معروفاً فلما أصبحت قلت إن فى هذا لمعلما فأتيت أهله فقالوا مرحباً بعوف أهكذا تصنعون بتركة إخوانكم لم تقربنا منذ مات صعب قال فاعتللت بما يعتل به الناس فنظرت إلى القرن فأنزلته فانتثلت ما فيه فوجدت الصرة التى فيها الدنانير فبعثت بها إلى اليهودى فقلت هل كان لك على صعب شىء ؟ قال رحم الله صعبا كان من خيار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هى له قلت لتخبرنى قال نعم أسلفته عشرة دنانير فنبذتها إليه قال هى والله بأعيانها قال قلت هذه واحدة .

قال فقلت هل حدث فيكم حدث بعد موت صعب قالوا نعم حدث فينا كذا حدث قال قلت اذكروا قالوا نعم هرة ماتت منذ أيام فقلت هاتان اثنتان .

قلت أمن ابنة أخى ؟ قالوا تلعب فأتيت بها فمسستها فإذا هى محمومة فقلت استوصوا بها معروفا فماتت فى ستة أيام .

وهذا من فقه عوف رحمه الله وكان من الصحابة حيث نفذ وصية الصعب بن جثامة بعد موته وعلم صحة قوله بالقرائن التى أخبره بها من أن الدنانير عشرة وهى فى القرن ثم سأل اليهودى فطابق قوله لما فى الرؤيا فجزم عوف بصحة الأمر فأعطى اليهودى الدنانير وهذا فقه إنما يليق بأفقه الناس وأعلمهم وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولعل أكثر المتأخرين ينكر ذلك ويقول كيف جاز لعوف أن ينقل الدنانير من تركة صعب وهى لايتامه وورثته إلى يهودى بمنام .

ونظير هذا من الفقه الذى خصهم الله به دون الناس قصة ثابت بن قيس بن شماس وقد ذكرها أبو عمر بن عبد البر وغيره (قال) أبو عمر أخبرنا عبد الوارث بن سفيان حدثنا قاسم بن أصبغ حدثنا أبو الزنباع روح بن الفرج حدثنا سعيد بن عفير وعبد العزيز بن يحيى المدنى حدثنا مالك بن أنس عن ابن شهاب عن إسماعيل بن محمد بن ثابت الأنصارى عن ثابت ابن قيس بن شماس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له يا ثابت أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ؟ قال مالك فقتل ثابت بن قيس يوم اليمامة شهيداً .

(قال) أبو عمرو روى هشام بن عمار عن صدقة بن خالد حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال حدثنى عطاء الخراسانى قال حدثتنى ابنة ثابت بن قيس بن شماس قالت لما نزلت (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) دخل أبو هابة وأغلق عليه بابه ففقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأرسل إليه يسأله ماخبره ؟ قال أنا رجل شديد الصوت أخاف أن يكون قد حبط عملى قال لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير قال ثم أنزل الله (إن الله لا يحب كل مختال فخور) فأغلق عليه بابه وطفق يبكى ففقده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل إليه فأخبره فقال يارسول الله إنى أحب الجمال وأحب أن أسود قومى فقال لست منهم بل تعيش حميدا وتقتل شهيداً وتدخل الجنة . قالت فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة فلما التقوا وانكشفوا قال ثابت وسالم مولى أبى حذيفة ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم حفر كل واحد له حفرة فثبتا وقاتلا حتى قتلا وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة فمر به رجل من المسلمين فأخذها فبينما رجل من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت فى منامه فقال له أوصيك بوصية فاياك أن تقول هذا حلم فتضيعه إنى لما قتلت أمس مر بى رجل من المسلمين فأخذ درعى ومنزله فى أقصى الناس وعند خبائه فرس يستن فى طوله وقد كفأ على الدرع برمة وفوق البرمة رحل فأت خالداً فمره أن يبعث إلى درعى فيأخذها وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعنى أبا بكر الصديق فقل له أن على من الدين كذا وكذا وفلان من رقيق عتيق وفلان فأتى الرجل خالداً فأخبره فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته ، قال ولا نعلم أحداً أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس رحمه الله ، انتهى ما ذكره أبو عمرو .

فقد اتفق خالد وأبو بكر الصديق والصحابة معه على العمل بهذه الرؤيا وتنفيذ الوصية بها وانتزاع الدرع ممن هى فى يده وهذا محض الفقه .

وإذا كان أبو حنيفة وأحمد ومالك يقبلون قول المدعى من الزوجين مايصلح له دون الآخر بقرينة صدقه فهذا أولى .

وكذلك أبو حنيفة يقبل قول المدعى للحائط بوجود الآجر إلى جانبه وبمعاقد القمط .

وقد شرع الله حد المرأة بأيمان الزوج وقرينة تكون لها فإن ذلك من أظهر الأدلة على صدق الزوج .

وأبلغ من ذلك قتل المقسم عليه فى القسامة بأيمان المدعين مع القرينة الظاهرة من اللوث .

وقد شرع الله سبحانه قبول قول المدعين لتركة ميتهم إذا مات فى السفر وأوصى إلى رجلين من غير المسلمين فاطلع الورثة على خيانة الوصيين بأنهما يحلفان بالله ويستحقانه وتكون أيمانهما أولى من أيمان الوصيين وهذا أنزله الله سبحانه فى آخر الأمر فى سورة المائدة وهى من آخر القرآن نزولا ولم ينسخها شىء وعمل بها الصحابة بعده .

وهذا دليل على أنه يقضى فى الأموال باللوث وإذا كان الدم يباح باللوث فى القسامة فلأن يقضى باللوث وهو القرائن الظاهرة فى الأموال أولى وأحرى .

وعلى هذا عمل ولاة العدل فى استخراج السرقات من السراق حتى أن كثيراً ممن ينكر ذلك عليهم يستعين بهم إذا سرق ماله .

وقد حكى الله سبحانه عن الشاهد الذى شهد بين يوسف الصديق وامرأة العزيز أنه حكم بالقرينة على صدق يوسف وكذب المرأة ولم ينكر الله سبحانه عليه ذلك بل حكاه عنه تقريراً له .

وأخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن نبى الله سليمان بن داود أنه حكم بين المرأتين اللتين ادعتا الولد الصغرى بالقرينة التى ظهرت له لما قال ائتونى بالسكين أشق الولد بينكما فقالت الكبرى نعم رضيت بذلك للتسلى بفقد ابن صاحبتها وقالت الأخرى لاتفعل هو ابنها فقضى به لها للشفقة والرحمة التى قامت بقلبها حتى سمحت به للأخرى ويبقى حيا وتنظر إليه .

وهذا من أحسن الأحكام وأعدلها وشريعة الإسلام تقرر مثل هذا وتشهد بصحته وهل الحكم بالقيافة والحاق النسب بها للاعتماد على قرائن الشبه مع اشتباهها وخفائها غالباً .

المقصود أن القرائن التى قامت فى رؤيا عوف بن مالك وقصة ثابت بن قيس لاتقصر عن كثير من هذه القرائن بل هى أقوى من مجرد وجود الآجر ومعاقد القمط وصلاحية المتاع للمدعى دون الآخر فى مسألة الزوجين والصانعين وهذا ظاهر لاخفاء به وفطر الناس وعقولهم تشهد بصحته وبالله التوفيق .

والمقصود جواب السائل وأن الميت إذا عرف مثل هذه الجزئيات وتفاصيلها فمعرفته بزيارة الحى له وسلامه عليه ودعائه له أولى وأحرى .

المسألة الثانية

وهى أن أرواح الموتى هل تتلاقى وتتزاور وتتذاكر أم لا ؟

وهى أيضاً مسألة شريفة كبيرة القدر وجوابها أن الأرواح قسمان : أرواح معذبة وأرواح منعمة . فالمعذبة فى شغل بما هى فيه من العذاب عن التزاور والتلاقى . والأرواح المنعمة المرسلة غير المحبوسة تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها فى الدنيا وما يكون من أهل الدنيا فتكون كل روح مع رفيقها الذى هو على مثل عملها وروح نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى الرفيق الأعلى قال الله تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) وهذه المعية ثابتة فى الدنيا وفى دار البرزخ وفى دار الجزاء والمرء مع من أحب فى هذه الدور الثلاثة .

(وروى) جرير عن منصور عن أبى الضحى عن مسروق قال : قال أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما ينبغى لنا أن نفارقك فى الدنيا فإذا مت رفعت فوقنا فلم نرك فأنزل الله تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

(وقال الشعبى) جاء رجل من الأنصار وهو يبكى إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال ما يبكيك يا فلان ؟ فقال يا نبى الله والله الذى لا إله إلا هو لأنت أحب إلى من أهلى ومالى والله الذى لا إله إلا هو لأنت أحب إلى من نفسى ، وأنا أذكرك أنا وأهلى فيأخذنى كذا حتى أراك فذكرت موتك وموتى فعرفت أنى لن أجامعك إلا فى الدنيا وإنك ترفع بين النبيين وعرفت انى إن دخلت الجنة كنت فى منزل أدنى من منزلك ، فلم يرد النبى صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً فأنزل الله تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) إلى قوله (وكفى بالله عليما) وقال تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) أى ادخلى جملتهم وكونى معهم وهذا يقال للروح عند الموت .

(وفى قصة الاسراء) من حديث عبد الله بن مسعود قال لما اسرى النبى صلى الله عليه وسلم لقى إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فتذاكروا الساعة فبدأوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم ثم بموسى فلم يكن عنده منها علم حتى أجمعوا الحديث الى عيسى فقال عيسى عهد الله الى فيما دون وجبتها فذكر خروج الدجال قال فأهبط

فأقتله ويرجع الناس[١] إلى بلادهم فتستقبلهم يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فلا يمرون بماء إلا شربوه ولا يمرون بشيء الا أفسدوه فيجأرون إلى فأدعو[٢] الله فيميتهم فتجأر الأرض الى الله من ريحهم ويجأرون الى فادعو ويرسل الله السماء بالماء فيحمل أجسامهم فيقذفها فى البحر ثم ينسف الجبال ويمد الأرض مد الأديم فعهد الله الى اذا كان كذلك فان الساعة من الناس كالحامل المتم لايدرى أهلها متى تفجؤهم بولادتها ليلا أو نهاراً ذكره الحاكم والبيهقى وغيرهما .

وهذا نص فى تذاكر الأرواح العلم .

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون وأنهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم وأنهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل وهذا يدل على تلاقيهم من ثلاثة أوجه (أحدها) أنهم عند ربهم يرزقون وإذا كانوا أحياء فهم يتلاقون (الثانى) أنهم إنما استبشروا باخوانهم لقدومهم عليهم ولقائهم لهم (الثالث) ان لفظ يستبشرون يفيد فى اللغة أنهم يبشر بعضهم بعضاً مثل يتباشرون .

وقد تواترت المرائى بذلك (فمنها) ما ذكره صالح بن بشير[٣] قال رأيت عطاء السلمى فى النوم بعد موته فقلت له يرحمك الله لقد كنت طويل الحزن فى الدنيا فقال أما والله لقد أعقبنى ذلك فرحاً طويلا وسروراً دائماً فقلت فى أى الدرجات أنت ؟ قال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

(وقال) عبد الله بن المبارك رأيت سفيان الثورى فى النوم فقلت له ما فعل الله بك قال لقيت محمداً وحزبه .

(وقال) صخر بن راشد رأيت عبد الله بن المبارك فى النوم بعد موته فقلت أليس قد مت ؟ قال بلى قلت فما صنع الله بك ؟ قال غفر لى مغفرة أحاطت بكل ذنب قلت فسفيان الثورى ؟ قال بخ بخ ذاك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

(وذكر) ابن أبى الدنيا[٤] من حديث حماد بن زيد عن هشام بن حسان عن يقظة بنت

---

[١] من المستدرك .

[٢] هكذا فى المستدرك ووقع فى الأصل الى الله فيدعو .

[٣] هو أبو بشر المرى البصرى مات سنة (١٧٦) .

[٤] هو عبد الله بن محمد مات سنة (٢٨١) .

راشد قالت كان مروان المحلمى لى جاراً وكان قاضياً مجتهداً قالت فمات فوجدت عليه وجداً شديداً قالت فرأيته فيما يرى النائم قلت أبا عبدالله ماصنع بك ربك ؟ قال أدخلنى الجنة قلت ثم ماذا ؟ قال ثم رفعت إلى أصحاب اليمين قلت ثم ماذا ؟ قال ثم رفعت إلى المقربين قلت فمن رأيت من إخوانك ؟ قال رأيت الحسن وابن سيرين وميمون بن سياه . قال حماد قال هشام بن حسان فحدثتنى أم عبدالله وكانت من خيار نساء أهل البصرة قالت رأيت فيما يرى النائم كأنى دخلت داراً حسنة ثم دخلت بستانا فذكرت من حسنه ماشاء الله فإذا أنا فيه برجل متكىء على سرير من ذهب وحوله الوصفاء بأيديهم الأكاويب قالت فإنى لمتعجبة من حسن ما أرى إذ قيل هذا مروان المحلمى أقبل فوثب فاستوى جالساً على سريره قالت واستيقظت من منامى فإذا جنازة مروان قد مربها على بابى تلك الساعة .

وقد جاءت سنة صريحة بتلاقى الأرواح وتعارفها (قال) ابن أبى الدنيا حدثنى محمد بن عبدالله بن بزيغ أخبرنى فضيل بن سليمان النميرى حدثنى يحيى بن عبدالرحمن بن أبى لبيبة عن جده قال لما مات بشر بن البراء بن معرور وجدت عليه أم بشر وجداً شديداً فقالت يارسول الله إنه لايزال الهالك يهلك من بنى سلمة فهل تتعارف الموتى فأرسل إلى بشر بالسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نعم والذى نفسى بيده يا أم بشر انهم ليتعارفون كما تتعارف الطير فى رءوس الشجر وكان لايهلك هالك من بنى سلمة إلا جاءته أم بشر فقالت يافلان عليك السلام فيقول وعليك فتقول اقرأ على بشر السلام .

(وذكر) ابن أبى الدنيا من حديث سفيان عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير قال أهل القبور يتوكفون الأخبار فإذا أتاهم الميت قالوا مافعل فلان ؟ فيقول صالح . مافعل فلان ؟ يقول صالح . مافعل فلان ؟ فيقول ألم يأتكم أو ماقدم عليكم ؟ فيقولون لافيقول إنا لله وإنا إليه راجعون سلك به غير سبيلنا .

(وقال) صالح المرى بلغنى أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التى تخرج إليهم كيف كان مأواك وفى أى الجسدين كنت فى طيب أم خبيث ؟ ثم بكى حتى غلبه البكاء .

(وقال) عبيد بن عمير إذا مات الميت تلقته الأرواح يستخبرونه كما يستخبر الركب مافعل فلان ؟ مافعل فلان ؟ فإذا قال توفى ولم يأتهم قالوا ذهب به إلى أمه الهاوية (وقال) سعيد بن المسيب إذا مات الرجل استقبله والده كما يستقبل الغائب .

(وقال) عبيد بن عمير أيضاً لو أنى آيس من لقاء من مات من أهلى لألفانى قد مت كمدا .

(وذكر) معاوية بن يحيى عن عبد الله بن سلمة أن أبا رهم السمعى حدثه أن أبا أيوب الأنصارى حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير فى الدنيا فيقولون انظروا أخاكم حتى يستريح فإنه كان فى كرب شديد فيسألونه ماذا فعل فلان ؟ وماذا فعلت فلانة؟ وهل تزوجت فلانه ؟ فإذا سألوه عن رجل مات قبله قال إنه قد مات فبلى قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية .

وقد تقدم حديث يحيى بن بسطام حدثنى مسمع بن عاصم قال رأيت عاصما الجحدرى فى منامى بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مت ؟ قال بلى قلت وأين أنت ؟ قال أنا والله فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزنى فنتلقى أخباركم قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيهات بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح .

المسألة الثالثة

وهى هل تتلاقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات أم لا ؟

شواهد هذه المسألة وأدلتها أكثر من أن يحصيها إلا الله تعالى والحس والواقع من أعدل الشهود بها فتلتقى أرواح الأحياء والأموات كما تلتقى أرواح الأحياء وقد قال تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

(قال) أبو عبدالله بن منده حدثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم حدثنا عبدالله بن حسين الحرانى حدثنا جدى أحمد بن شعيب حدثنا موسى بن أعين عن مطرف عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى هذه الآية قال بلغنى ان أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام فيتساءلون بينهم فيمسك الله أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها .

(وقال) ابن أبى حاتم فى تفسيره حدثنا عبد الله بن سليمان حدثنا الحسين حدثنا عامر حدثنا اسباط عن السدى وفى قوله تعالى (والتى لم تمت فى منامها) قال يتوفاها فى منامها فيلتقى روح الحى وروح الميت فيتذاكران ويتعارفان قال فترجع روح الحى إلى جسده فى الدنيا إلى بقية أجلها وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس .

وهذا أحد القولين فى الآية وهو أن الممسكة من توفيت وفاة الموت أولا والمرسلة من

توفيت وفاة النوم والمعنى على هـــذا القول أنه يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى .

والقول الثانى فى الآية أن الممسكة والمرسلة فى الآية كلاهما توفى وفاة النوم فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلى جسدها ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمله واختار شيخ الإسلام هذا القول وقال عليه يدل القرآن والسنة قال فانه سبحانه ذكر إمساك التى قضى عليها الموت من هذه الأنفس التى توفاها وفاة النوم وأما التى توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بامساك ولا بإرسال بل هى قسم ثالث .

والذى يترجح هو القول الأول لأنه سبحانه أخبر بوفاتين وفاة كبرى وهى وفاة الموت ووفاة صغرى وهى وفاة النوم وقسم الأرواح قسمين فسما قضى عليها بالموت فأمسكها عنده وهى التى توفاها وفاة الموت وقسما لها بقية أجل فردها إلى جسدها إلى استكمال أجلها وجعل سبحانه الامساك والارسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولا فهذه ممسكة وهذه مرسلة وأخبر أن التى لم تمت هى التى توفاها فى منامها فلو كان قد قسم وفاة النوم إلى قسمين وفاة موت ووفاة نوم لم يقل (والتى لم تمت فى منامها) فإنها من حين قبضت ماتت وهو سبحانه قد أخبر أنها لم تمت فكيف يقول بعد ذلك (فيمسك التى قضى عليها الموت) .

ولمن نصر هذا القول أن يقول قوله تعالى (فيمسك التى قضى عليها الموت) بعد أن توفاها وفاة النوم فهو سبحانه توفاها أولا وفاة نوم ثم قضى عليها الموت بعد ذلك والتحقيق أن الآيه تتناول النوعين فإنه سبحانه ذكر وفاتين وفاة نوم ووفاة موت وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرى ومعلوم أنه سبحانه يمسك كل نفس ميت سواء مات فى النوم أو فى اليقظة ويرسل نفس من لم يمت فقوله : (يتوفى الأنفس حين موتها) يتناول من مات فى اليقظة ومن مات فى المنام .

وقد دل على التقاء أرواح الأحياء والأموات أن الحى يرى الميت فى منامه فيستخبره ويخبره الميت بما لا يعلم الحى فيصادف خبره كما أخبر فى الماضى والمستقبل وربما أخبره بمال دفنه الميت فى مكان لم يعلم به سواه وربما أخبره بدين عليه وذكر له شواهده وأدلته .

وأبلغ من هذا أنه يخبر بما عمله من عمل لم يطلع عليه أحد من العالمين وأبلغ من هذا أنه يخبره أنك تأتينا إلى وقت كذا وكذا فيكون كما أخبر وربما أخبره عن أمور يقطع الحى أنه لم يكن يعرفها غيره ، وقد ذكرنا قصة الصعب بن جثامة وقوله لعوف بن مالك ما قال له ، وذكرنا قصة ثابت بن قيس بن شماس وأخباره لمن رآه بدرعه وما عليه من الدين .

وقصة صدقة بن سليمان الجعفرى وأخبار ابنه له بما عمل من بعده ، وقصة شبيب بن شيبة وقول أمه له بعد الموت جزاك الله خيراً حيث لقنها لا إله إلا الله ، وقصة الفضل بن الموفق مع ابنه وإخباره إياه بعلمه بزيارته .

وقال سعيد بن المسيب التقى عبد الله بن سلام وسلمان الفارسى فقال أحدهما للآخر إن مت قبلى فالقنى فاخبرنى مالقيت من ربك وإن أنا مت قبلك لقيتك فأخبرتك فقال الآخر وهل تلتقى الأموات والأحياء ؟ قال نعم أرواحهم فى الجنة تذهب حيث تشاء قال فمات فلان فلقيه فى المنام فقال توكل وأبشر فلم أر مثل التوكل قط وقال العباس بن عبد المطلب كنت أشتهى أن أرى عمر فى المنام فما رأيته إلا عند قرب الحول فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول هذا أوان فراغى إن كاد عرشى ليهد لولا أن لقيت رءوفا رحيما .

ولما حضرت شريح بن عابد الثمالى الوفاة دخل عليه غضيف بن الحارث وهو يجود بنفسه فقال يا أبا الحجاج إن قدرت على أن تأتينا بعد الموت فتخبرنا بما ترى فافعل قال وكانت كلمة مقبولة فى أهل الفقه قال فمكث زمانا لا يراه ثم رآه فى منامه فقال له أليس قد مت ؟ قال بلى قال فكيف حالك ؟ قال تجاوز ربنا عنا الذنوب فلم يهلك منا إلا الاحراض قلت وما الاحراض ؟ قال الذين يشار إليهم بالأصابع فى الشىء .

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز رأيت أبى فى النوم بعد موته كأنه فى حديقة فدفع إلى تفاحات فأولنهن الولد فقلت أى الأعمال وجدت أفضل ؟ فقال الاستغفار أى بنى .

ورأى مسلمة بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز بعد موته فقال يا أمير المؤمنين ليت شعرى إلى أى الحالات صرت بعد الموت ؟ قال يامسلمة هذا أوان فراغى والله ما استرحت إلا الآن قال قلت فأين أنت يا أمير المؤمنين قال مع أئمة الهدى فى جنة عدن .

(قال) صالح البراد رأيت زرارة بن أوفى بعد موته فقلت رحمك الله ماذا قيل لك وماذا قلت ؟ فأعرض عنى قلت فما صنع الله بك ؟ قال تفضل على بجوده وكرمه قلت فأبو العلاء بن يزيد أخو مطرف؟ قال ذاك فى الدرجات العلى قلت فأى الأعمال أبلغ فيما عندكم ؟ قال التوكل وقصر الأمل .

(وقال) مالك بن دينار رأيت مسلم بن يسار بعد موته فسلمت عليه فلم يرد على السلام فقلت ما يمنعك أن ترد السلام ؟ قال أنا ميت فكيف أرد عليك السلام فقلت له ماذا لقيت بعد الموت ؟ قال لقيت والله أهوالا وزلازل عظاما شدادا قال قلت له فما كان بعد ذلك ؟ قال وما تراه يكون من الكريم . قبل منا الحسنات ، وعفا لنا عن السيئات . وضمن عنا التبعات . قال ثم شهق مالك شهقة خر مغشياً عليه ، قال فلبث بعد ذلك أياما مريضاً ، ثم انصدع قلبه فمات .

(وقال) سهيل أخو حزم رأيت مالك بن دينار بعد موته فقلت يا أبا يحيى ليت شعرى ماذا قدمت به على الله قال قدمت بذنوب كثيرة محاها عنى حسن الظن بالله عز وجل .

(ولما مات) رجاء بن حيوة رأته امرأة عابدة فقالت يا أبا المقدام إلام صرتم ؟ قال إلى خير ولكن فزعنا بعدكم فزعة ظننا أن القيامة قد قامت قالت قلت ومم ذلك ؟ قال دخل الجراح وأصحابه الجنة بأثقالهم حتى ازدحموا على بابها .

(وقال) جميل بن مرة كان مورق العجلى لى أخا وصديقا فقلت له ذات يوم أينا مات قبل صاحبه فليأت صاحبه فليخبره بالذى صار إليه قال فمات مورق فرأت أهلى فى منامها كأنه أتانا كما كان يأتى فقرع الباب كما كان يقرع قالت فقمت ففتحت له كما كنت أفتح وقلت أدخل يا أبا المعتمر إلى باب أخيك فقال كيف أدخل وقد ذقت الموت ؛ إنما جئت لأعلم جميلا بما صنع الله بى أعلميه أنه قد جعلنى فى المقربين .

(ولما مات) محمد بن سيرين حزن عليه بعض أصحابه حزناً شديداً فرآه فى المنام فى حال حسنة فقال يا أخى قد أراك فى حال يسرنى فما صنع الحسن ؟ قال رفع فوقى بسبعين درجة ، قلت ولم ذاك وقد كنا نرى أنك أفضل منه ؟ قال ذاك بطول حزنه .

(وقال) ابن عيينة رأيت سفيان الثورى فى النوم فقلت أوصنى قال أقل من معرفة الناس .

(وقال) عمار بن سيف رأيت الحسن بن صالح فى منامى فقلت قد كنت متمنياً للقائك فماذا عندك فتخبرنا به فقال أبشر فإنى لم أر مثل حسن الظن بالله شيئاً .

(ولما مات) ضيغم العابد رآه بعض أصحابه فى المنام فقال أما صليت على ؟ قال فذكرت علة كانت فقال أما لو كنت على نجت رأسك .

(ولما ماتت) رابعة رأتها امرأة من أصحابها وعليها حلة استبرق وخمار من سندس وكانت كفنت فى جبة وخمار من صوف فقالت لها ما فعلت الجبة التى كفنتك فيها وخمار الصوف ؟ قالت والله انه نزع عنى وأبدلت به هذا الذى ترين على وطويت أكفانى وختم عليها ورفعت فى عليين ليكمل لى ثوابها يوم القيامة ، قالت فقلت لها لهذا كنت تعملين أيام الدنيا ؟ فقالت وما هذا عند ما رأيت من كرامة الله لأوليائه فقلت لها فما فعلت عبدة بنت أبى كلاب ؟ فقالت هيهات هيهات سبقتنا والله إلى الدرجات العلى ، قالت قلت ويم وقد كنت عند الناس أعبد منها ؟ فقالت انها لم تكن تبالى على أى حال أصبحت من الدنيا أو أمست فقلت فما فعل أبو مالك تعنى ضيغما فقالت يزور الله تبارك وتعالى متى شاء ، قالت :

قلت فما فعل بشر بن منصور ؟ قالت بخ بخ أعطى والله فوق ما كان يأمل . قالت قلت مرنى بأمر أتقرب به إلى الله تعالى قالت عليك بكثرة ذكر الله فيوشك أن تغتبطى بذلك فى قبرك .

(ولما مات) عبد العزيز بن سليمان العابد رآه بعض أصحابه وعليه ثياب خضر وعلى رأسه أكليل من لؤلؤ فقال كيف كنت بعدنا وكيف وجدت طعم الموت وكيف رأيت الأمر هناك ؟ قال أما الموت فلا تسأل عن شدة كربه وغمه إلا أن رحمة الله وارت عنا كل عيب وما تلقانا إلا بفضله .

(وقال) صالح بن بشر لما مات عطاء السلمى رأيته فى منامى فقلت يا أبا محمد ألست فى زمرة الموتى ؟ قال بلى . قلت فماذا صرت إليه بعد الموت ؟ قال صرت والله إلى خير كثير ورب غفور شكور . قال قلت أما والله لقد كنت طويل الحزن فى دار الدنيا ، فتبسم وقال والله لقد أعقبنى ذلك راحة طويلة وفرحاً دائماً ، قلت فى أى الدرجات أنت ؟ قال مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقا .

(ولما مات) عاصم الجحدرى رآه بعض أهله فى المنام فقال أليس قد مت ؟ قال بلى قال فأين أنت ؟ قال أنا والله فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزنى فنتلقى أخباركم ، قال قلت أجسادكم أم أرواحكم ؟ قال هيهات بليت الأجساد وإنما تتلاقى الأرواح .

(ورئى) الفضيل بن عياض بعد موته فقال لم أر للعبد خيراً من ربه .

(وكان مرة الهمدانى) قد سجد حتى أكل التراب جبهته فلما مات رآه رجل من أهله فى منامه وكأن موضع سجوده كهيئة الكوكب الدرى فقال ماهذا الأثر الذى أرى بوجهك ؟ قال كسى موضع السجود بأكل التراب له نوراً ، قال قلت فما منزلتك فى الآخرة ؟ قال خير منزل ، دار لاينتقل عنها أهلها ولايموتون .

(وقال) أبو يعقوب القارى رأيت فى منامى رجلا آدما طوالا والناس يتبعونه قلت من هذا ؟ قالوا أويس القرنى فاتبعته فقلت أوصنى يرحمك الله فكلح فى وجهى فقلت مسترشد فأرشدنى رحمك الله فأقبل على فقال ابتغ رحمة الله عند محبته ، واحذر نقمته عند معصيته ، ولاتقطع رجاءك منه فى خلال ذلك ، ثم ولى وتركنى .

(وقال) ابن السماك رأيت مسعراً فى النوم فقلت أى الأعمال وجدت أفضل ؟ قال مجالس الذكر (وقال الأجلح) رأيت سلمة بن كهيل فى النوم فقلت أى الأعمال وجدت أفضل ؟ قال قيام الليل (وقال) أبو بكر بن أبى مريم رأيت وفاء بن بشر بعد موته فقلت مافعلت

ياوفاء ؟ قال نجوت بعد كل جهد قلت فأى الأعمال وجدتموها أفضل قال البكاء من خشية الله عز وجل .

(وقال) الليث بن سعد عن موسى بن وردان أنه رأى عبد الله بن أبى حبيبة بعد موته فقال عرضت على حسناتى وسيئاتى فرأيت فى حسناتى حبات رمان التفاحتين فأكلهن ، ورأيت فى سيئاتى خيطى حرير كانا فى قلنسوتى .

(وقال) سنيد بن داود حدثنى ابن أخى جويرية بن أسماء قال كنا بعبادان فقدم علينا شاب من أهل الكوفة متعبد فمات بها فى يوم شديد الحر فقلت نبرد ثم نأخذ فى جهازه فنمت فرأيت كأنى فى المقابر فإذا بقبة جوهر تتلألأ حسناً وأنا أنظر إليها إذ انفلقت فأشرفت منها جارية ما رأيت مثل حسنها فأقبلت على فقالت بالله لاتحبسه عنا إلى الظهر قال فانتبهت فزعا وأخذت فى جهازه وحفرت له قبراً فى الموضع الذى رأيت فيه القبة فدفنته فيه .

(وقال) عبد الملك بن عتاب الليثى رأيت عامر بن عبد قيس فى النوم فقلت أى الأعمال وجدت أفضل ؟ قال ما أريد به وجه الله عز وجل .

(وقال) يزيد بن هارون رأيت أبا العلاء أيوب بن مسكين فى المنام فقلت ما فعل بك ربك ؟ قال غفر لى قلت بماذا ؟ قال بالصوم والصلاة ، قلت أرأيت منصور بن زاذان ؟ قال هيهات ذاك نرى قصره من بعيد .

(وقال) يزيد بن نعامة هلكت جارية فى طاعون الجارف فلقيها أبوها بعد موتها فقال لها يا بنية أخبرينى عن الآخرة ، قالت يا أبت قدمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان فى صحيفة عمل أحب إلى من الدنيا وما فيها وقال كثير بن مرة رأيت فى منامى كأنى دخلت درجة عليا فى الجنة فجعلت أطوف بها وأتعجب منها فإذا أنا بنساء من نساء المسجد فى ناحية منها فذهبت حتى سلمت عليهن ثم قلت بما بلغتن هذه الدرجة ؟ قلن بسجدات وتكبيرات وقال مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز عن فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر بن عبد العزيز قالت انتبه عمر بن عبد العزيز ليلة فقال لقد رأيت رؤيا معجبة قالت فقلت جعلت فداءك فأخبرنى بها فقال ما كنت لأخبرك بها حتى أصبح فلما طلع الفجر خرج فصلى ثم عاد إلى مجلسه ، قالت فاغتنمت خلوته فقلت أخبرنى بالرؤيا التى رأيت ، قال رأيت كأنى رفعت إلى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر وإذا فيها قصر أبيض كأنه الفضة وإذا خارج قد خرج من ذلك القصر فهتف بأعلى صوته يقول أين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى دخل ذلك القصر قال ثم ان آخر خرج من ذلك القصر فنادى

أين أبو بكر الصديق أين ابن أبي قحافة ، إذ أقبل أبو بكر حتى دخل ذلك القصر ثم خرج آخر فنادى أين عمر بن الخطاب ، فأقبل عمر حتى دخل ذلك القصر ثم خرج آخر فنادى أين عثمان ابن عفان ، فأقبل حتى دخل ذلك القصر ثم خرج آخر فنادى أين على بن أبي طالب ، فأقبل حتى دخل ذلك القصر ثم ان آخر خرج فنادى أين عمر بن عبد العزيز . قال عمر فقمت حتى دخلت ذلك القصر قال فدفعت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقوم حوله فقلت بيني وبين نفسي أين أجلس ، فجلست إلى جنب أبي عمر بن الخطاب فنظرت فإذا أبو بكر عن يمين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإذا عمر عن يساره فتأملت فإذا بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين أبي بكر رجل فقلت من هذا الرجل الذي بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين أبي بكر ؟ فقال هذا عيسى بن مريم فسمعت هاتفاً يهتف وبيني وبينه ستر نور يا عمر بن عبد العزيز تمسك بما أنت عليه وانبت على ما أنت عليه ثم كأنه أذن لي في الخروج فخرجت من ذلك القصر فالتفت خلفي فإذا أنا بعثمان بن عفان وهو خارج من ذلك القصر يقول الحمد لله الذي نصرني وإذا علي بن أبي طالب في أثره خارج من ذلك القصر وهو يقول الحمد لله الذي غفر لي .

(وقال) سعيد بن أبي عروبة عن عمر بن عبد العزيز رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وعمر جالسان عنده فسلمت وجلست فبينا أنا جالس إذ أتى بعلي ومعاوية فأدخلا بيتا وأجيف عليها الباب وأنا أنظر فما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول قضى لي ورب الكعبة وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول غفر لي ورب الكعبة .

(وقال) حماد بن أبي هاشم جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وأبو بكر عن يمينه وعمر عن شماله وأقبل رجلان يختصمان وأنت بين يديه جالس فقال لك يا عمر إذا عملت فاعمل بعمل هذين لأبي بكر وعمر فاستحلفه عمر بالله أرأيت هذه الرؤيا ؟ فحلف فبكى عمر .

(وقال) عبد الرحمن بن غنم رأيت معاذ بن جبل بعد وفاته بثلاث على فرس أبلق وخلفه رجال بيض عليهم ثياب خضر على خيل بلق وهو قدامهم وهو يقول (ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) ثم التفت عن يمينه وشماله يقول يا ابن رواحة يا ابن مظعون (الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) ثم صافحني وسلم علي .

(وقال) قبيصة بن عقبة رأيت سفيان الثورى فى المنام بعد موته فقلت مافعل الله بك ؟ فقال :

نظرت إلى ربى عيانا فقال لى ... هنيئاً رضايا عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواما إذا الليل قد دجا ... بعبرة محزون وقلب عميد
فدونك فاخترأى قصر تريده ... وزرنى فإنى منك غير بعيد

(وقال) سفيان بن عيينة : رأيت سفيان الثورى بعد موته يطير فى الجنة من نخلة إلى شجرة ومن شجرة إلى نخلة وهو يقول (لمثل هذا فليعمل العاملون) فقيل له بما أدخلت الجنة ؟ قال بالورع بالورع ، قيل له فما فعل على بن عاصم ؟ قال ما نراه إلا مثل الكوكب .

(وكان) شعبة بن الحجاج ومسعر بن كدام حافظين وكانا جليلين قال أبو أحمد البريدى فرأيتهما بعد موتهما فقلت أبا بسطام ما فعل الله بك ؟ فقال وفقك الله لحفظ ما أقول :

حبانى إلهى فى الجنان بقية ... لها ألف باب من لجين وجوهرا
وقال لى الرحمن ياشعبة الذى ... تبحر فى جمع العلوم فأكثرا
تنعم بقربى إننى عنك ذو رضا ... وعن عبدى القوام فى الليل مسعرا
كفا مسعراً عزا بأن سيزورنى ... واكشف عن وجهى الكريم لينظرا
وهذا فعالى بالذين تنسكوا ... ولم يألفوا فى سالف الدهر منكرا

قال أحمد بن محمد البلدى رأيت أحمد بن حنبل فى النوم فقلت ياأباعبد الله ما فعل الله بك ؟ قال غفر لى ثم قال يا أحمد ضربت فى ستين سوطاً ، قلت نعم يارب قال هذا وجهى قد أبحتك فانظر إليه .

وقال أبو بكر أحمد بن محمد بن الحجاج حدثنى رجل من أهل طوسوس قال دعوت الله عز وجل أن يرينى أهل القبور حتى أسألهم عن أحمد بن حنبل ما فعل الله به ؟ فرأيت بعد عشر سنين فى المنام كأن أهل القبور قد قاموا على قبورهم فبادرونى بالكلام فقالوا ياهذا كم تدعو الله عز وجل ان يريك ايانا تسألنا عن رجل لم يزل منذ فارقكم تحليه الملائكة تحت شجرة طوبى قال أبو محمد عبد الحق وهذا الكلام من أهل القبور إنما هو اخبار عن علو درجة أحمد بن حنبل وارتفاع مكانه وعظم منزلته فلم يقدروا أن يعبروا عن صفة حاله وعن ماهو فيه إلا بهذا وماهو فى معناه .

(وقال) أبو جعفر السقاء صاحب بشر بن الحارث رأيت بشرا الحافى ومعروف الكرخى وهما جاثيان فقلت من أين ؟ فقالا من جنة الفردوس زرنا كليم الله موسى .

(وقال) عاصم الجزرى رأيت فى النوم كأنى لقيت بشر بن الحارث فقلت من أين يا أبا نصر ؟ قال من عليين ، قلت فما فعل أحمد بن حنبل ؟ قال تركته الساعة مع عبدالوهاب الوراق بين يدى الله عز وجل يأكلان ويشربان ، فقلت له فأنت قال علم قلة رغبتى فى الطعام فأباحنى النظر إليه .

(وقال) أبو جعفر السقاء رأيت بشر بن الحارث فى النوم بعد موته فقلت أبا نصر مافعل الله بك ؟ قال الطفنى ورحمنى وقال لى يا بشر لو سجدت لى فى الدنيا على الجمر ما أديت شكر ما حشوت قلوب عبادى منك وأباح لى نصف الجنة فأسرح فيها حيث شئت ووعدنى أن يغفر لمن تبع جنازتى فقلت ما فعل أبو نصر التمار ؟ فقال ذاك فوق الناس بصبره على بلائه وفقره .

قال عبد الحق لعله أراد بقوله نصف الجنة نصف نعيمها لأن نعيمها نصفان نصف روحانى ونصف جسمانى فيتنعمون أولا بالروحانى فإذا ردت الأرواح إلى الأجساد أضيف لهم النعيم الجسمانى إلى الروحانى ، وقال غيره نعيم الجنة مرتب على العلم والعمل وحظ بشر من العمل كان أوفى من حظه فى العلم . والله أعلم .

(وقال) بعض الصالحين رأيت أبا بكر الشبلى فى المنام وكأنه قاعد فى مجلس الرصافة بالموضع الذى كان يقعد فيه وإذا به قد أقبل وعليه ثياب حسان فقمت إليه وسلمت عليه وجلست بين يديه فقلت له من أقرب أصحابك إليك ؟ قال ألهجهم بذكر الله وأقومهم بحق الله وأسرعهم مبادرة فى مرضاة الله .

(وقال) أبو عبد الرحمن الساحلى رأيت ميسرة بن سليم فى المنام بعد موته فقلت له طالت غيبتك فقال السفر طويل ، فقلت له فما الذى قدمت عليه ؟ فقال رخص لى لأنا كنا نفتى بالرخص ، فقلت فما تأمرنى به ؟ قال اتباع الآثار وصحبة الأخيار ينجيان من النار ويقربان من الجبار .

(وقال) أبو جعفر الضرير رأيت عيسى بن زاذان بعد موته فقلت ما فعل الله بك فأنشأ يقول :

لو رأيت الحسان فى الخلد حولى ... وأكاويب معها للشراب
يترنمن بالكتاب جميعا ... يتمشين مسبلات الثياب

(وقال) بعض أصحاب ابن جريج رأيت كأنى جئت إلى هذه المقبرة التى بمكة فرأيت على عامتها سرادقاً ورأيت منها قبراً عليه سرادق وقسطاط وسدرة فجئت حتى دخلت فسلمت عليه فإذا مسلم بن خالد الزنجى فسلمت عليه وقلت يا أبا خالد ما بال هـــذه القبور عليها سرادق وقبرك عليه سرادق وفسطاط وفيه سدرة فقال انى كنت كثير الصيام فقلت فأين قبر ابن جريج وأين محله ، فقد كنت أجالسه وأنا أحب أن أسلم عليه فقال هكذا بيده هيهات وأدار أصبعه السبابة وأين ابن جريج رفعت صحيفته فى عليين .

ورأى حماد بن سلمة فى النوم بعض الأصحاب فقال له ما فعل الله بك ؟ فقال قال لى طال ما كددت نفسك فى الدنيا فاليوم أطيل راحتك وراحة المتعبين .

وهذا باب طويل جداً فإن لم تسمح نفسك بتصديقه وقلت هذه منامات وهى غير معصومة فتأمل من رأى صاحبا له أو قريباً أو غيره فأخبره بأمر لا يعلمه إلا صاحب الرؤيا أو أخبره بمال دفنه أو حذره من أمر يقع أو بشره بأمر يوجد فوقع كما قال أو أخبره بأنه يموت هو أو بعض أهله إلى كذا وكذا فيقع كما أخبر ، أو أخبره بخصب أو جدب أو عدو أو نازلة أو مرض أو بغرض له فوقع كما أخبره ، والواقع من ذلك لا يحصيه إلا الله والناس مشتركون فيه وقد رأينا نحن وغيرنا من ذلك عجائب .

وأبطل من قال أن هذه كلها علوم وعقائد فى النفس تظهر لصاحبها عند انقطاع نفسه عن الشواغل البدنية بالنوم وهذا عين الباطل والمحال فإن النفس لم يكن فيها قط معرفة هذه الأمور التى يخبر بها الميت ولا خطرت ببالها ولا عندها علامة عليها ولا أمارة بوجه ما ونحن لا ننكر أن الأمر قد يقع كذلك .

وإن من الرؤيا ما يكون من حديث النفس وصورة الاعتقاد بل كثير من مرائى الناس إنما هى من مجرد صور اعتقادهم المطابق وغير المطابق .

فان الرؤيا على ثلاثة أنواع : رؤيا من الله ورؤيا من الشيطان ورؤيا من حديث النفس .

والرؤيا الصحيحة أقسام . منها : إلهام يلقيه الله سبحانه فى قلب العبد وهو كلام يكلم به الرب عبده فى المنام كما قال عبادة بن الصامت وغيره .

ومنها : مثل يضربه له ملك الرؤيا الموكل بها .

ومنها : التقاء روح النائم بأرواح الموتى من أهله وأقاربه وأصحابه وغيرهم كما ذكرنا .

ومنها : عروج روحه إلى الله سبحانه وخطابها له .

ومنها : دخول روحه إلى الجنة ومشاهدتها وغير ذلك فالتقاء أرواح الأحياء والموتى نوع من أنواع الرؤيا الصحيحة التى هى عند الناس من جنس المحسوسات .

وهذا موضع اضطرب فيه الناس (فمن قائل) إن العلوم كلها كامنة فى النفس وإنما اشتغالها بعالم الحس يحجب عنها مطالعتها فإذا تجردت بالنوم رأت منها بحسب استعدادها ولما كان تجردها بالموت أكمل كانت علومها ومعارفها هناك أكمل وهذا فيه حق وباطل فلا يرد كله ولا يقبل كله فإن تجرد النفس يطلعها على علوم ومعارف لاتحصل بدون التجرد لكن لو تجردت كل التجرد لم تطلع على علم الله الذى بعث به رسوله وعلى تفاصيل ما أخبر به عن الرسل الماضية والأمم الخالية وتفاصيل المعاد وأشراط الساعة وتفاصيل الأمر والنهى والأسماء والصفات والأفعال وغير ذلك مما لايعلم إلا بالوحى ولكن تجرد النفس عون لها على معرفة ذلك وتلقيه من معدنه أسهل وأقرب وأكثر مما يحصل للنفس المنغمسة فى الشواغل البدنية .

(ومن قائل) إن هذه المرائى علوم علمها الله فى النفس ابتداء بلا سبب وهذا قول منكرى الأسباب والحكم القوى وهو قول مخالف للشرع والعقل والفطرة .

(ومن قائل) أن الرؤيا أمثال مضروبة يضربها الله للعبد بحسب استعداده الفه على يد ملك الرؤيا فمرة يكون مثلا مضروباً ومرة يكون نفس ما رآه الرائى فيطابق الواقع مطابقة العلم لمعلومه .

وهذا أقرب من القولين قبله ولكن الرؤيا ليست مقصورة عليه بل لها أسباب أخر كما تقدم من ملاقاة الأرواح وأخبار بعضها بعضا ومن إلقاء الملك الذى فى القلب والروع ومن رؤية الروح للأشياء مكاشفة بلا واسطة .

(وقد ذكر) أبو عبد الله بن منده الحافظ فى (كتاب النفس والروح) من حديث محمد بن حميد حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسى حدثنا الأزهر بن عبد الله الأزدى عن محمد بن عجلان عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال لقى عمر بن الخطاب على بن أبى طالب فقال له ياأبا الحسن ربما شهدت وغبنا وشهدنا وغبت ، ثلاث أسألك عنهن عندك منهن علم؟ فقال على ابن أبى طالب وماهن ؟ فقال الرجل يحب الرجل ولم يرمنه خيراً ، والرجل يبغض الرجل ولم يرمنه شراً ، فقال على نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ، إن الأرواح جنود مجندة تلتقى فى الهواء فتشأم فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، فقال عمر واحدة . قال عمر ، والرجل يحدث الحديث إذ نسيه فبينا هو وما نسيه إذ ذكره فقال نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ، مافى القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر بينا القمر مضىء إذ تجللته سحابة الظلم إذا تجلت فأضاء وبينا القلب يتحدث إذ تجللته سحابة فنسى إذ تجلت عنه فيذكر قال عمر اثنتان قال والرجل يرى الرؤيا فمنها ما يصدق ومنها ما يكذب ،

فقال نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من عبد ينام يتملىء نوما إلا عرج بروحه إلى العرش فالذى لايستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التى تصدق والذى يستيقظ دون العرش فهى التى تكذب فقال عمر ثلاث كنت فى طلبهن فالحمد لله الذى أصبتهن قبل الموت .

(وقال) بقية بن الوليد حدثنا صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر الحضرمى قال : قال عمر بن الخطاب عجبت لرؤيا الرجل يرى الشيء لم يخطر له على بال فيكون كآخذ بيد ويرى الشيء فلا يكون شيئاً فقال على بن أبى طالب يا أمير المؤمنين يقول الله عز وجل (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الاخرى إلى أجل مسمى) قال والارواح يعرج بها فى منامها فما رأت وهى فى السماء فهو الحق فإذا ردت الى أجسادها تلقتها الشياطين فى الهواء فكذبتها فما رأت من ذلك فهو الباطل . قال فجعل عمر يتعجب من قول على قال ابن منده هذا خبر مشهور عن صفوان بن عمرو وغيره وروى عن أبى الدرداء .

(وذكر) الطبرانى من حديث على بن أبى طلحة أن عبد الله بن عباس قال لعمر بن الخطاب ياأمير المؤمنين أشياء أسألك عنها قال سل عما شئت قال يا أمير المؤمنين مم يذكر الرجل ومم ينسى ومم تصدق الرؤيا ومم تكذب ؟ فقال له عمر إن على القلب طخاوة كطخاوة القمر فإذا تغشت القلب نسى ابن آدم فإذا انجلت ذكر ما كان نسى وأما مم تصدق الرؤيا ومم تكذب فإن الله عز وجل يقول : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) فمن دخل منها فى ملكوت السماء فهى التى تصدق وما كان منها دون ملكوت السماء فهى التى تكذب .

(وروى) ابن لهيعة عن عثمان بن نعيم الرعينى عن أبى عثمان الاصبحى عن أبى الدرداء قال إذا نام الإنسان عرج بروحه حتى يؤتى بها العرش فإن كان طاهراً أذن لها بالسجود وإن كان جنبا لم يؤذن لها بالسجود .

(وروى) جعفر بن عون عن إبراهيم الهجرى عن أبى الاحوص عن عبد الله بن مسعود انه قال إن الأرواح جنود مجندة تتلاقى فتشأم كما تشأم الخيل فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .

ولم يزل الناس قديماً وحديثاً تعرف هذا وتشاهده قال جميل بن معمر العذرى :

أظل نهارى مستهاما وتلتقى مع الليل روحى فى المنام وروحها

فإن قيل : فالنائم يرى غيره من الأحياء يحدثه ويخاطبه وربما كان بينهما مسافة بعيدة ويكون

المرئى يقظان روحه لم تفارق جسده فكيف التقت روحاهما؟ قيل هذا إما أن يكون مثلا مضروباً ضربه ملك الرؤيا للنائم أو يكون حديث نفس من الرائى تجرد له فى منامه كما قال حبيب بن أوس :

سقيا لطيفك من زور أتاك به حديث نفسك عنه وهو مشغول

وقد تتناسب الروحان وتشتد علاقة احداهما بالأخرى فيشعر كل منهما ببعض ما يحدث لصاحبه وإن لم يشعر بما يحدث لغيره لشدة العلاقة بينهما وقد شاهد الناس من ذلك عجائب .

والمقصود أن أرواح الأحياء تتلاقى فى النوم كما تتلاقى أرواح الأحياء والأموات قال بعض السلف ان الأرواح تتلاقى فى الهواء فتتعارف أو تتذاكر فيأتيها ملك الرؤيا بما هو لاقيها من خير أو شر قال وقد وكل الله بالرؤيا الصادقة ملكا علمه وألهمه معرفة كل نفس بعينها واسمها ومنقلبها فى دينها ودنياها وطبعها ومعارفها لا يشتبه عليه منها شىء ولا يغلط فيها فتأتيه نسخة من علم غيب الله من أم الكتاب بما هو نصيب لهذا الإنسان من خير وشر فى دينه ودنياه ويضرب له فيها الأمثال والأشكال على قدر عادته فتارة يبشره بخير قدمه أو يقدمه وينذره من معصية ارتكبها أو هم بها ويحذره من مكروه انعقدت أسبابه ليعارض تلك الأسباب بأسباب تدفعها ولغير ذلك من الحكم والمصالح التى جعلها الله فى الرؤيا نعمة منه ورحمة وإحساناً وتذكيراً وتعريفاً وجعل أحد طرق ذلك تلاقى الأرواح وتذاكرها وتعارفها وكم ممن كانت توبته وصلاحه وزهده واقباله على الآخرة عن منام رآه أو رئى له ، وكم ممن استغنى وأصاب كنزاً دفينا عن منام .

وفى (كتاب المجالسة) لأبى بكر أحمد بن مروان المالكى عن ابن قتيبة عن أبى حاتم عن الأصمعى عن المعتمر بن سليمان عمن حدثه قال خرجنا مرة فى سفر وكنا ثلاثة نفر فنام أحدنا فرأينا مثل المصباح خرج من أنفه فدخل غارا قريباً منه ثم رجع فدخل أنفه فاستيقظ يمسح وجهه وقال رأيت عجبا رأيت فى هذا الغار كذا وكذا فدخلناه فوجدنا فيه بقية من كنز كان .

وهذا عبد المطلب دل فى النوم على زمزم وأصاب الكنز الذى كان هناك .

وهذا عمير بن وهب أتى فى منامه فقيل له قم إلى موضع كذا وكذا من البيت فاحفره تجد مال أبيك وكان أبوه قد دفن مالا ومات ولم يوص به فقام عمير من نومه فاحتفر حيث أمره فأصاب عشرة آلاف درهم وتبرا كثيرا فقضى دينه وحسن حاله وحال أهل بيته وكان ذلك عقب إسلامه فقالت له الصغرى من بناته يا أبت ربنا هذا الذى حيانا بدينه خير من هبل والعزى ولولا انه كذلك ما ورثك هذا المال وإنما عبدته أياماً قلائل .

(قال) على بن أبى طالب القيروانى العابر وما حديث عمير هذا واستخراجه المال بالمنام بأعجب مما كان عندنا وشاهدناه فى عصرنا بمدينتنا من أبى محمد عبد الله البغانشى [1] وكان رجلا صالحاً مشهوراً برؤية الأموات وسؤالهم عن الغائبات ونقله ذلك إلى أهلهم وقراباتهم حتى اشتهر بذلك وكثر منه فكان المرء يأتيه فيشكو إليه أن حميمه قد مات من غير وصية وله مال لايهتدى إلى مكانه فيعده خيراً ويدعو الله تعالى فى ليلته فيترا آ له الميت الموصوف فيسأله عن الأمر فيخبره به .

(فمن نوادره) ان امرأة عجوزا من الصالحات توفيت ولامرأة عندها سبعة دنانير وديعة فجاءت إليه صاحبة الوديعة وشكت إليه ما نزل بها وأخبرته باسمها واسم الميتة صاحبتها ثم عادت إليه من الغد فقال لها تقول لك فلانة عدى من سقف بيتى سبع خشبات تجدى الدنانير فى السابعة فى خرقة صوف ففعلت ذلك فوجدتها كما وصف لها .

(قال) وأخبرنى رجل لاأظن به كذبا استأجرتنى امرأة من أهل الدنيا على هدم دار لها وبنائها بمال معلوم فلما أخذت فى الهدم لزمت الفعلة هى ومن معها فقلت مالك ؟ قالت والله مالى إلى هدم هذه الدار من حاجة لكن أبى مات وكان ذا يسار كثير فلم نجد له كثير شىء فخلت أن ماله مدفون فعمدت إلى هدم الدار لعلى أجد شيئاً ، فقال لها بعض من حضر لقد فاتك ما هو أهون عليك من هذا قالت وما هو ؟ قال فلان تمضين إليه وتسأليه أن يبيت قصتك الليلة فلعله يرى أباك فيدلك على مكان ماله بلا تعب ولا كلفة فذهبت إليه ثم عادت إلينا فزعمت أنه كتب اسمها واسم أبيها عنده فلما كان من الغد بكرت إلى العمل وجاءت المرأة من عند الرجل فقالت ان الرجل قال لى رأيت أباك وهو يقول المال فى الحنية قال فجعلنا نحفر تحت الحنية وفى جوانبها حتى لاح لى شق وإذا المال فيه قال فاخذنا فى التعجب والمرأة تستخف بما وجدت وتقول مال أبى كان أكثر من هذا ولكنى أعود إليه فمضت فأعلمته ثم سألته المعاودة فلما كان من الغد أتت وقالت انه قال لها أن أباك يقول لك احفرى تحت الجابية المربعة التى فى مخزن الزيت قال ففتحت المخزن فإذا بجابية مربعة فى الركن فأزلناها وحفرنا تحتها فوجدنا كوزاً كبيرا فأخذته ثم دام بها الطمع فى المعاودة ففعلت فرجعت من عنده وعليها الكآبة فقالت زعم انه رآه وهو يقول له قد أخذت ماقدر لها وأما ما بقى فقد جلس عليه عفريت من الجن نحرسه إلى من قدر له والحكايات فى هذا الباب كثيرة جداً .

---

[1] التعايشى .

وأما من حصل له الشفاء باستعمال دواء رآى من وصفه له فى منامه فكثير جدا (وقد حدثنى) غير واحد ممن كان غير مائل إلى شيخ الإسلام ابن تيمية أنه رآه بعد موته وسأله عن شيء كان يشكل عليه من مسائل الفرائض وغيرها فأجابه بالصواب .

وبالجملة فهذا أمر لا ينكره إلا من هو أجهل الناس بالأرواح وأحكامها وشأنها وبالله التوفيق .

المسألة الرابعة

وهى أن الروح هل تموت أم الموت للبدن وحده ؟

اختلف الناس فى هـــذا فقالت طائفة تموت الروح وتذوق الموت لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت .

قالوا وقد دلت الأدلة على أنه لايبقى إلا الله وحده قال تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) وقال تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه) قالوا وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت قالوا وقد قال تعالى عن أهل النار أنهم قالوا (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) فالموتة الأولى هـــذه المشهودة وهى للبدن والأخرى للروح .

وقال آخرون لاتموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء وإنما تموت الأبدان قالوا وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله فى أجسادها ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب وقد قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) . هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت .

والصواب أن يقال موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها فان أريد بموتها هذا القدر فهى ذائقة الموت وإن أريد انها تعدم وتضمحل وتصير عدما محضا فهى لاتموت بهذا الاعتبار بل هى باقية بعد خلقها فى نعيم أو فى عذاب كما سيأتى ان شاء الله تعالى بعد هذا وكما صرح به النص انها كذلك حتى يردها الله فى جسدها وقد نظم أحمد بن الحسين الكندى هذا الاختلاف فى قوله :

تنازع الناس حتى لا اتفاق لهم ... إلا على شجب والخلف فى الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة ... وقيل تشرك جسم المرء فى العطب

فإن قيل فعند النفخ فى الصور هل تبقى الأرواح حية كما هى أو تموت ثم تحيا ؟ قيل قد قال تعالى (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) فقد استثنى الله سبحانه بعض من فى السموات ومن فى الأرض من هذا الصعق .

فقيل هم الشهداء هذا قول أبى هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير .

وقيل هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وهذا قول مقاتل وغيره .

وقيل هم الذين فى الجنة من الحور العين وغيرهم ومن فى النار من أهل العذاب وخزنتها قاله أبو إسحق بن شاقلا من أصحابنا .

وقد نص الإمام أحمد على أن الحور العين والولدان لا يمتن عند النفخ فى الصور وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة (لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) وهذا نص على انهم لايموتون غير تلك الموتة الأولى فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان وأما قول أهل النار (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) فتفسير هذه الآية التى فى البقرة وهى قوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) فكانوا أمواتا وهم نطف فى أصلاب آبائهم وفى أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور وليس فى ذلك اماتة أرواحهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موتات وصعق الأرواح عند النفخ فى الصور لا يلزم منه موتها ففى الحديث الصحيح ان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقه يوم الطور.

فهذا صعق فى موقف القيامة إذا جاء الله تعالى لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره فحينئذ تصعق الخلائق كلهم قال تعالى (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) ولو كان هذا الصعق موتا لكانت موتة أخرى وقد تنبه لهذا جماعة من الفضلاء فقال أبو عبدالله القرطبى ظاهر هذا الحديث ان هذه صعقة غشى تكون يوم القيامة لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور قال وقد قال شيخنا احمد بن عمرو ظاهر حديث النبى صلى الله عليه وآله وسلم يدل على أن هذه الصعقة إنما هى بعد النفخة الثانية نفخة البعث ونص القرآن يقتضى أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق ولما كان هذا قال بعض العلماء يحتمل أن يكون موسى ممن لم يمت من الأنبياء وهذا باطل وقال القاضى عياض يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور حين تنشق السموات والأرض قال فتستقل الأحاديث والآثار ورد عليه أبو العباس القرطبى فقال يرد هذا قوله فى الحديث الصحيح أنه حين يخرج من قبره يلقى موسى آخذاً بقائمة العرش قال وهذا إنما عند نفخة الفزع .

قال أبو عبد الله وقال شيخنا احمد بن عمرو الذى يزيح هذا الاشكال إن شاء الله تعالى ان الموت ليس بعدم محض وإنما هو انتقال من حال إلى حال ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين وهذه صفة الأحياء فى الدنيا وإذا كان هذا فى الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى مع أنه قد صح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ان الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء وأنه صلى الله عليه وآله وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس وفى السماء وخصوصاً بموسى وقد أخبر بأنه مامن مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام . إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن أموت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لانداركهم وإن كانوا موجودين حاء وا ذلك كالحال فى الملائكة فانهم أحياء موجودون ولاتراهم وإذا تقرر انهم أحياء فاذا نفيخ فى الصور نفخة الصعق صعق كل من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله فأما صعق غير الأنبياء فموت وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية فإذا نفخ فى الصور نفخة البعث فمن مات حي ومن غشى عليه أفاق ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم فى الحديث المتفق على صحته ، فأكون أول من يفيق ، فنبينا أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس إلا موسى . فإنه حصل فيه تردد هل بعث قبله من غشيته أو بقى على الحالة التى كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقاً لأنه حوسب بصعقة يوم الطور وهذه فضيلة عظيمة لموسى ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته على نبينا مطلقا لأن الشيء الجزئى لا يوجب أمراً كلياً ، انتهى .

قال أبو عبد الله القرطبى ان حمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال وإن حمل على صعقة الموت عند النفخ فى الصور فيكون ذكر يوم القيامة يراد به أوائله فالمعنى إذا نفخ فى الصور نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور .

قلت وحمل الحديث على هذا لايصح لأنه صلى الله عليه وآله وسلم تردد هل أفاق موسى قبله أم لم يصعق بل جوزى بصعقة الطور فالمعنى لاأدرى أصعق أم لم يصعق ، وقد قال فى الحديث فأكون أول من يفيق وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم يصعق فيمن يصعق وان التردد حصل فى موسى هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق ولو كان المراد به الصعقة الأولى وهى صعقة الموت لكان صلى الله عليه وآله وسلم قد جزم بموته وتردد هل مات موسى أم لم يمت وهذا باطل لوجوه كثيرة فعلم أنها صعقة فزع لاصعقة موت وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى نعم تدل على أن موت الخلائق عند النفخة الأولى وكل من لم يذق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ . وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية والله أعلم .

(فإن قيل) فكيف تصنعون بقوله فى الحديث إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عليه الأرض فأجد موسى باطشا بقائمة العرش ! قيل لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ومنه نشأ الاشكال ولكنه دخل فيه على الراوى حديث فى حديث فركب بين اللفظين فجاء هذا . والحديثان هكذا :

(أحدهما) ان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق .

(والثانى) هكذا : أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، ففى الترمذى وغيره من حديث أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدى لواء الحمد ولا فخر وما من نبى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

فدخل على الراوى هذا الحديث فى الحديث الآخر وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ[1] يقول ذلك .

(فإن قيل) فما تصنعون بقوله : فلا أدرى أفاق قبلى أم كان ممن استثنى الله عز وجل والذين استثناهم الله إنما هم مستثنون من صعقة النفخة لا من صعقة يوم القيامة كما قال الله تعالى (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله)ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة قيل هذا والله أعلم غير محفوظ وهو وهم من بعض الرواة والمحفوظ ما تواطأت الروايات الصحيحة من قوله فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور فظن بعض الرواة ان هذه الصعقة هى صعقة النفخة وأن موسى داخل فيمن استثنى منها وهذا لايلتئم على مساق الحديث قطعاً فإن الإفاقة حينئذ هى إفاقة البعث فكيف يقول لاأدرى أبعث قبلى أم جوزى بصعقة الطور فتأمله ، وهذا بخلاف الصعقة التى يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء الله سبحانه لفصل القضاء بين العباد وتجلى لهم فانهم يصعقون جميعاً . وأما موسى صلى الله عليه وسلم فإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حوسب بصعقته يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكا فجعلت صعقة هذا التجلى عوضاً من صعقة الخلائق لتجلى الرب يوم القيامة . فتأمل هذا المعنى العظيم . ولو لم يكن فى الجواب إلا كشف هذا الحديث وشأنه لكان حقيقاً ان يعض عليه بالنواجذ ولله الحمد والمنة وبه التوفيق .

---

[1] هو جمال الدين المزى محدث الشام . مات اثنا عشر صفر سنة (٦٤٢) .

المسألة الخامسة

وهى أن الأرواح بعد مفارقة الأبدان إذا تجردت بأى شيء يتميز بعضها من بعض حتى تتعارف وتتلاقى وهل تشكل إذا تجردت بشكل بدنها الذى كانت فيه وتلبس صورته أم كيف يكون حالها .

هذه مسألة لاتكاد تجد من تكلم فيها ولا يظفر فيها من كتب الناس بطائل ولا غير طائل ولا سيما على أصول من يقول بأنها مجردة عن المادة وعلائقها وليست بداخل العالم ولا خارجه ولا لها شكل ولا قدر ولا تخص فهذا السؤال على أصولهم مما لا جواب لهم عنه وكذلك من يقول هى عرض من أعراض البدن فتميزها عن غيرها مشروط بقيامها ببدنها فلا تميز لها بعد الموت بل لا وجود لها على أصولهم بل تعدم وتبطل باضمحلال البدن كما تبطل سائر صفات الحى ولا يمكن جواب هذه المسألة إلا على أصول أهل السنة التى تظاهرت عليها أدلة القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل والقول أنها ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجيء وتتحرك وتسكن وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها فى كتابنا الكبير فى معرفة الروح والنفس وبينا بطلان ماخالف هذا القول من وجوه كثيرة وإن من قال غيره لم يعرف نفسه .

وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بالدخول والخروج والقبض والتوفى والرجوع وصعودها إلى السماء وفتح أبوابها لها وغلقها عنها فقال تعالى (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم اخرجوا أنفسكم) وقال تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد وقال تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) فأخبر انه سوى النفس كما أخبر أنه سوى البدن فى قوله (الذى خلقك فسواك فعدلك) فهو سبحانه سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه بل سوى بدنه كالقالب لنفسه فتسوية البدن تابع لتسوية النفس والبدن موضوع لها كالقالب لما هو موضوع له .

ومن هاهنا يعلم أنها تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها فانها تتأثر وتنتقل عن البدن كما يتأثر البدن وينتقل عنها فيكتسب البدن الطيب والخبث من طيب النفس وخبثها وتكتسب النفس الطيب والخبث من طيب البدن وخبثه فأشد الأشياء ارتباطا وتناسبا وتفاعلا وتأثرا من أحدهما بالآخر الروح والبدن ولهذا يقال لها عند المفارقة اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب النفس واخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث .

وقال الله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) فوصفها بالتوفى والامساك والارسال كما وصفها بالدخول والخروج والرجوع والتسوية وقد أخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن بصر الميت يتبع نفسه إذا قبضت . وأخبر أن الملك يقبضها فتأخذها الملائكة من يده فيوجد لهـــا كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض .

والأعراض لاريح لها ولاتمسك ولاتؤخذ من يد إلى يد .

وأخبر أنها تصعد إلى السماء ويصلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض وأنها تفتح لها أبواب السماء فتصعد من سماء إلى سماء حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل فتوقف بين يديه ويأمر بكتابة اسمه فى ديوان أهل عليين أو ديوان أهل سجين ثم ترد إلى الأرض وإن روح الكافر تطرح طرحا وأنها تدخل مع البدن فى قبرها للسؤال .

وقد أخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم بأن نسمة المؤمن وهى روحه طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يردها الله إلى جسدها .

وأخبر أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وأخبر أن الروح تنعم وتعذب فى البرزخ إلى يوم القيامة .

وقد أخبر سبحانه عن أرواح قوم فرعون أنها تعرض على النار غدواً وعشياً قبل يوم القيامة وقد أخبر سبحانه عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون وهذه حياة أرواحهم ورزقها دار وإلا فالأبدان قد تمزقت وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الحياة بان أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا فعل بهم ذلك ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى .

(وصح) عنه صلى الله عليه وآله وسلم أن أرواح الشهداء فى طير خضر تعلق من ثمر الجنة وتعلق بضم اللام أى تأكل العلقة .

(وقال) ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمـــا أصيب إخوانكم باحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمـــارها وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا

ياليت إخواننا يعلمون ماصنع الله لنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ولاينكلوا عن الحرب فقال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) الآيات رواه الإمام أحمد وهذا صريح فى أكلها وشربها وحركتها وانتقالها وكلامها وسيأتى مزيد تقرير لذلك عن قريب إن شاء الله تعالى .

وإذا كان هذا شأن الأرواح فتميزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز الأبدان والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان فان الأبدان تشتبه كثيراً وأما الأرواح فقل ما تشتبه .

يوضح هذا أنا لم نشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة وهم متميزون فى علمنا أظهر تميز وليس ذلك التميز راجعاً إلى مجرد أبدانهم وإن ذكر لنا من صفات أبدانهم مايختص به أحدهم من الآخر بل التميز الذى عندنا بما علمناه وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها ، وتميز الروح عن الروح بصفاتها أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته ، ألا ترى ان بدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيراً وبين روحيهما أعظم التباين والتميز ، وأنت ترى أخوين شقيقين مشتبهين فى الخلقـــة غاية الاشتباه وبين روحيهما غاية التباين ، فإذا تجردت هاتان الروحان كان تميزهما فى غاية الظهور .

وأخبرك بأمر إذا تأملت أحوال الأنفس والأبدان شاهدته عياناً قل أن ترى بدنا قبيحاً وشكلا شنيعاً إلا وجدته مركباً على نفس تشاكله وتناسبه وقل أن ترى آفة فى بدن إلا وفى روح صاحبه آفة تناسبها ولهذا تأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها فقل أن تخطىء ذلك .

(ويحكى) عن الشافعى رحمه الله فى ذلك عجائب .

وقل أن ترى شكلا حسناً وصورة جميلة وتركيباً لطيفاً إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له هذا مالم يعارض ذلك مايوجب خلافه من تعلم وتدرب واعتياد .

وإذا كانت الأرواح العلوية وهم الملائكة متميزاً بعضهم عن بعض من غير أجسام تحملهم وكذلك الجن فتميز الأرواح البشرية أولى .

المسألة السادسة

وهى أن الروح هل تعاد إلى الميت فى قبره وقت السؤال أم لا ؟

فقد كفانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس حيث صرح باعادة الروح إليه فقال البراء بن عازب كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقعد وقعدنا حوله كأن على رءوسنا الطير وهو يلحد له فقال أعوذ بالله من عذاب القبر ثلاث مرات ثم قال ان العبد إذا كان فى اقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة أخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال فيصعدون بها فلا يمرون بها يعنى على ملأ من الملائكة إلا قالوا ماهذا الروح الطيب فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله تعالى فيقول الله عز وجل اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول ربى الله فيقولان له ما دينك ؟ فيقول دينى الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله فيقولان له وما علمك بهذا ؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وافتحوا له بابا من الجنة قال فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره ، قال ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول له من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجىء بالخير فيقول أنا عملك الصالح ، فيقول رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى . قال وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا واقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة اخرجى الى سخط من الله وغضب قال فتتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة

وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ماهذا الريح الخبيث ؟ فيقولون فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيقولان له من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى ، فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فينادى مناد من السماء ان كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذى يسوءك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لاتقم الساعة . رواه الإمام أحمد وأبو داود وروى النسائى وابن ماجه أوله ورواه أبو عوانة الاسفرائينى فى صحيحه .

وذهب إلى القول بموجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث من سائر الطوائف .

وقال أبو محمد بن حزم فى كتاب الملل والنحل له وأما من ظن أن الميت يحيا فى قبره قبل يوم القيامة خطأ ان الآيات التى ذكرناها تمنع من ذلك يعنى قوله تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) وقوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) قال ولو كان الميت يحيا فى قبره لكان تعالى قد أماتنا ثلاثا وأحيانا ثلاثا وهذا باطل وخلاف القرآن إلا من أحياه الله تعالى آية لنبى من الأنبياء ، كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ، ثم أحياهم ، والذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، ومن خصه نص ، وكذلك قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) فصح بنص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لاترجع إلى جسده إلا إلى الأجل المسمى وهو يوم القيامة وكذلك أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه رأى الأرواح ليلة أسرى به عند سماء الدنيا من عن يمين آدم أرواح أهل السعادة وعن شماله أرواح أهل الشقاوة ، وأخبر يوم بدر إذ خاطب الموتى أنهم قد سمعوا قوله قبل أن تكون لهم قبور ولم ينكر على الصحابة قولهم قد جيفوا ، واعلم أنهم سامعون قوله مع ذلك ، فصح أن الخطاب والسماع لأرواحهم فقط بلا شك ، وأما الجسد فلا حس له وقد قال تعالى (وما أنت بمسمع من فى القبور)

فنفى السمع عمن فى القبور وهى الاجساد بلاشك ولايشك مسلم أن الذى نفى الله عز وجل عنه السمع هو غير الذى أثبت له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السمع . قال ولم يأت قط عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى خبر صحيح أن أرواح الموتى ترد إلى أجسادهم عند المساءلة ولو صح ذلك عنه لقلنا به قال وإنما تفرد بهذه الزيادة من رد الأرواح فى القبور إلى الأجساد المنهال بن عمرو وحده وليس بالقوى تركه شعبة وغيره وقال فيه المغيرة بن مقسم الضبى وهو أحد الأئمة ماجازت المنهال بن عمرو قط شهادة فى الإسلام على ماقد نقل وسائر الأخبار الثابتة على خلاف ذلك .

قال وهذا الذى قلنا هو الذى صح أيضاً عن الصحابة .

ثم ذكر من طريق بن عيينة عن منصور بن صفية عن أمه صفية بنت شيبة قالت دخل ابن عمر المسجد فأبصر ابن الزبير مطروحاً قبل أن يقبر فقيل له هذه أسماء بنت أبى بكر الصديق فمال ابن عمر إليها فعزاها وقال ان هذه الجثث ليست بشىء وان الأرواح عند الله تعالت أمه وما يمنعنى وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا الى بغى من بغايا بنى اسرائيل .

(قلت) ماذكره أبو محمد فيه حق وباطل أما قوله من ظن أن الميت يحيا فى قبره خطأ فهذا فيه إجمال ان أراد به الحياة المعهودة فى الدنيا التى تقوم فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه وتحتاج معها إلى الطعام والشراب واللباس فهذا خطأ كما قال والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص .

وإن أراد به حياة أخرى غير هذه الحياة بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة فى الدنيا ليسأل ويمتحن فى قبره فهذا حق ونفيه خطأ وقد دل عليه النص الصحيح الصريح وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم فتعاد روحه فى جسده ، وسنذكر الجواب عن تضعيفه للحديث إن شاء الله تعالى .

وأما استدلاله بقوله تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) فلا ينفى ثبوت هذه الإعادة العارضة للروح فى الجسد كما أن قتيل بنى إسرائيل الذى أحياه الله بعد قتله ثم أماته لم تكن تلك الحياة العارضة له للمساءلة معتدا بها فإنه يحيى لحظة بحيث قال فلان قتلنى ثم خر ميتا على أن قوله ثم تعاد روحه فى جسده لايدل على حياة مستقرة وإنما يدل على إعادة لها إلى البدن وتعلق به والروح لم تزل متعلقة ببدنها وإن بلى وتمزق .

وسر ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام .

(أحدها) تعلقها به فى بطن الأم جنينا .

(الثانى) تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض .

(الثالث) تعلقها به فى حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه .

(الرابع) تعلقها به فى البرزخ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقا كليا بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة وقد ذكرنا فى أول الجواب من الأحاديث والآثار ما يدل على ردها إليه وقت سلام المسلم وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة .

(الخامس) تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه إذ تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً .

وأما قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) فامساكه سبحانه التى قضى عليها الموت لا ينافى ردها إلى جسدها الميت فى وقت ما ردا عارضاً لا يوجب له الحياة المعهودة فى الدنيا .

وإذا كان النائم روحه فى جسده وهو حى وحياته غير حياة المستيقظ فان النوم شقيق الموت فهكذا الميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت له حال متوسطة بين الحى وبين الميت الذى لم ترد روحه إلى بدنه كحال النائم المتوسطة بين الحى والميت فتأمل هذا يزيح عنك إشكالات كثيرة .

وأما أخبار النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن رؤية الأنبياء ليلة أسرى به فقد زعم بعض أهل الحديث أن الذى رآه أشباحهم وأرواحهم قال فإنهم أحياء عند ربهم ، وقد رأى إبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ورأى موسى قائماً فى قبره يصلى وقد نعت الأنبياء لما رآهم نعت الأشباح فرأى موسى آدما ضربا طوالا كأنه من رجال شنوءة ، ورأى عيسى يقطر رأسه كأنما أخرج من ديماس ، ورأى إبراهيم فشبهه بنفسه .

ونازعهم فى ذلك آخرون وقالوا هذه الرؤية إنما هى لأرواحهم دون أجسادهم والأجساد فى الأرض قطعاً إنما تبعث يوم بعث الأجساد ولم تبعث قبل ذلك إذ لو بعثت قبل ذلك لكانت قد انشقت عنها الأرض قبل يوم القيامة وكانت تذوق الموت عند نفخة الصور وهذه موتة ثالثة وهذا باطل قطعاً ولو كانت قد بعثت الأجساد من القبور لم يعدهم الله إليها بل كانت فى الجنة وقد صح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن الله حرم الجنة على الأنبياء حتى يدخلها هو وهو أول من يستفتح باب الجنة وهو أول من تنشق عنه الأرض على الإطلاق لم تنشق عن أحد قبله .

ومعلوم بالضرورة أن جسده صلى الله عليه وآله وسلم فى الأرض طرى مطرا وقد سأله الصحابة كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ فقال إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

ولو لم يكن جسده فى ضريحه لما أجاب بهذا الجواب .

وقد صح عنه أن الله وكل بقبره ملائكة يبلغونه عن أمته السلام .

وصح عنه أنه خرج بين أبى بكر وعمر وقال هكذا نبعث .

هذا مع القطع بأن روحه الكريمة فى الرفيق الأعلى فى أعلى عليين مع أرواح الأنبياء .

وقد صح عنه أنه رأى موسى قائماً يصلى فى قبره ليلة الاسراء ورآه فى السماء السادسة أو السابعة . فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن فى القبر وإشراف عليه وتعلق به بحيث يصلى فى قبره ويرد سلام من سلم عليه وهى فى الرفيق الأعلى .

ولا تنافى بين الأمرين فان شأن الأرواح غير شأن الأبدان وأنت تجد الروحين المتماثلتين المتناسبتين فى غاية التجاور والقرب وان كان بينهما بعد المشرقين وتجد الروحين المتنافرتين المتباغضتين بينهما غاية البعد وإن كان جسداهما متجاورين متلاصقين .

وليس نزول الروح وصعودها وقربها وبعدها من جنس ما للبدن فإنها تصعد إلى مافوق السموات ثم تهبط إلى الأرض مابين قبضها ووضع الميت فى قبره وهو زمن يسير لايصعد البدن وينزل فى مثله وكذلك صعودها وعودها إلى البدن فى النوم واليقظة وقد مثلها بعضهم بالشمس وشعاعها فإنها فى السماء وشعاعها فى الأرض ، قال شيخنا وليس هذا مثلا مطابقاً فان نفس الشمس لاتنزل من السماء والشعاع الذى على الأرض ليس هو الشمس ولا صفتها بل هو عرض حصل بسبب الشمس والجرم المقابل لها والروح نفسها تصعد وتنزل وأما قول الصحابة للنبى صلى الله عليه وآله وسلم فى قتلى بدر كيف تخاطب أقواما قد جيفوا مع اخباره بسماعهم كلامه فلاينفى ذلك رد أرواحهم إلى أجسادهم ذلك الوقت ردا يسمعون به خطابه والأجساد قد جيفت فالخطاب للأرواح المتعلقة بتلك الأجساد التى قد فسدت .

أما قوله تعالى (وما أنت بمسمع من فى القبور) فسياق الآية يدل على أن المراد منها أن الكافر الميت القلب لا تقدر على اسماعه اسماعا ينتفع به كما أن من فى القبور لا تقدر على إسماعهم إسماعا ينتفعون به ولم يرد سبحانه أن أصحاب القبور لايسمعون شيئاً البتة كيف وقد أخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنهم يسمعون خفق نعال المشيعين وأخبر أن قتلى بدر سمعوا كلامه وخطابه وشرع السلام عليهم بصيغة الخطاب للحاضر الذى يسمع وأخبر أن من سلم على أخيه المؤمن رد عليه السلام .

هذه الآية نظير قوله (إنك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) وقد يقال نفى اسماع الصم مع نفى إسماع الموتى يدل على أن المراد عدم أهلية كل منهما للسماع

وأن قلوب هؤلاء لما كانت ميتة صماء كان اسماعها ممتنعا بمنزلة خطاب الميت والأصم وهذا حق ولكن لاينفى إسماع الأرواح بعد الموت إسماع توبيخ وتقريع بواسطة تعلقها بالأبدان فى وقت ما فهذا غير الاسماع المنفى والله أعلم .

وحقيقة المعنى أنك لا تستطيع أن تسمع من لم يشأ الله أن يسمعه ان أنت إلا نذير أى إنما جعل الله لك الاستطاعة على الانذار الذى كلفك إياه لاعلى إسماع من لم يشأ الله إسماعه .

وأما قوله إن الحديث لا يصح لتفرد المنهال بن عمرو وحده به وليس بالقوى ، فهذا من مجازفته رحمه الله فالحديث صحيح لاشك فيه وقد رواه عن البراء بن عازب جماعة غير زاذان منهم عدى بن ثابت ومحمد بن عقبة ومجاهد .

(قال) الحافظ أبو عبد الله بن منده فى (كتاب الروح والنفس) أخبرنا محمد بن يعقوب ابن يوسف حدثنا محمد بن اسحق الصفار أنبأنا أبو النضر هاشم بن القاسم حدثنا عيسى بن المسيب عن عدى بن ثابت عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلسنا وجلس كأن على أكتافنا فلق الصخر وعلى رءوسنا الطير فأرم قليلا ، والارمام السكوت ، فلما رفع رأسه قال إن المؤمن إذا كان فى قبل من الآخرة ودبر من الدنيا وحضره ملك الموت نزلت عليه ملائكة معهم كفن من الجنة وحنوط من الجنة فجلسوا منه مد البصر وجاء ملك الموت فجلس عند رأسه ثم قال اخرجى أيتها النفس المطمئنة اخرجى إلى رحمة الله ورضوانه فتنسل [1] نفسه كما تقطر القطرة من السقاء فإذا خرجت نفسه صلى عليه كل من بين السماء والأرض إلا الثقلين ثم يصعد به إلى السماء فتفتح له السماء ويشيعه مقربوها إلى السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة إلى العرش مقربو كل سماء فإذا انتهى إلى العرش كتب كتابه فى عليين ويقول الرب عز وجل ردوا عبدى إلى مضجعه فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فيرد إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما فيجلسانه ثم يقال له ياهذا من ربك ؟ فيقول ربى الله ، فيقولان صدقت ثم يقال له مادينك ؟ فيقول دينى الإسلام فيقولان صدقت ، ثم يقال له من نبيك ؟ فيقول محمد رسول الله ، فيقولان صدقت ، ثم يفسح له فى قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول جزاك الله خيراً فوالله ماعلمت إن كنت لسريعاً فى طاعة الله بطيئاً عن معصية الله فيقول وأنت جزاك الله خيراً فمن أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح ، ثم يفتح له باب إلى الجنة فينظر

---

[1] الظاهر : فتسيل .

إلى مقعده ومنزله منها حتى تقوم الساعة ، وان الكافر إذا كان فى دبر من الدنيا وقبل من الآخرة وحضره الموت نزلت عليه من السماء ملائكة معهم كفن من النار وحنوط من نار قال فيجلسون منه مد بصره وجاء ملك الموت فيجلس عند رأسه ثم قال اخرجى أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى غضب الله وسخطه فتفرق روحه فى جسده كراهية ان تخرج لما ترى وتعاين فيستخرجها كما يستخرج السفود من الصوف المبلول فإذا خرجت نفسه لعنه كل شىء بين السماء والأرض إلا الثقلين ثم يصعد به إلى السماء فتغلق دونه فيقول الرب عز وجل ردوا عبدى إلى مضجعه فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فترد روحه إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران فى الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيجلسانه ثم يقولان ياهذا من ربك ؟ فيقول لا أدرى ، فينادى من جانب القبر لا دريت فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تقل ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول جزاك الله شراً فوالله ماعلمت إن كنت لبطيئا عن طاعة الله سريعاً فى معصية الله فيقول ومن أنت ؟ فيقول أنا عملك الخبيث ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة رواه الإمام أحمد ومحمود بن غيلان وغيرهما عن أبى النضر .

ففيه أن الأرواح تعاد إلى القبر وأن الملكين يجلسان الميت ويستنطقانه .

(ثم ساقه) ابن منده من طريق محمد بن سلمة عن خصيف الجزرى عن مجاهد عن البراء ابن عازب قال كنا فى جنازة رجل من الأنصار ومعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانتهينا إلى القبر ولم يلحد ووضعت الجنازة وجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال إن المؤمن إذا احتضر أتاه ملك الموت فى أحسن صورة وأطيبه ريحا[1] فجلس عنده لقبض روحه وأتاه ملكان بحنوط من الجنة وكفن من الجنة وكانا منه على بعد فاستخرج ملك الموت روحه من جسده رشحاً فإذا صارت إلى ملك الموت ابتدرها الملكان فأخذاها منه فحنطاها بحنوط من الجنة وكفناها بكفن من الجنة ثم عرجا به إلى الجنة فتفتح له أبواب السماء وتستبشر الملائكة بها ويقولون لمن هذه الروح الطيبة التى فتحت لها أبواب السماء ؟ ويسمى بأحسن الأسماء التى كان يسمى بها فى الدنيا ، فيقال هذه روح فلان فإذا صعد بها إلى السماء شيعها مقربو كل سماء حتى توضع بين يدى الله عند العرش فيخرج عملها من عليين فيقول الله عز وجل للمقربين اشهدوا أنى قد غفرت لصاحب هذا العمل ويختم كتابه فيرد فى عليين فيقول الله عز وجل

---

[1] كذا فى الأصل . ولعله : وأطيبها ريحاً .

ردوا روح عبدى إلى الأرض فإنى وعدتهم أنى أردهم فيها ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) فإذا وضع المؤمن فى قبره فتح له باب عند رجليه إلى الجنة فيقال له أنظر إلى ما أعد الله لك من الثواب ويفتح له باب عند رأسه إلى النار فيقال له أنظر ما صرف الله عنك من العذاب ثم يقال له نم قرير العين فليس شىء أحب إليه من قيام الساعة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا وضع المؤمن فى لحده تقول له الأرض إن كنت لحبيبا إلى وأنت على ظهرى فكيف إذا صرت اليوم فى بطنى سأريك ما أصنع بك فيفسح له فى قبره مد بصره ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا وضع الكافر فى قبره أتاه منكر ونكير فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول لا أدرى فيقولان له لادريت فيضربانه ضربة فيصير رماداً ثم يعاد فيجلس فيقال له ما قولك فى هذا الرجل ؟ فيقول أى رجل فيقولان محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيقول قال الناس أنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيضربانه ضربة فيصير رمادا .

هذا حديث ثابت مشهور مستفيض صححه جماعة من الحفاظ ولا نعلم أحداً من أئمة الحديث طعن فيه بل رووه فى كتبهم وتلقوه بالقبول وجعلوه أصلا من أصول الدين فى عذاب القبر ونعيمه ومسألة منكر ونكير وقبض الأرواح وصعودها إلى بين يدى الله ثم رجوعها إلى القبر وقول أبى محمد لم يروه غير زاذان فوهم منه بل رواه عن البراء غير زاذان ورواه عنه عدى بن ثابت ومجاهد بن جبير ومحمد بن عقبة وغيرهم وقد جمع الدارقطنى طرقه فى مصنف مفرد ، وزاذان من الثقاة روى عن أكابر الصحابة كعمر وغيره وروى له مسلم فى صحيحه قال يحيى بن معين ثقة وقال حميد بن هلال وقد سئل عنه هو ثقة لا تسأل عن مثل هؤلاء وقال ابن عدى أحاديثه لا بأس بها إذا روى عن ثقة .

وقوله ان المنهال بن عمرو تفرد بهذه الزيادة وهى قوله فتعاد روحه فى جسده وضعفه . فالمنهال أحد الثقاة العدول ، قال ابن معين المنهال ثقة ، وقال العجلى كوفى ثقة . وأعظم ما قيل فيه أنه سمع من بيته صوت غناء وهذا لا يوجب القدح فى روايته واطراح حديثه وتضعيف ابن حزم له لا شىء فإنه لم يذكر موجباً لتضعيفه غير تفرده بقوله فتعاد روحه فى جسده وقد بينا أنه لم يتفرد بها بل قد رواها غيره وقد روى ما هو أبلغ منها أو نظيرها كقوله فترد إليه روحه وقوله فتصير إلى قبره فيستوى جالساً ، وقوله فيجلسانه ، وقوله فيجلس فى قبره ، وكلها أحاديث صحاح لا مغمز فيها . وقد أعل غيره بأن زاذان لم يسمعه من البراء وهذه العلة باطلة فإن أبا عوانة الاسفرائينى رواه فى صحيحه باسناده وقال عن أبى عمرو زاذان الكندى قال سمعت البراء بن عازب ، وقال الحافظ أبو عبد الله بن منده هذا إسناد متصل مشهور رواه جماعة عن البراء .

ولو نزلنا عن حديث البراء فسائر الأحاديث الصحيحة صريحة فى ذلك مثل حديث ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قال اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب أخرجى حميدة وابشرى بروح وريحان ورب غير غضبان قال فيقول ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا ؟ فيقولون فلان[1] فيقولون مرحباً بالنفس الطيبة كانت فى الجسد ادخلى حميدة وابشرى وريحان ورب غير غضبان فيقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء قال اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث اخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فيقولون ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا ؟ فيقولون فلان ، فيقولون لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ارجعى ذميمة فإنها لن تفتح لك أبواب السماء فترسل بين السماء والأرض فتصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح فى قبره غير فزع ولا معوق ثم يقال فما كنت تقول فى الإسلام ماهذا الرجل ؟ فيقول محمد رسول الله جاءنا بالبينات من قبل الله فآمنا وصدقنا . وذكر تمام الحديث .

قال الحافظ أبو نعيم هذا حديث متفق على عدالة ناقليه اتفق الإمامان محمد بن اسماعيل البخارى ومسلم بن الحجاج عن ابن أبى ذئب ومحمد بن عمرو بن عطاء وسعيد بن يسار وهم من شرطهما ، ورواه المتقدمون الكبار عن ابن أبى ذئب مثل ابن أبى فديك وعبد الرحيم بن ابراهيم انتهى . ورواه عن ابن أبى ذئب غير واحد .

(وقد احتج) أبو عبد الله بن منده على إعادة الروح إلى البدن بأن قال حدثنا محمد بن الحسين ابن الحسن حدثنا محمد بن زيد النيسابورى حدثنا حماد بن قيراط حدثنا محمد بن الفضل عن يزيد بن عبد الرحمن الصائغ البلخى عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس أنه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم قاعد تلا هذه الآية (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم) الآية قال والذى نفس محمد بيده ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار ، ثم قال فإذا كان عند ذلك صف له سماطان من الملائكة ينتظمان مابين الخافقين كأن وجوههم الشمس فينظر إليهم ما ترى غيرهم وإن كنتم ترون أنهم ينظرون[2] إليكم مع كل منهم أكفان وحنوط فإن كان مؤمناً بشروه بالجنة وقالوا

---

(١) فى نسخة : فلان ابن فلان .

(٢) هكذا فى المنقول عنه . والظاهر : أنه ينظر إليكم .

أخرجي أيتها النفس الطيبة إلى رضوان الله وجنته فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير من الدنيا وما فيها فلايزالون يبشرونه ويحفون به فهم ألطف وأرأف من الوالدة بولدها ثم يسلون روحه من تحت كل ظفر ومفصل ويموت الأول فالأول ويهون عليه وكنتم تروته عنديه حتى تبلغ ذقنه قال فلهي أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم فيبتدرها كل ملك منهم أيهم يقبضها فيتولى قبضها ملك الموت ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) فيتلقاها بأكفان بيض ثم يحتضنها إليه فهو أشد لزوما لها من المرأة إذا ولدتها ثم يفوح منها ريح أطيب من المسك فيستنشقون ريحها ويتباشرون بها ويقولون مرحباً بالروح الطيبة والروح الطيب اللهم صل عليه روحا وعلى جسد خرجت منه قال فيصعدون بها وفله عز وجل خلق فى الهواء لايعلم عددتهم إلا هو فيفوح لهم منها ريح أطيب من المسك فيصلون عليها ويتباشرون ويفتح لهم أبواب السماء فيصلى عليها كل ملك فى كل سماء تمر بهم حتى ينتهى بها بين يدى الملك الجبار فيقول الجبار جل جلاله مرحباً بالنفس الطيبة وبجسد خرجت منه وإذا قال الرب عز وجل للشيء مرحباً وحب له كل شيء ويذهب عنه كل ضيق ثم يقول لهذه النفس الطيبة أدخلوها الجنة وأروها مقعدها من الجنة وأعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والنعيم ثم اذهبوا بها إلى الأرض فإنى قضيت أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فوالذى نفس محمد بيده لهى أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد وتقول أين تذهبون بى إلى ذلك الجسد الذى كنت فيه ؟ قال فيقولون إنا مأمورون بهذا فلابد لك منه فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه فيدخلون ذلك الروح بين جسده وأكفانه .

فدل هذا الحديث أن الروح تعاد بين الجسد والأكفان وهذا هو غير التعلق الذى كان لها فى الدنيا بالبدن وهو نوع آخر وغير تعلقها به حال النوم وغير تعلقها به وهى فى مقرها بل هو عود خاص للمسألة .

قال شيخ الإسلام الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح إلى البدن وقت السؤال ، وسؤال البدن بلا روح قول قاله طائفة من الناس وأنكره الجمهور وقابلهم آخرون فقالوا السؤال للروح بلابدن وهذا قاله ابن مرة وابن حزم وكلاهما غلط والأحاديث الصحيحة ترده ولو كان ذلك على الروح فقط لم يكن للقبر بالروح اختصاص .

وهذا يتضح بجواب المسألة

وهى قول السائل هل عذاب القبر على النفس والبدن أو على النفس دون البدن أو على البدن دون النفس . وهل يشارك البدن النفس فى النعيم والعذاب أم لا ؟

وقد سئل شيخ الإسلام عن هذه المسألة ونحن نذكر لفظ جوابه فقال « بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن وتنعم وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليها فى هذه الحال مجتمعين كما تكون على الروح منفردة عن البدن . وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح ؟ هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام ، وفى المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث . قول من يقول إن النعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح وان البدن لا ينعم ولا يعذب ، وهذا تقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان وهؤلاء كفار باجماع المسلمين ويقوله كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين يقرون بمعاد الأبدان لكن يقولون لا يكون ذلك فى البرزخ وإنما يكون عند القيام من القبور لكن هؤلاء ينكرون عذاب البدن فى البرزخ فقط ويقولون إن الأرواح هى المنعمة أو المعذبة فى البرزخ فاذا كان يوم القيامة عذبت الروح والبدن معاً وهذا القول قاله طوائف من المسلمين من أهل الكلام والحديث وغيرهم وهو اختيار ابن حزم وابن مرة فهذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة بل هو مضاف إلى قول من يقول بعذاب القبر ويقر بالقيامة ويثبت معاد الأبدان والأرواح ولكن هؤلاء لهم فى عذاب القبر ثلاثة أقوال :

(أحدها) أنه على الروح فقط .

(الثانى) أنه عليها وعلى البدن بواسطتها .

(الثالث) أنه على البدن فقط وقد يضم إلى ذلك القول الثانى وهو قول من يثبت عذاب القبر ويجعل الروح هى الحياة ويجعل الشاذ قول منكر عذاب الأبدان مطلقا وقول من ينكر عذاب الروح مطلقاً فاذا جعلت الأقوال الشاذة ثلاثة فالقول الثانى الشاذ قول من يقول إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب وإنما الروح هى الحياة وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والأشعرية كالقاضى أبى بكر وغيره وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن وهذا قول باطل وقد خالف أصحابه أبو المعالى الجوينى وغيره بل قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأمة أن الروح تبقى بعد فراق البدن وأنها منعمة أو معذبة والفلاسفة الإلهيون يقرون بذلك لكن ينكرون معاد الأبدان وهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان لكن ينكرون

معاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان وكلا القولين خطأ وضلال لكن قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الإسلام وإن كان قد يوافقهم عليه من يعتقد أنه متمسك بدين الإسلام بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوف والتحقيق والكلام .

والقول الثالث الشاذ قول من يقول إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة الكبرى كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم ممن ينكر عذاب القبر ونعيمه بناء على أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن وأن البدن لا ينعم ولا يعذب لجميع هؤلاء الطوائف ضلال فى أمر البرزخ لكنهم خير من الفلاسفة فانهم مقرون بالقيامة الكبرى .

فصل

فاذا عرفت هذه الأقوال الباطلة فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون فى نعيم أو عذاب وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة وأنها تتصل بالبدن أحيانا ويحصل له معها النعيم أو العذاب ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى .

فصل

ونحن نثبت ما ذكرناه فأما أحاديث عذاب القبر ومساءلة منكر ونكير فكثيرة متواترة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كما فى الصحيحين عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم مر بقبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير أما أحدهما فكان لا يستبرىء من البول وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة ثم دعا بجريدة رطبة فشقها نصفين فقال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا .

(وفى صحيح مسلم) عن زيد بن ثابت قال بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى حائط لبنى النجار على بغلته ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه فإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال من يعرف أصحاب هذه القبور ؟ فقال رجل أنا ، قال فتى مات هؤلاء ؟ قال ماتوا فى الإشراك فقال إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه ثم أقبل علينا بوجهه فقال تعوذوا بالله من عذاب النار ، قالوا نعوذ بالله من عذاب النار ، قال تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها ومابطن ، قالوا نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قال تعوذوا بالله من فتنة الدجال ، قالوا نعوذ بالله من فتنة الدجال .

(وفى صحيح مسلم) وجميع السنن عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع ، من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال .

(وفى صحيح مسلم) أيضاً وغيره عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن ، اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال .

(وفى الصحيحين) عن أبى أيوب قال خرج النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقد وجبت الشمس فسمع صوتاً فقال يهود تعذب فى قبورها .

(وفى الصحيحين) عن عائشة رضى الله عنها قالت دخلت على عجوز من عجائز يهود المدينة فقالت ان أهل القبور يعذبون فى قبورهم ، قالت فكذبتها ولم أنعم أن أصدقها قالت فخرجت ودخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يارسول الله ان عجوزا من عجائز يهود أهل المدينة دخلت فزعمت أن أهل القبور يعذبون فى قبورهم قال صدقت انهم يعذبون عذابا تسمعه البهائم كلها قالت فما رأيته بعد فى صلاة الا يتعوذ من عذاب القبر .

(وفى صحيح ابن حبان) عن أم مبشر قالت دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول تعوذوا بالله من عـــذاب القبر ، فقلت يارسول الله وللقبر عذاب ؟ قال إنهم ليعذبون فى قبورهم عذاباً تسمعه البهائم .

(قال) بعض أهل العلم ولهذا السبب يذهب الناس بدوابهم إذا مغلت إلى قبور اليهود والنصارى والمنافقين كالاسماعيلية والنصيرية والقرامطة من بنى عبيد وغيرهم الذين بأرض مصر والشام فان أصحاب الخيل يقصدون قبورهم لذلك كما يقصدون قبور اليهود والنصارى قال فاذا سمعت الخيل عذاب القبر أحدث لها ذلك فزعاً وحرارة تذهب بالمغل .

(وقد قال) عبد الحق الاشبيلى حدثنى الفقيه أبو الحكم بن برخان وكان من أهل العلم والعمل أنهم دفنوا ميتاً بقريتهم فى شرف أشبيلية فلما فرغوا من دفنه قعدوا ناحية يتحدثون ودابة ترعى قريباً منهم فإذا بالدابة قد أقبلت مسرعة إلى القبر فجعلت اذنها عليه كأنها تسمع ثم ولت فارة ثم عادت إلى القبر فجعلت اذنها عليه كأنها تسمع ثم ولت فارة فعلت ذلك مرة بعد أخرى .

قال أبو الحكم فذكرت عذاب القبر وقول النبى صلى الله عليه وسلم أنهم ليعذبون عذابا تسمعه البهائم .

ذكر لنا هذه الحكاية ونحن نسمع عليه كتاب مسلم لما انتهى القارىء إلى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم .

وهذا السماع واقع على أصوات المعذبين . قال هناد بن السرى فى كتاب الزهد حدثنا وكيع عن الأعمش عن شقيق عن عائشة رضى الله عنها قالت دخلت على يهودية فذكرت عذاب القبر فكذبتها فدخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على فذكرت ذلك له فقال والذى نفسى بيده إنهم ليعذبون فى قبورهم حتى تسمع البهائم أصواتهم .

(قلت) وأحاديث المسألة فى القبر كثيرة كما فى الصحيحين والسنن عن البراء بن عازب ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال المسلم إذا سئل فى قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قول الله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وفى لفظ نزلت فى عذاب القبر يقال له من ربك ؟ فيقول الله ربى ومحمد نبي فذلك قول الله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) .

وهذا الحديث قد رواه أهل السنن والمسانيد مطولا كما تقدم .

وقد صرح فى هذا الحديث بإعادة الروح إلى البدن وباختلاف أضلاعه وهذا بين فى أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين .

وقد روى مثل حديث البراء قبض الروح والمسألة والنعيم والعذاب أبو هريرة (وحديثه) فى المسند وصحيح أبى حاتم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال إن الميت إذا وضع فى قبره أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن شماله وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة ما قبلى مدخل ثم يؤتى من يمينه فيقول الصيام ما قبلى مدخل ثم يؤتى من يساره فتقول الزكاة ما قبلى مدخل ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان ما قبلى مدخل فيقال له اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد أخذت الغروب فيقال له هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول دعونى حتى أصلى فيقولون انك ستصلى أخبرنا عما نسألك عنه أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم ما تقول فيه وما تشهد عليه ؟ فيقول محمد ، أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله ، فيقال له على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدىء

منه وتجعل نسمته فى النسم الطيب وهى طير معلق فى شجر الجنة قال فذلك قول الله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وذكر فى الكافر ضد ذلك إلى أن قال ثم يضيق عليه فى قبره إلى أن تختلف فيه أضلاعه فتلك المعيشة الضنك التى قال الله تعالى (فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) .

(وفى الصحيحين) من حديث قتادة عن أنس أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال إن الميت إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه انه ليسمع خفق نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد ؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبدالله ورسوله ، قال فيقول أنظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيراهما جميعاً . قال قتادة وذكر لنا أنه يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً يملأ عليه خضرا إلى يوم يبعثون ، ثم رجع إلى حديث أنس قال فأما الكافر والمنافق فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس ، فيقولان لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة فيسمعها من عليها غير الثقلين .

(وفى صحيح أبى حاتم) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قبر أحدكم أو الإنسان أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو قائل ما كان يقول فان كان مؤمنا قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقولان له إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً فى سبعين ذراع وينور له فيه ويقال له نم فيقول ارجع إلى أهلى ومالى فأخبرهم فيقولان نم كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وإن كان منافقاً قال لا أدرى كنت أسمع الناس يقولون شيئاً فكنت أقوله فيقولان له كنا نعلم أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التئمى عليه فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وهذا صريح فى أن البدن يعذب .

(وعن أبى هريرة) أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال إذا احتضر المؤمن أتته الملائكة بحريرة بيضاء فيقولون اخرجى أيتها الروح الطيبة راضية مرضياً عنك إلى روح وريحان ورب غير غضبان فتخرج كأطيب من ريح المسك حتى أنه ليناوله بعضهم بعضاً حتى يأتوا به باب السماء فيقولون ما أطيب هذه الريح التى جاءتكم من الأرض ! فيأتون به أرواح المؤمنين فهم أشد فرحا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، فيسألونه ماذا فعل فلان ؟ قال فيقولون

دعوه يستريح فانه كان فى غم الدنيا فاذا قال أتاكم فيقولون انه ذهب به إلى أمه الهاوية ، وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح ، فيقولون اخرجى مسخوطاً عليك إلى عذاب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتوا به باب الأرض فيقولون فما أنتن هذه الروح[1] حتى يأتوا به أرواح الكفار . رواه النسائى والبزار ومسلم مختصراً .

(وأخرجه أبو حاتم فى صحيحه) وقال إن المؤمن إذا حضره الموت حضرته ملائكة الرحمة فاذا قبض جعلت روحه فى حريرة بيضاء فينطلق بها إلى باب السماء فيقولون ما وجدنا ريحاً أطيب من هذه فيقال ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ فيقال دعوه يستريح فإنه كان فى غم الدنيا وأما الكافر إذا قبضت نفسه ذهب بها إلى الأرض فتقول خزنة الأرض ما وجدنا ريحاً أنتن من هذه ! فيبلغ بها إلى الأرض السفلى .

(وروى) النسائى فى سننه من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال هذا الذى تحرك له العرش وفتحت له أبواب السماء وشهد له سبعون ألفاً من الملائكة لقد ضم ضمة ثم فرج عنه ، قال النسائى يعنى سعد بن معاذ .

(وروى) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ . رواه من حديث شعبة .

(وقال) هناد بن السرى حدثنا محمد بن فضيل عن أبيه عن ابن أبى مليكة قال ما أجير من ضغطة القبر أحد ولا سعد بن معاذ الذى منديل من مناديله خير من الدنيا وما فيها .

(قال) وحدثنا عبدة عن عبيد الله بن عمر عن نافع قال لقد بلغنى أنه شهد جنازة سعد ابن معاذ سبعون ألف ملك لم ينزلوا إلى الأرض قط ، ولقد بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لقد ضم صاحبكم فى القبر ضمة .

(وقال) على بن معبد حدثنا عبيد الله عن زيد بن أبى أنيسة عن جابر عن نافع قال أتينا صفية بنت أبى عبيد امرأة عبد الله بن عمر وهى فزعة فقلنا ما شأنك ؟ فقالت جئت من عند بعض نساء النبى صلى الله عليه وآله وسلم قالت فحدثنى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن كنت لأرى لو أن أحدا أعفى من عذاب القبر لأعفى منه سعد بن معاذ لقد ضم فيه ضمة .

---

[1] الريح : هكذا فى سنن النسائى .

(وحدثنا) مروان بن معاوية عن العلاء بن المسيب عن معاوية العبسى عن زاذان ابن عمرو [1] قال لما دفن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابنته فجلس عند القبر فتربد وجهه ثم سرى عنه فقال له أصحابه رأينا وجهك آنفا ثم سرى فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكرت ابنتي وضعفها وعذاب القبر فدعوت الله ففرج عنها وأيم الله لقد ضمت ضمة سمعها من بين الخافقين .

(وحدثنا) شعيب عن ابن دينار عن إبراهيم الغنوى عن رجل قال كنت عند عائشة رضى الله عنها فمرت جنازة صبي صغير فبكت فقلت لها ما يبكيك يا أم المؤمنين فقالت هذا الصبي بكيت له شفقة عليه من ضمة القبر .

ومعلوم أن هذا كله للجسد بواسطة الروح .

فصـــل

وهذا كما أنه مقتضى السنة الصحيحة فهو متفق عليه بين أهل الســـنة . قال المروزى قال أبو عبد الله عذاب القبر حق لاينكره إلا ضال أو مضل . وقال حنبل قلت لأبى عبد الله فى عذاب القبر فقال هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر بها ، كلما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إسناد جيد أقررنا به . إذا لم نقر بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودفعناه ورددناه على الله أمره قال الله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخـــذوه) قلت له وعذاب القبر حق ؟ قال حق يعذبون فى القبور . قال وسمعت أبا عبـــد الله يقول نؤمن بعذاب القبر ويمنكر ونكير وأن العبد يسأل فى قبره فـ (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) فى القبر .

(وقال) أحمد بن القاسم قلت يا أبا عبد الله تقر بمنكر ونكير ومايروى فى عذاب القبر ؟ فقال سبحان الله نعم نقر بذلك ونقوله ، قلت هذه اللفظة تقول منكـر ونكير هكذا أو تقول ملكين ؟ قال منكر ونكير ، قلت يقولون ليس فى حديث منكر ونكير قال هو هكذا يعنى أنهما منكر ونكير .

وأما أقوال أهل البدع والضلال فقال أبو الهذيل والمريسى من خرج عن سمة الإيمان فإنه يعذب بين النفختين ، والمسألة فى القبر إنما تقع فى ذلك الوقت .

---

[1] هكذا فى الأصل ولعله : عن زاذان عن عمر أو ابن عمر .

وأثبت الجبائى وابنه البلخى عذاب القبر ولكنهم نفوه عن المؤمنين وأثبتوه لأصحاب التخليد من الكفار والفساق على أصولهم .

(وقال) كثير من المعتزلة لا يجوز تسمية ملائكة الله بمنكر ونكير وإنما المنكر ما يبدو من تلجلجه إذا سئل والنكير تقريع الملكين له .

وقال الصالحى وصالح فيه عذاب القبر يجرى على المؤمن من غير رد الأرواح إلى الأجساد والميت يجوز أن يألم ويحس ويعلم بلا روح ، وهذا قول جماعة من الكرامية .

(وقال) بعض المعتزلة ان الله سبحانه يعذب الموتى فى قبورهم ويحدث فيهم الآلام وهم لا يشعرون فإذا حشروا وجدوا تلك الآلام وأحسوا بها ، قالوا وسبيل المعذبين من الموتى كسبيل السكران والمغشى عليه لو ضربوا لم يجدوا الآلام فاذا عاد عليهم العقل أحسوا بألم الضرب .

وأنكر جماعة منهم عذاب القبر رأساً مثل ضرار بن عمرو ويحيى بن كامل ، وهو قول المريسى ، فهذه أقوال أهل الخزية والضلال .

فصـــل

ومما ينبغى أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً ونسف فى الهواء أو صلب أو غرق فى البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور .

(وفى صحيح البخارى) عن سمرة بن جندب قال كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال من رأى منكم الليلة رؤيا ؟ قال فان رأى أحد رؤيا قصها فيقول ماشاء الله فسألنا يوماً فقال هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ قلنا لا ، قال لكنى رأيت الليلة رجلين اتيانى فأخذا بيدى وأخرجانى إلى الأرض المقدسة فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد يدخله فى شدقه حتى يبلغ قفاه ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله قلت ما هذا ؟ قالا انطلق فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بصخرة أو فهر فيشدخ بها رأسه فاذا ضربه تدهده الحجر فانطلق اليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو فعاد إليه فضربه . قلت ماهذا ؟ قالا انطلق فانطلقنا إلى نقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار فاذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم اللهب من تحتهم فإذا اقترب ارتفعوا حتى

كادوا يخرجوا فاذا خمدت رجعوا ، فقلت ما هذا ؟ قالا انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة فأقبل الرجل الذى فى النهر فاذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه فرده حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر فرجع كما كان فقلت ما هذا ؟ قالا انطلق فانطلقنا حتى اتينا الى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفى اصلها شيخ وصبيان واذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا بى الشجرة وأدخلانى داراً لم أرقط أحسن منهافيها شيوخ وشبان ثم صعدابى فأدخلانى دارأهى أحسن وأفضل ، قلت طوفتمانى الليلة فأخبرانى عما رأيت قالا نعم الذى رأيته يشق شدقه كذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به إلى يوم القيامة ، والذى رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار يفعل به الى يوم القيامة ، وأما الذى رأيت فى النقب فهم الزناة ، والذى رأيته فى النهر فآكل الربا . وأما الشيخ الذى فى أصل الشجرة فإبراهيم والصبيان حوله فأولاد الناس ، والذى يوقد النار فمالك خازن النار ، والدار الأولى دار عامة المؤمنين ، وأما هذه الدار فدار الشهداء وأنا جبرائيل وهذا ميكائيل ، فارجع رأسك فرفعت رأسى فإذا قصر مثل السحابة قالا ذلك منزلك ، قلت دعانى أدخل منزلى قالا انه بقى لك عمر لم تستكمله فلو استكملته أتيت منزلك .

وهذا نص فى عذاب البرزخ فإن رؤيا الأنبياء وحى مطابق لما فى نفس الأمر .

(وقد ذكر) الطحاوى عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال أمر بعبد من عباد الله ان يضرب فى قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى صارت واحدة فامتلأ قبره عليه نارا فلما ارتفع عنـــه أفاق فقال علام جلدتمونى ؟ قالوا إنك صليت صلاة بغير طهور ومررت على مظلوم فلم تنصره .

(وذكر البيهقى) حديث الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى هذه الآية (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) إلا أنه أتى بفرس فحمل عليه قال كل خطوة منتهى أقصى بصره فسار وسار معه جبريل فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال ياجبرائيل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله يضاعف لهم الحسنة بسبعمائة (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم شىء من ذلك قال ياجبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين تثاقل رءوسهم عن الصلاة ، قال ثم أتى على قوم على اقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الأنعام على الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها قال ماهؤلاء ياجبرائيل ؟ قال هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم

وماظلمهم الله وما الله بظلام للعبيد ، ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم من قدر نضيج ولحم آخر خبيث فجعلوا يأكلون من الخبيث ويدعون النضيج الطيب فقال ياجبريل من هؤلاء ؟ قال هذا الرجل يقوم وعنـــده امرأة حلالا طيبا فيأتى المرأة الخبيثة فتبيت معه حتى تصبح ، ثم أتى على خشبة على الطريق لايمر بها شيء إلا قصفته [1] يقول الله تعالى (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) ثم مر على رجل قد جمع حزمة عظيمة لايستطيع حملها وهو يزيد عليها قال ياجبريل ماهذا ؟ قال هذا رجل من أمتك عليه أمانة لايستطيع أداءها وهو يزيد عليها ، ثم أتى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لايفترعنهم شيء ، قال ياجبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء خطباء الفتنة ثم أتى على جحر صغير يخرج منه نور عظيم فجعل النور يريد أن يدخل من حيث خرج ولا يستطيع قال ماهذا ياجبريل ؟ قال هذا الرجل يتكلم بالـكلمة فيندم عليها فيريد أن يردها فلا يستطيع وذكر الحديث .

وذكر البيهقي أيضا فى حديث الاسراء من رواية أبى سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال فصعدت أنا وجبريل فاستفتح جبريل فإذا بآدم كهيئته يوم خلقه الله على صورته تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين فيقول روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها فى عليين ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها فى سجين ، ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس بقربها أحد وإذا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح ونتن وعندها ناس يأكلون منها قلت ياجبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء يتركون الحلال ويأتون الحرام ، قال ثم مضيت هنيهة فاذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر يقول اللهم لاتقم الساعة قال وهم على سابلة آل فرعون قال فتجيء السابلة فتطأهم فيصيحون قلت ياجبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) قال ثم مضيت هنيهة فاذا أنا بقوم مشافرهم كمشافر الإبل فتفتح أفواههم فيلقمون الجمر ثم يخرج من أسافلهم فسمعتهم يصيحون قلت من هؤلاء ؟ قال الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، ثم مضيت هنيهة فاذا أنا بنساء معلقات بثديهن فسمعتهن يصحن قلت من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الزوانى ، ثم مضيت هنيهة فاذا أنا بقوم يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمون فيقال كل كما كنت تأكل لحم أخيك قلت من هؤلاء ؟ قال الهمازون من أمتك وذكر الحديث بطوله .

---

[1] سقط هنا شيء ، وفى الخصائص : لايمر بها ثوب إلا شقته ولاشيء إلى خرقته قال ما هذا ياجبريل ؟ قال هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه .

وفى سنن أبى داود من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت ياجبريل من هؤلا ؟ قال الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم .

(وقال) أبو داود الطيالسى فى مسنده ، حدثنا شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتى على قبرين فقال إنهما ليعذبان فى غير كبير أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس وأما الآخر فكان صاحب نميمة ثم دعا بجريدة فشقها نصفين فوضع نصفها على هـــذا القبر ونصفها على هذا القبر وقال عسى أن يخفف عنهما ما دامتا رطبتين .

وقد اختلف الناس فى هذين هل كانا كافرين أو مؤمنين ؟ كانا كافرين وقوله وما يعذبان فى كبير يعنى بالاضافة إلى الكفر والشرك قالوا ويدل عليه أن العذاب لم يرتفع عنهما وإنما خفف ، وأيضا فإنه خفف مدة رطوبة الجريدة فقط ، وأيضا فانهما لو كانا مؤمنين لشفع فيهما ودعا لهما النبى صلى الله عليه وآله وسلم فرفع عنهما بشفاعته ، وأيضا ففى بعض طرق الحديث أنهما كانا كافرين وهذا التعذيب زيادة على تعذيبهما بكفرهما وخطاياهما وهو دليل على أن الكافر يعذب بكفره وذنوبه جميعا . وهذا اختيار أبى الحكم بن برخان .

وقيل كانا مسلمين لنفيه صلى الله عليه وآله وسلم التعذيب بسبب غير السببين المذكورين ولقوله وما يعذبان فى كبير والكفر والشرك أكبر الكبائر على الإطلاق ولا يلزم أن يشفع النبى صلى الله عليه وآله وسلم لكل مسلم يعذب فى قبره على جريمة من الجرائم فقد أخبر عن صاحب الشملة الذى قتل فى الجهاد أن الشملة تشتعل عليه نارا فى قبره وكان مسلما مجاهدا ولا يعلم ثبوت هذه اللفظة وهى قوله كانا كافرين ولعلها لو صحت وكلا فهى من قول بعض الرواة ، والله أعلم . وهذا اختيار أبى عبد الله القرطبى .

المسألة السابعة

وهى قول السائل ماجوابنا للملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر وسعته وضيقه وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة وكون الميت لا يجلس ولا يقعد فيه .

قالوا فانا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة عميا صما يضربون الموتى بمطارق من حديد ولا نجد هناك حيات ولا ثعابين ولا نيرانا تأجج ولو كشفنا حاله فى حالة من الأحوال لوجدناه لم يتغير ولو وضعنا على عينيه الزئبق وعلى صدره الخردل لوجدناه على حاله وكيف يفسح

حد بصره أو يضيق عليه ونحن نجده بحاله ونجد مساحته على حد ماحفرناها لم يزد ولم ينقص وكيف يسع ذلك اللحد الضيق له وللملائكة والصورة التي تؤنسه أو توحشه ؟ قال إخوانهم من أهل البدع والضلال وكل حديث يخالف مقتضى العقول والحس يقطع بتخطئة قائله قالوا ونحن نرى المصلوب على خشبة مدة طويلة لايسأل ولايجيب ولايتحرك ولايتوقد جسمه ناراً ومن افترسته السباع ونهشته الطيور وتفرقت أجزاؤه في أجواف السباع وحواصل الطيور وبطون الحيتان ومدارج الرياح كيف تسأل أجزاؤه مع تفرقها وكيف يتصور مسألة الملكين لمن هذا وصفه وكيف يصير القبر على هـذا روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار وكيف يضيق عليه حتى تلتئم أضلاعه ؟ ونحن نذكر أموراً يعلم بها الجواب .

فصـــل

﴿الأمر الأول﴾ أن يعلم أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يخبروا بماتحيلهُ العقول وتقطع باستحالته بل اخبارهم قسمان :

(أحدهما) ماتشهد به العقول والفطر .

(الثاني) مالاتدركه العقول بمجردها كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر وتفاصيل الثواب والعقاب ولا يكون خبرهم محالا في العقول أصلا وكل خبر يظن أن العقل يحيله فلايخلو من أحد أمرين اما يكون الخبر كذبا عليهم أو يكون ذلك العقل فاسدا وهو شبهة خيالية يظن صاحبها أنها معقول صريح قال تعالى (ويرى الذين أوتو العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد) وقال تعالى (أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى) وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه) والنفوس لاتفرح بالمحال ، وقال تعالى (ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) والمحال لايشفي ولايحصل به هدى ولارحمة ولايفرح به . فهذا أمر من لم يستقر في قلبه خير ولم يثبت له على الإسلام قدم وكان أحسن أحواله الحيرة والشك .

فصـــل

﴿الأمر الثاني﴾ أن يفهم عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مراده من غير غلو ولاتقصير فلايحمل كلامه مالايحتمله ولايقصر به عن مراده ومانصده من الهدى والبيان .

وقد حصل باهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب وما لا يعلمه إلا الله بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت فى الإسلام بل هو أصل كل خطأ فى الأصول والفروع ولاسيما إن أضيف إليه سوء القصد فيتفق سوء الفهم فى بعض الأشياء من المتبوع مع حسن قصده وسوء القصد من التابع فيا محنة الدين وأهله والله المستعان .

وهل أوقع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية والرافضة وسائر طوائف أهل البدع إلا سوء الفهم عن الله ورسوله حتى صار الدين بأيدى أكثر الناس هو موجب هذه الأفهام ، والذى فهمه الصحابة ومن تبعهم عن الله ورسوله فمهجور لا يلتفت اليه ولا يرفع هؤلاء به رأسا . ولكثرة أمثلة هذه القاعدة تركناها فانا لو ذكرناها لزادت على عشرة الوف حتى أنك لتمر على الكتاب من أوله إلى آخره لا تجد صاحبه فهم عن الله ورسوله ومراده كما ينبغى فى موضع واحد .

وهذا إنما يعرفه من عرف ماعند الناس وعرضه على ماجاء به الرسول وأما من عكس الأمر بعرض ماجاء به الرسول على ما اعتقده وانتحله وقلد فيه من أحسن به الظن فليس يجدى الكلام معه شيئاً فدعه وما اختاره لنفسه وولاه ما تولى واحمد الذى عافاك مما ابتلاه به .

فصل

﴿ الأمر الثالث ﴾ أن الله سبحانه جعل الدور ثلاثا ، دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، وجعل لكم دار أحكاماً تختص بها وركب هذا الانسان من بدن ونفس وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعا لها ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح وان أضمرت النفوس خلافه . وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعا لها فكما تبعت الأرواح الأبدان فى أحكام الدنيا فتألمت بألمها والتذت براحتها وكانت هى التى باشرت أسباب النعيم والعذاب تبعت الأبدان الأرواح فى نعيمها وعذابها والأرواح حينئذ هى التى تباشر العذاب والنعيم فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفية والأبدان كالقبور لها والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية فى قبورها تجرى أحكام البرزخ على الأرواح فتسرى إلى أبدانها نعيما أو عذاباً كما تجرى أحكام الدنيا على الأبدان فتسرى إلى أرواحها نعيما أو عذابا فأحط بهذا الموضع علما واعرفه كما ينبغى يزل عنك كل اشكال يورد عليك من داخل وخارج .

وقد أرانا الله سبحانه بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك أنموذجا فى الدنيا من حال النائم فإن ما ينعم به أو يعذب فى نومه يجرى على روحه أصلا والبدن تبع له وقد يقوى حتى يؤثر

فى البدن تاثيراً مشاهداً فيرى النائم فى نومه أنه ضرب فيصبح وأثر الضرب فى جسمه ويرى أنه قد أكل أو شرب فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب فى فيه ويذهب عنه الجوع والظمأ .

وأعجب من ذلك أنك ترى النائم يقوم فى نومه ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان وهو نائم لاشعور له بشىء من ذلك ، وذلك أن الحكم لما جرى على الروح استعانت بالبدن من خارجه ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحس فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع فهكذا فى البرزخ بل أعظم فإن تجرد الروح هنالك أكمل وأقوى وهى متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع فإذا كان يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً بادياً أصلا .

ومتى أعطيت هذا الموضع حقه تبين لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه وضيقه وسعته وضمه وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة مطابق للعقل وأنه حق لامرية فيه وإن من أشكل عليه ذلك فمن سوء فهمه وقلة علمه أتى كما قيل :

وكم من عائب قولا صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

وأعجب من ذلك أنك تجد النائمين فى فراش واحد وهذا روحه فى النعيم ويستيقظ وأثر النعيم على بدنه ، وهذا روحه فى العذاب ويستيقظ وأثر العذاب على بدنه وليس عند أحدهما خبر بما عند الآخر فأمر البرزخ أعجب من ذلك .

فصل

﴿ الأمر الرابع ﴾ أن الله سبحانه جعل أمر الآخرة وما كان متصلا بها غيباً وحجبها عن إدراك المكلفين فى هذه الدار وذلك من كمال حكمته وليتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم فأول ذلك أن الملائكة تنزل على المحتضر وتجلس قريباً منه ويشاهدهم عيانا ويتجدثون عنده ومعهم الأكفان والحنوط إما من الجنة وإما من النار ويؤمنون على دعاء الحاضرين بالخير والشر وقد يسلمون على المحتضر ويرد عليهم تارة بلفظه وتارة باشارته وتارة بقلبه حيث لايتمكن من نطق ولا إشارة .

(وقد سمع) بعض المحتضرين يقول أهلا وسهلا ومرحبا بهذه الوجوه .

(وأخبرنى) شيخنا عن بعض المحتضرين فلا أدرى أشاهده وأخبر عنه أنه سمع وهو يقول عليك السلام هاهنا فاجلس ، وعليك السلام هاهنا فاجلس .

(وقصة) خير النساج رحمه الله مشهورة حيث قال عند الموت اصبر عافاك الله فان ما أمرت به لا يفوت وما أمرت به يفوت ثم استدعى بماء فتوضأ وصلى ثم قال امض لما أمرت به ومات.

(وذكر) ابن أبي الدنيا أن عمر بن عبد العزيز لما كان في يومه الذي مات فيه قال أجلسوني فأجلسوه فقال : أنا الذي أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت ثلاث مرات ولكن لا إله إلا الله ثم رفع رأسه فأحد النظر فقالوا انك لتنظر نظراً شديداً يا أمير المؤمنين فقال إني لأرى حضرة ما هم بانس ولا جن ثم قبض .

(وقال) مسلمة بن عبد الملك لما احتضر عمر بن عبد العزيز كنا عنده في قبة فأومى إلينا أن اخرجوا فخرجنا فقعدنا حول القبة وبقي عنده وصيف فسمعناه يقرأ هذه الآية (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) ما أنتم بانس ولا جان ثم خرج الوصيف فأومى إلينا أن ادخلوا فدخلنا فإذا هو قد قبض .

(وقال) فضالة بن دينار حضرت محمد بن واسع وقد سجي للموت فجعل يقول مرحباً بملائكة ربي ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وشممت رائحة طيب لم أشم قط أطيب منها ثم شخص ببصره فمات .

والآثار في ذلك أكثر من أن تحصر .

وأبلغ وأكفى من ذلك كله قول الله عز وجل (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) أي أقرب إليه بملائكتنا ورسلنا ولكنكم لا ترونهم فهذا أول الأمر وهو غير مرئي لنا ولا مشاهد وهو في هذه الدار .

ثم يمد الملك يده إلى الروح فيقبضها ويخاطبها والحاضرون لا يرونه ولا يسمعونه ثم تخرج فيخرج لها نور مثل شعاع الشمس ورائحة أطيب من رائحة المسك والحاضرون لا يرون ذلك ولا يشمونه .

ثم تصعد بين حماطين من الملائكة والحاضرون لا يرونهم .

ثم تأتي الروح فتشاهد غسل البدن وتكفينه وحمله وتقول قدموني قدموني أو إلى أين تذهبون بي ولا يسمع الناس ذلك فإذا وضع في لحده وسوي عليه التراب لم يحجب التراب الملائكة عن الوصول إليه بل لو نقر له حجر فأودع فيه وختم عليه بالرصاص لم يمنع وصول الملائكة إليه فإن هذه الأجسام الكثيفة لا تمنع خرق الأرواح لها ، بل الجن لا يمنعها ذلك ، بل قد جعل الله سبحانه الحجارة والتراب للملائكة بمنزلة الهواء للطير واتساع القبر وانفساحه للروح

بالذات والبدن تبعاً فيكون البدن فى لحد أضيق من ذراع وقد فسح له مد بصره تبعا لروحه وأما عصرة القبر حتى تختلف بعض أجزاء الموتى فلا يرده حس ولاعقل ولافطرة ولو قدر أن أحداً نبش عن ميت فوجد أضلاعه كما هى لم تختلف لم يمنع أن تكون قد عادت إلى حالها بعد العصرة فليس مع الزنادقة والملاحدة إلا مجرد تكذيب الرسول .

ولقد أخبر بعض الصادقين أنه حفر ثلاثة أقبر فلما فرغ منها اضطجع ليستريح فرأى فيما يرى النائم ملكين نزلا فوقفا على أحدالأقبر فقال أحدهما لصاحبه اكتب فرسخا فى فرسخ ثم وقف على الثانى فقال اكتب ميلا فى ميل ثم وقف على الثالث فقال اكتب فترا فى فتر ثم انتبه فجىء برجل غريب لايؤبه له فدفن فى القبر الأول ثم جىء برجل آخر فدفن فى القبر الثانى ثم جىء بامرأة مترفة من وجوه البلد حولها ناس كثير فدفنت فى القبر الضيق الذى سمعه يقول فترا فى فتر والفتر ما بين الإبهام والسبابة .

فصـــل

﴿ الأمر الخامس ﴾ أن النار التى فى القبر والخضرة ليست من نار الدنيا ولامن زروع الدنيا فيشاهده من شاهد نار الدنيا وخضرها وإنما هى من نار الآخرة وخضرها وهى أشد من نار الدنيا فلا يحس به أهل الدنيا فان الله سبحانه يحمى عليه ذلك التراب والحجارة التى عليه وتحته حتى يكون أعظم حراً من جمر الدنيا ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بذلك بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفنان أحدهما إلى جنب الآخر وهذا فى حفرة من حفر النار لايصل حرها إلى جاره وذلك فى روضة من رياض الجنة لايصل روحها ونعيمها إلى جاره .

وقدرة الرب تعالى أوسع وأعجب من ذلك وقد أرانا الله من آيات قدرته فى هذه الدار ماهو أعجب من ذلك بكثير ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علماً إلا من وفقه الله وعصمه .

فيفرش للكافر لوحان من نار فيشتعل عليه قبره بهما كما يشتعل التنور فاذا شاء الله سبحانه أن يطلع على ذلك بعض عبيده اطلعه وغيبه عن غيره إذ لو طلع العباد كلهم لزالت كلة التكليف والإيمان بالغيب ولما تدافن الناس كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وآله وسلم لولا أن لاتدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع .

ولما كانت هذه الحكمة منفية فى حق البهائم سمعت ذلك وأدركته كما حادت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغلته وكادت تلقيه لما مر بمن يعذب فى قبره .

(وحدثنى) صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الرزيز الحرانى أنه خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بستان قال فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور فاذا بقبر منها وهو جمرة

نار مثل كوز الزجاج والميت فى وسطه فجعلت أمسح عينى واقول انائم أنا ام يقظان ؟ ثم التفت إلى سور المدينة وقلت والله ماانا بنائم ثم ذهبت إلى أهلى وأنا مدهوش فأتونى بطعام فلم أستطع أن آكل ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا به مكاس [1] قد توفى ذلك اليوم .

فرؤية هذه النار فى القبر كرؤية الملائكة والجن تقع احيانا لمن شاء الله ان يريه ذلك .

(وقد ذكر) ابن أبى الدنيا فى (كتاب القبور) عن الشعبى انه ذكر رجلا قال للنبى صلى الله عليه وآله وسلم مررت ببدر فرأيت رجلا يخرج من الأرض فيضربه رجل بمقمعة حتى يغيب فى الأرض ثم يخرج فيفعل به ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك أبو جهل بن هشام يعذب إلى يوم القيامة .

(وذكر) من حديث حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال بينا أنا اسير بين مكة والمدينة على راحلة وأنا محقب اداوة اذ مررت بمقبرة فإذا رجل خارج من قبره يلتهب نارا وفى عنقه سلسلة يجرها فقال يا عبد الله انضح يا عبد الله انضح فوالله ماأدرى اعرفنى باسمى أم كما تدعو الناس قال فخرج آخر فقال يا عبد الله لا تنضح يا عبد الله لا تنضح ثم اجتذب السلسلة فاعاده فى قبره .

(وقال) ابن أبى الدنيا حدثنى أبى حدثنا موسى بن داود حدثنا حماد بن سلمة عن هشام ابن عروة عن أبيه قال بينما راكب يسير بين مكة والمدينة إذ مر بمقبرة فإذا برجل قد خرج من قبر يلتهب نارا مصفدا فى الحديد فقال يا عبدالله انضح ياعبدالله انضح قال وخرج آخر يتلوه فقال ياعبد الله لاتنضح ياعبد الله لاتنضح قال وغشى على الراكب وعدلت به راحلته إلى العرج قال وأصبح قد ابيض شعره فأخبر عثمان بذلك فنهى أن يسافر الرجل وحده .

(وذكر) من حديث سفيان حدثنا داود بن شابور عن أبى قزعة قال مررنا فى بعض المياه التى بيننا وبين البصرة فسمعنا نهيق حمار فقلنا لهم ماهذا النهيق ؟ قالوا هذا رجل كان عندنا كانت أمه تكلمه بالشىء فيقول لها إنهق نهيقك فلما مات سمع هذا النهيق من قبره كل ليلة .

(وذكر) أيضا عن عمرو بن دينار قال كان رجل من أهل المدينة وكانت له أخت فى ناحية المدينة فاشتكت وكان يأتيها يعودها ثم ماتت فدفنها فلما رجع ذكر أنه نسى شيئاً فى

---

[1] المكس : الظلم والنقص ويقال مكس إذا جبى عالا .

القبر كان معه فاستعان برجل من أصحابه قال فنبشنا القبر ووجدت ذلك المتاع فقال للرجل تنح حتى انظر على أى حال أختى فرفع بعض ماعلى اللحد فإذا القبر مشتعل نارا فرده وسوى القبر فرجع إلى أمه فقال ما كان حال أختى فقالت ماتسأل عنها وقد هلكت فقال لتخبرينى قالت كانت تؤخر الصلاة ولاتصلى فيما أظن بوضوء وتأتى أبواب الجيران فتلقم أذنها أبوابهم وتخرج حديثهم .

(وذكر) عن حصين الأسدى قال سمعت مرثد بن حوشب قال كنت جالسا عند يوسف ابن عمر وإلى جنبه رجل كأن شقة وجهه صفحة من حديد فقال له يوسف حدث مرثدا بما رأيت فقال كنت شابا قد أتيت هذه الفواحش فلما وقع الطاعون قلت أخرج إلى ثغر من هذه الثغور ثم رأيت أن احفر القبور فاذا فى ليلة بين المغرب والعشاء قد حفرت وأقمت أبكى على تراب قبر آخر إذ جىء بجنازة رجل حتى دفن فى ذلك وسووا عليه فأقبل طائران أبيضان من المغرب مثل البعيرين حتى سقط أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ثم اثاراه ثم تدلى أحدهما فى القبر والآخر على شفيره فجئت حتى جلست على شفير القبر وكنت رجلا لايملأ جوفى شىء قال فسمعته يقول ألست الزائر اصهارك فى ثوبين معصرين تسحبها كبرا تمشى الخيلاء فقال أنا أضعف من ذلك قال فضربه ضربة امتلأ القبر حتى فاض ماء ودهنا ثم عاد فأعاد إليه القول حتى ضربه ثلاث ضربات كل ذلك يقول ذلك ويذكر أن القبر يفيض ماء ودهنا قال ثم رفع رأسه فنظر إلى فقال انظر أين هو جالس بلسه الله قال ثم ضرب جانب وجهى فسقطت فمكثت ليلتى حتى أصبحت قال ثم أخذت انظر إلى القبر فإذا هو على حاله .

فهذا الماء والدهن فى رأى العين لهذا الرائى هو نار تأجج للميت كما أخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن الدجال أنه يأتى معه بماء ونار فالنار ماء بارد والماء نار تأجج .

(وذكر) ابن أبى الدنيا ان رجلا سأل أبا اسحاق الفزارى عن النباش هل له توبة ؟ فقال نعم إن صحت نيته وعلم الله منه الصدق فقال له الرجل كنت أنبش القبور وكنت أجد قوما وجوههم لغير القبلة فلم يكن عند الفزارى فى ذلك شىء فكتب إليه الأوزاعى يخبره بذلك فكتب إليه الأوزاعى تقبل توبته إذا صحت نيته وعلم الله الصدق من قلبه وأما قوله انه كان يجد قوما وجوههم لغير القبلة فأولئك قوم ماتوا على غير السنة .

(وقال) ابن أبى الدنيا حدثنى عبد المؤمن بن عبدالله بن عيسى القيسى انه قيل لنباش قد تاب ماأعجب مارأيت ؟ قال نبشت رجلا فإذا هو مسمر بالمسامير فى سائر جسده ومسمار كبير فى رأسه وآخر فى رجليه .

(قال) وقيل لنباش آخر ماأعجب مارأيت ؟ قال رأيت جمجمة انسان مصبوب فيها رصاصا.

(قال) وقيل لنباش آخر ما كان سبب توبتك ؟ قال عامة من كنت أنبش كنت أراه محول الوجه عن القبلة .

(قلت) وحدثني صاحبنا أبو عبد الله محمد بن مساب السلامي وكان من خيار عباد الله وكان يتحرى الصدق قال جاء رجل إلى سوق الحدادين ببغداد فباع مسامير صغار المسمار برأسين فأخذها الحداد وجعل يحمى عليها فلا تلين معه حتى عجز عن ضربها فطلب البائع فوجده فقال من أين لك هذه المسامير ؟ فقال لقيتها فلم يزل به حتى أخبره انه وجد قبرا مفتوحا وفيه عظام ميت منظومة بهذه المسامير قال فعالجتها على أن أخرجها فلم أقدر فأخذت حجرا فكسرت عظامه وجمعتها قال وأنا رأيت تلك المسامير قلت له فكيف صفتها ؟ قال المسمار صغير برأسين .

(قال) ابن أبي الدنيا وحدثني أبي عن أبي الحريش عن أمه قالت لما حفر أبو جعفر خندق الكوفة حول الناس موتاهم فرأينا شابا ممن حول عاضا على يده .

(وذكر) عن سماك بن حرب قال مر أبو الدرداء بين القبور فقال ما أسكن ظواهرك وفى داخلك الدواهى .

(وقال) ثابت البنانى بينا أنا أمشى فى المقابر وإذا صوت خلفى وهو يقول يا ثابت لايغرنك سكونها فكم من مغموم فيها فالتفت فلم أر أحدا .

(ومر) الحسن على مقبرة فقال يالهم من عسكر ما أسكنهم وكم فيهم من مكروب .

(وذكر) ابن أبي الدنيا أن عمر بن عبد العزيز قال لمسلمة بن عبد الملك يامسلمة من دفن أباك ؟ قال مولاى فلان قال فمن دفن الوليد ؟ قال مولاى فلان قال فأنا أحدثك ماحدثنى به أنه لما دفن أباك والوليد فوضعهما فى قبورهما وذهب ليحل العقد عنها وجد وجوههما قد حولت فى اقفيتهما فانظر يامسلمة إذا أنا مت فالتمس وجهى فانظر هل نزل بى مانزل بالقوم أو هل عوفيت من ذلك قال مسلمة فلما مات عمر وضعته فى قبره فلمست وجهه فإذا هو مكانه .

(وذكر) ابن أبي الدنيا عن بعض السلف قال ماتت ابنة لى فأنزلتها القبر فذهبت أصلح اللبنة فإذا هى قد حولت عن القبلة فاغتممت لذلك غما شديدا فرأيتها فى النوم فقالت يا أبت اغتممت لما رأيت فإن عامة من حولى محولين عن القبلة قال كأنها تريد الذين ماتوا مصرين على الكبائر .

(وقال) عمرو بن ميمون سمعت عمر بن عبد العزيز يقول كنت فى من دلى الوليد بن عبد الملك فى قبره فنظرت إلى ركبتيه قد جمعتا فى عنقه فقال ابنه عاش أبى ورب الكعبة فقلت عوجل أبوك ورب الكعبة فاتعظ بها عمر بعده .

(وقال) عمر بن عبد العزيز ليزيد بن المهلب لما استعمله على العراق يايزيد اتق الله فانى حين وضعت الوليد فى لحده فإذا هو يركض فى أكفانه .

(وقال) يزيدبن هارون أخبر هشام بن حسان عن واصل مولى أبى عيينةعن عمربن زهدم عن عبد الحميد بن محمود قال كنت جالسا عند ابن عباس فأتاه قوم فقالوا إنا خرجنا حجاجا ومعنا صاحب لنا إذ أتينا فاذا الصفاح مات فهيأناه ثم انطلقنا لنحفر له ولحدنا له فلما فرغنا من لحده إذا نحن بأسود قد ملأ اللحد فحفرنا له آخر فإذا به قد ملأ لحده فحفرنا له آخر فاذا به فقال ابن عباس ذاك الغل الذى يغل به انطلقوا فادفنوه فى بعضها فوالذى نفسى بيده لوحفرتم الأرض كلها لوجدتموه فيه فانطلقنا فوضعناه فى بعضها فلما رجعنا أتينا أهله بمتاع له معنا فقلنا لامرأته ما كان يعمل زوجك ؟ قالت كان يبيع الطعام فيأخذ منه كل يوم قوت أهله ثم يقرض الفضل مثله فيلقيه فيه .

(وقال) ابن أبى الدنيا حدثنى محمد بن الحسين قال حدثنى أبو اسحاق صاحب الشاط قال دعيت إلى ميت لأغسله فلما كشفت الثوب عن وجهه إذا بحية قد تطوقت على حلقه فذكر من غلظها قال فخرجت فلم أغسله فذكروا أنه كان يسب الصحابة رضى الله عنهم .

(وذكر) ابن أبى الدنيا عن سعيد بن خالدبن يزيد الانصارى عن رجل من أهل البصرة كان يحفر القبور قال حفرت قبرا ذات يوم ووضعت رأسى قريبا منه فأتتنى امرأتان فى منامى فقالت احداهما يا عبد الله نشدتك بالله الا صرفت عنا هذه المرأة ولم تجاورنا بها فاستيقظت فزعا فإذا بجنازة امرأة قد جيء بها فقلت القبر وراءكم فصرفتهم عن ذلك القبر فلما كان بالليل إذا أنا بالمرأتين فى منامى تقول إحداهما جزاك الله عنا خيرا فلقد صرفت عنا شرا طويلا ، قلت ما لصاحبتك لا تكلمنى كما تكلمينى أنت ؟ قالت إن هذه ماتت عن غير وصية وحق لمن مات عن غير وصية ألا يتكلم إلى يوم القيامة .

وهذه الأخبار وأضعافها وأضعاف أضعافها مما لا يتسع لها الكتاب مما أراه الله سبحانه لبعض عباده من عذاب القبر ونعيمه عيانا .

وأما رؤية المنام فلو ذكرناها لجاءت عدة أسفار ومن أراد الوقوف عليها فعليه (بكتاب المنامات) لابن أبى الدنيا و (كتاب البستان) للقيروانى وغيرهما من الكتب المتضمنة لذلك وليس عند الملاحدة والزنادقة إلا التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه .

فصـــل

﴿ الأمر السابع ﴾ أن الله سبحانه وتعالى يحدث فى هذه الدار ماهو أعجب من ذلك فهذا جبريل كان ينزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتمثل له رجلا فيكلمه بكلام يسمعه ومن إلى جانب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لايراه ولا يسمعه وكذلك غيره من الأنبياء وأحياناً يأتيه الوحى فى مثل صلصلة الجرس ولايسمعه غيره من الحاضرين وهؤلاء الجن يتحدثون ويتكلمون بالأصوات المرتفعة بيننا ونحن لانسمعهم وقد كانت الملائكة تضرب الكفار بالسياط وتضرب رقابهم وتصيح بهم والمسلمون معهم لايرونهم ولايسمعون كلامهم والله سبحانه قد حجب بنى آدم عن كثير مما يحدثه فى الأرض وهو بينهم وقد كان جبريل يقرىء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويدارسه القرآن والحاضرون لايسمعونه .

وكيف يستنكر من يعرف الله سبحانه ويقر بقدرته أن يحدث حوادث يصرف عنها أبصار بعض خلقه حكمة منه ورحمة بهم لأنهم لايطيقون رؤيتها وسماعها والعبد أضعف بصراً وسمعاً من أن يثبت لمشاهدة عذاب القبر وكثيراً ممن أشهده الله ذلك صعق وغشى عليه ولم ينتفع بالعيش زمناً وبعضهم كشف قناع قلبه فمات فكيف ينكر فى الحكمة الإلهية اسبال غطاء يحول بين المكلفين وبين مشاهدة ذلك حتى إذا كشف الغطاء رأوه وشاهدوه عياناً .

ثم إن العبد قادر على أن يزيل الزئبق والخردل عن عين الميت وصدره ثم يرده بسرعة فكيف يعجز عنه الملك وكيف لايقدر عليه من هو على كل شىء قدير وكيف تعجز قدرته عن إبقائه فى عينيه وعلى صدره لايسقط عنه وهل قياس أمر البرزخ على ما يشاهده الناس فى الدنيا إلى محض الجهل والضلال وتكذيب أصدق الصادقين وتعجيز رب العالمين وذلك غاية الجهل والظلم .

وإذا كان أحدنا يمكنه توسعة القبر عشرة أذرع ومائة ذراع وأكثر طولا وعرضاً وعمقاً ويستر توسيعه عن الناس ويطلع عليه من يشاء فكيف يعجز رب العالمين أن يوسعه مايشاء على من يشاء ويستر ذلك عن أعين بنى آدم فيراه بنو آدم ضيقاً وهو أوسع شىء وأطيبه ريحاً وأعظمه إضاءة ونوراً وهم لايرون ذلك .

وسر المسألة أن هذه السعة والضيق والإضاءة والخضرة والنار ليس من جنس المعهود فى هذا العالم والله سبحانه إنما أشهد بنى آدم فى هذه الدار ما كان فيها ومنها فأما ما كان من أمر الآخرة فقد أسبل عليه الغطاء ليكون الاقرار به والايمان سببا لسعادتهم فاذا كشف عنهم

الغطاء صار عياناً مشاهداً فلو كان الميت بين الناس موضوعاً لم يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألانه من غير أن يشعر الحاضرون بذلك ويجيبهما من غير أن يسمعوا كلامه ويضربانه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربه وهـــذا الواحد منا ينام إلى جنب صاحبه فيعذب فى النوم ويضرب ويألم وليس عند المستيقظ خبر من ذلك البتة وقد سرى أثر الضرب والألم إلى جسده .

ومن أعظم الجهل استبعاد شق الملك الأرض والحجر وقد جعلهما الله سبحانه له كالهواء للطير ولايلزم من حجبها للأجسام الكثيفة أن تتوج حجبها الارواح اللطيفة وهل هذا إلا من أفسد القياس وبهذا وأمثاله كذبت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

فصـــل

﴿ الأمر الثامن ﴾ أنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق ونحن لانشعر بها لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود فهذا المغمى عليه والمسكوت والمبهوت أحياء وأرواحهم معهم ولاتشعر بحياتهم ومن تفرقت أجزاؤه لايمتنع على من هو على كل شىء قدير أن يجعل للروح اتصالا بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه ويكون فى تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل فى الجمادات شعوراً وإدراكا تسبح ربها به وتسقط الحجارة من خشيته وتسجد له الجبال والشجر وتسبحه الحصى والمياه والنبات قال تعالى (وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم) ولو كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل (ولكن لاتفقهون تسبيحهم) فان كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها وقال تعالى (انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق) والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين وكذلك قوله تعالى : (ياجبال أوبى معه) والدلالة لاتختص معيته وحده وكذب على الله من قال التأويب رجع الصدى فان هذا يكون لكل مصوت وقال تعالى : (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبـــال والشجر والدواب وكثير من الناس) والدلالة على الصانع لاتختص بكثير من الناس وقد قال تعالى (ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير) صفات كل قد علم صلاته وتسبيحه فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله وإن جحدها الجاهلون المكذبون وقد أخبر تعالى عن الحجارة أن بعضها يزول عن مكانه ويسقط من خشيته ، وقد أخبر عن الأرض والسماء أنهما يأذنان له وقولهما ذلك أى يستمعان كلامه وأنه خاطبهما فسمعا خطابه وأحسنا جوابه فقال لهما (ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام

وهو يؤكل ، وسمعوا حنين الجذع اليابس فى المسجد ، فاذا كانت هذه الأجسام فيها الاحساس والشعور فالأجسام التى كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك ، وقد أشهد الله سبحانه عباده فى هذه الدار إعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقته الروح فتكلم ومشى وأكل وشرب وتزوج وولد له (كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم) وكقتيل بنى إسرائيل أو كالذين قالوا لموسى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) فأماتهم الله ثم بعثهم من بعد موتهم وكأصحاب الكهف وقصة إبراهيم فى الطيور الأربعة ، فاذا أعاد الحياة التامة إلى هذه الأجساد بعد ما بردت بالموت فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة ما غير مستقرة يقضى بها ما أمره فيها ويستنطقها بها ويعذبها أو ينعمها بأعمالها وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود وبالله التوفيق .

فصـــل

﴿ الأمر التاسع ﴾ انه ينبغى أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه وهو ما بين الدنيا والآخرة قال تعالى (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة ، وسمى عذاب القبر ونعيمه وأنه روضة أو حفرة نار باعتبار غالب الخلق فالمصلوب والحرق والغرق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذى تقتضيه أعماله وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتهما فقد ظن بعض الأوائل انه إذا حرق جسده بالنار وصار رماداً وذرى بعضه فى البحر وبعضه فى البر فى يوم شديد الريح أنه ينجو من ذلك فأوصى بنيه أن يفعلوا به ذلك فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه ثم قال قم فإذا هو قائم بين يدى الله فسأله ما حملك على ما فعلت ؟ فقال خشيتك يارب وأنت أعلم فما تلافاه أن رحمه . فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه لهذه الأجزاء التى صارت فى هذه الحال حتى لو علق الميت على رؤوس الأشجار فى مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه ولو دفن الرجل الصالح فى أتون من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه فيجعل الله النار على هذا برداً وسلاماً والهواء على ذلك ناراً وسموماً فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وخالقها يصرفها كيف يشاء ولا يستعصى عليه منها شىء أراده بل هى طلوع مشيئته مذللة منقادة لقدرته ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين وكفر به وأنكر ربوبيته .

فصـــل

﴿ الأمر العاشر ﴾ أن الموت معاد وبعث أول فإن الله سبحانه وتعالى جعل لابن آدم معادين وبعثين يجزى فيهما الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

فالبعث الأول مفارقة الروح للبدن ومصيرها إلى دار الجزاء الأول .

والبعث الثانى يوم يرد الله الأرواح إلى أجسادها ويبعثها من قبورها إلى الجنة أو النار وهو الحشر الثانى ولهذا فى الحديث الصحيح « وتؤمن بالبعث الآخر » فإن البعث الأول لاينكره أحد وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والنعيم والعذاب وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هاتين القيامتين وهما الصغرى والكبرى فى سورة المؤمنين وسورة الواقعة وسورة القيامة وسورة المطففين وسورة الفجر وغيرها من السور وقد اقتضى عدله وحكمته أن جعلها دارى جزاء المحسن والمسىء ولكن توفية الجزاء إنما يكون يوم المعاد الثانى فى دار القرار كما قال تعالى : (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) .

وقد اقتضى عدله وأوجبت سماؤه الحسنى وكماله المقدس تنعيم أبدان أوليائه وأرواحهم وتعذيب أبدان أعدائه وأرواحهم فلا بد أن يذيق بدن المطيع له وروحه من النعيم واللذة مايليق به ويذيق بدن الفاجر العاصى له وروحه من الألم والعقوبة ما يستحقه . هذا موجب عدله وحكمته وكماله المقدس ولما كانت هذه الدار دار تكليف وامتحان لادار جزاء لم يظهر فيها ذلك ، وأما البرزخ فأول دار الجزاء فظهر فيها من ذلك ما يليق بتلك الدار وتقتضى الحكمة إظهاره ، فإذا كان يوم القيامة الكبرى وفى أهل الطاعة وأهل المعصية ما يستحقونه من نعيم الأبدان والأرواح وعذابهما فعذاب البرزخ ونعيمه أول عذاب الآخرة ونعيمها وهو مشتق منه وواصل إلى أهل البرزخ هناك كما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة الصريحة فى غير موضع دلالة صريحة كقوله صلى الله عليه وآله وسلم فيفتح له باب إلى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها وفى الفاجر فيفتح له باب إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ومعلوم قطعاً ان البدن يأخذ حظه من هذا الباب كما تأخذ الروح حظها فإذا كان يوم القيامة دخل من ذلك الباب إلى مقعده الذى هو داخله وهذان البابان يصل منهما إلى العبد فى هذه الدار أثر خفى محجوب بالشواغل والغواشى الحسية والعوارض ولكن يحس به كثير من الناس وإن لم يعرف سببه ولايحسن التعبير عنه ، فوجود الشىء غير الاحساس به والتعبير عنه ، فإذا مات كان وصول ذلك الأثر إليه من ذينك البابين أكمل ، فإذا بعث كمل وصول ذلك الأثر إليه . لحكمة الرب تعالى منتظمة لذلك أكمل انتظام فى الدور الثلاث .

المسالة الثامنة

وهى قول السائل : ما الحكمة فى كون عذاب القبر لم يذكر فى القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى ؟ فالجواب من وجهين : مجمل ، ومفصل .

أما المجمل فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما وهما الكتاب والحكمة وقال تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) وقال تعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) وقال تعالى (واذكرن مايتلى فى بيوتكم من آيات الله والحكمة) .

والكتاب هو القرآن والحكمة هى السنة باتفاق السلف ، وما أخبر به الرسول عن الله فهو فى وجوب تصديقه والإيمان به كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله ، هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لاينكره إلا من ليس منهم وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنى أوتيت الكتاب ومثله معه .

وأما الجواب المفصل فهو أن نعيم البرزخ وعذابه مذكور فى القرآن فى غير موضع . فمنها قوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن اياته تستكبرون) وهذا خطاب لهم عند الموت وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون ولو تأخر عنهم ذلك الى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم اليوم تجزون .

(ومنها) قوله تعالى (فوقاه الله سيئات مامكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) فذكر عذاب الدارين ذكراً صريحاً لايحتمل غيره .

(ومنها) قوله تعالى (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئاً ولاهم ينصرون ، وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لايعلمون) وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره فى الدنيا وأن يراد به عذابهم فى البرزخ وهو أظهر لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب فى الدنيا ، وقد يقال وهو أظهر أن من مات منهم عذب فى البرزخ ومن بقى منهم عذب فى الدنيا بالقتل وغيره فهو وعيد بعذابهم فى الدنيا وفى البرزخ .

(ومنها) قوله تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون)

وقداحتج بهذه الآية جماعة منهم عبد الله بن عباس على عذاب القبر وفى الاحتجاج بها شيء لأن هذا عذاب فى الدنيا يستدعى به رجوعهم عن الكفر ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن لكن من فقهه فى القرآن ودقة فهمه فيه فهم منها عذاب القبر فانه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين أدنى وأكبر فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا فدل على أنه بقى لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا ولهذا قال من العذاب الأدنى ولم يقل ولنذيقنهم العذاب الأدنى فتأمله .

وهذا نظير قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فيفتح له طاقة إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ولم يقل فيأتيه حرها وسمومها فإن الذى وصل إليه بعض ذلك وبقى له أكثره والذى ذاقه أعداء الله فى الدنيا بعض العذاب وبقى لهم ماهو أعظم منه .

(ومنها) قوله تعالى (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم إن هذا لهو الحق اليقين فسبح باسم ربك العظيم) فذكر هاهنا أحكام الأرواح عند الموت وذكر فى أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية إذ هى أهم وأولى بالذكر وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام كما جعلهم فى الآخرة ثلاثة أقسام .

(ومنها) قوله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) وقد اختلف السلف متى يقال لها ذلك فقالت طائفة يقال لها عند الموت وظاهر اللفظ مع هؤلاء فانه خطاب للنفس التى قد تجردت عن البدن وخرجت منه وقد فسر ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله فى حديث البراء وغيره فيقال لها اخرجى راضية مرضياً عنك وسيأتى تمام تقرير هذا فى المسألة التى يذكر فيها مستقر الأرواح فى البرزخ إن شاء الله تعالى وقوله تعالى (فادخلى فى عبادى) مطابق لقوله صلى الله عليه وآله وسلم (اللهم الرفيق الأعلى) .

وأنت إذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلا وتفسيراً لما دل عليه القرآن وبالله التوفيق .

المسألة التاسعة

وهى قول السائل ما الأسباب التى يعذب بها أصحاب القبور

جوابها من وجهين : مجمل ومفصل : أما المجمل فانهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه فلا يعذب الله روحا عرفته وأحبته وامتثلت أمره واجتنبت نهيه ولا بدناً كانت فيه أبدا فان عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده فمن أغضب الله وأسخطه فى هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه فمستقل ومستكثر ومصدق ومكذب .

وأما الجواب المفصل : فقد أخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجلين الذين رآهما يعذبان فى قبورهما يمشى أحدهما بالنميمة بين الناس ويترك الآخر الاستبراء من البول فهذا ترك الطهارة الواجبة وذلك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه وإن كان صادقا وفى هذا تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة بالكذب والزور والبهتان أعظم عذابا كما أن فى ترك الاستبراء من البول تنبيها على أن من ترك الصلاة التى الاستبراء من البول بعض واجباتها وشروطها فهو أشد عذابا وفى حديث شعبة أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس فهذا مغتاب وذلك نمام وقد تقدم حديث ابن مسعود رضى الله عنه فى الذى ضرب سوطا امتلأ القبر عليه به نارا ، لكونه صلى صلاة واحدة بغير طهور ومر على مظلوم فلم ينصره .

وقد تقدم حديث سمرة فى صحيح البخارى فى تعذيب من يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق وتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به بالنهار . وتعذيب الزناة والزوانى وتعذيب آكل الربا كما شاهدهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى البرزخ .

وتقدم حديث أبى هريرة رضى الله عنه الذى فيه رضخ رءوس أقوام بالصخر لتثاقل رءوسهم عن الصلاة ، والذى يسرحون بين الضريع والزقوم لتركهم زكاة أموالهم ، والذين يأكلون اللحم المنتن الخبيث لزناهم ، والذين تقرض شفاههم بمقاريض من حديد لقيامهم فى الفتن بالكلام والخطب .

وتقدم حديث أبى سعيد وعقوبة أرباب تلك الجرائم فمنهم من بطونهم أمثال البيوت وهم على سابلة آل فرعون وهم أكلة الربا . ومنهم من تفتح أفواههم فيلقمون الجمر حتى يخرج من أسافلهم وهم أكلة أموال اليتامى ، ومنهم المعلقات بثديهن وهن الزوانى . ومنهم من تقطع جنوبهم ويطعمون لحومهم وهم المغتابون . ومنهم من لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم وهم الذين يغمصون أعراض الناس .

وقد أخبرنا النبي صلى الله عليـــه وآله وسلم عن صاحب الشملة التي غلها من المغنم أنها تشتعل عليه ناراً في قبره هذا وله فيها حق فكيف بمن ظلم غيره مالا حق له فيه . فعذاب القبر عن معاصي القلب والعين والأذن والفم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل والبدن كله فالنمام والكذاب والمغتاب وشاهد الزور وقاذف المحصن والموضع في الفتنة والداعي إلى البدعة والقائل على الله ورسوله مالا علم له به ، والمجازف في كلامه وآكل الرباوآكل أموال اليتامى وآكل السحت من الرشوة والبرطيل [1] ونحوهما وآكل مال أخيه المسلم بغير حق أو مال المعاهد وشارب المسكر وآكل لقمة الشجرة الملعونة والزاني واللوطي والسارق والخائن والغادر والمخادع والماكر وآخذ الربا ومعطيه وكاتبه وشاهداه والمحلل والمحلل له ، والمحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه ، ومؤذي المسلمين ومتتبع عوراتهم ، والحاكم بغير ما أنزل الله والمفتي بغير ماشرعه الله والمعين على الإثم والعدوان وقاتل النفس التي حرم الله والملحد في حرم الله والمعطل لحقائق أسماء الله وصفاته الملحد فيها والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والنائحة والمستمع إليها ونواحواجهم وهم المغنون الغناء الذي حرمه الله ورسوله والمستمع إليهم والذين يبنون المساجد على القبور ويوقدون عليها القناديل والسرج ، والمطففون في استيفاء مالهم إذا أخذوه وهضم ماعليهم إذابذلوه والجبارون والمتكبرون والمراؤون والهمازون واللمازون والطاعنون على السلف والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين فيسألونهم ويصدقونهم ، وأعوان الظلمة الذين قد باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم والذي إذا خوفته بالله وذكرته به لم يرعو ولم ينزجر فاذاخوفته بمخلوق مثله خاف وارعوى وكف عماهو فيه والذي يهدى بكلام الله ورسوله فلايهتدى ولا يرفع به رأساً فاذا بلغه عمن يحسن به الظن ممن يصيب ويخطىء عض عليه بالنواجذ ولم يخالفه والذي يقرأ عليه القرآن فلا يؤثر فيه وربما استثقل به فاذا سمع قرآن الشيطان ورقية الزنا ومادة النفاق طاب سره وتواجد وهاج من قلبه دواعي الطرب وودأن المغني لايسكت والذي يحلف بالله ويكذب فاذا حلف بالبندق أو برىء من شيخه أو قريبه أوسراويل الفتوة أو حياة من يحبه ويعظمه من المخلوقين لم يكذب ولو هدد وعوقب ، والذي يفتخر بالمعصية ويتكثر بها بين اخوانه وأضرابه وهو المجاهر ، والذي لاتأمنه على مالك وحرمتك ، والفاحش اللسان البذيء الذي تركه الخلق اتقاء شره وفحشه والذي يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها وينقرها ولا يذكر الله فيها إلا قليلا ولايؤدي زكاة ماله طيبة بها نفسه ولايحج مع قدرته على الحج ولا يؤدي ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها ولا يتورع من لحظة ولا لفظة ولا أكلة ولا

---

[1] البرطيل : الرشوة .

خطوة ولا يبالى بما حصل من المال من حلال أو حرام ولا يصل رحمه ولا يرحم المسكين ولا الأرملة ولا اليتيم ولا الحيوان البهيم بل يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ويرائى للعالمين ويمنع الماعون ويشتغل بعيوب الناس عن عيبه وبذنوبهم عن ذنبه ، فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون فى قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقلتها وصغيرها وكبيرها .

ولما كان أكثر الناس كذلك كان أكثر أصحاب القبور معذبين والفائز منهم قليل فظواهر القبور تراب وبواطنها حسرات وعذاب ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبنيات وفى باطنها الدواهى والبليات تغلى بالحسرات كما تغلى القدور بما فيها ويحق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيها تالله لقد وعظت فما تركت لواعظ مقالا ، ونادت ياعمار الدنيا لقد عمرتم دارا موشكة بكم زوالا ، وخربتم دارا أنتم مسرعون إليها انتقالا ، عمرتم بيوتا لغيركم منافعها وسكناها ، وخربتم بيوتا ليس لكم مساكن سواها هذه دار الاستباق ومستودع الاعمال وبذر الزرع وهذه محل للعبر رياض من رياض الجنة أوحفر من حفر النار .

المسألة العاشرة

الأسباب المنجية من عذاب القبر

جوابها أيضاً من وجهين : مجمل ومفصل :

أما المجمل فهو تجنب تلك الأسباب التى تقتضى عذاب القبر ومن انفعها ان يجاس الرجل عند مايريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ماخسره وربحه فى يومه ثم يجدد له توبة نصوحا بينه وبين الله فينام على تلك التوبة ويعزم على أن لايعاود الذنب إذا استيقظ ويفعل هذا كل ليلة فإن مات من ليلته مات على توبة وإن استيقظ استيقظ مستقبلا للعمل مسروراً بتأخير أجله حتى يستقبل ربه ويستدرك مافاته وليس للعبد انفع من هذه النومة ولا سيما إذا عقب ذلك بذكر الله واستعمال السنن التى وردت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند النوم حتى يغلبه النوم فمن أراد الله به خيراً وفقه لذلك ولاقوة إلا بالله .

وأما الجواب المفصل فنذكر أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما ينجى من عذاب القبر .

(فمنها) ماروواه مسلم فى صحيحه عن سلمان رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وان مات اجرى عليه عمله الذى كان يعمله واجرى عليه رزقه وأمن الفتان .

(وفى جامع الترمذى) من حديث فضالة بن عبيد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال كل ميت يختم على عمـــله إلا الذى مات مرابطا فى سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر ، قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

(وفى سنن النسائى)عن رشدين بن سعد عن رجل من اصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن رجلا قال يارسول الله ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد ؟ قال كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة .

(وعن المقدام بن معد يكرب) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للشهيد عند الله ست خصال يغفر له فى أول دفعة من دمه ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا ومافيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع فى سبعين من أقاربه . رواه ابن ماجه والترمذى وهذا لفظه وقال هذا حديث حسن صحيح .

(وعن ابن عباس رضى الله عنهما) قال ضرب رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فاذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فاتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال يارسول الله ضربت خبائى على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم هى المانعة هى المنجية تنجيه من عذاب القبر . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب .

(وروينا) فى مسند عبد بن حميد عن إبراهيم بن الحكم عن أبيـــه عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لرجل ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال الرجل بلى ؟ قال اقرأ (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) احفظها وعلمها أهلك وولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطلب له إلى ربها أن ينجيه من عذاب النار إذا كانت فى جوفه وينجى الله بها صاحبها من عـذاب القبر ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لودت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى .

(قال) أبو عمر بن عبـد البر وصح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال إن سورة ثلاثين آية شفعت فى صاحبها حتى غفر له (تبارك الذى بيده الملك) .

(وفى سنن ابن ماجه) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه يرفعه من مات مبطونا مات شهيدا ووقى فتنة القبر وغدى وريح عليه برزق من الجنة .

(وفى سنن النسائى)* عن جامع بن شداد قال سمعت عبد الله بن يشكر يقول كنت جالسا مع سليمان بن صرد وخالد بن عرفطة فذكروا أن رجلا مات ببطنه فإذا هما يشتهيان أن

يكونا شهدا جنازته فقال أحدهما للآخر ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قتله بطنه لم يعذب فى قبره ؟ .

(وقال) أبو داود الطيالسى فى مسنده حدثنا شعبة حدثنى أحمد بن جامع بن شداد قال أبى ، فذكره وزاد فقال الآخر بلى .

(وفى الترمذى) من حديث ربيعة بن سيف عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر ، قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وليس إسناده بمتصل . ربيعة بن سيف إنما يروى عن أبى عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو ولا يعرف لربيعة بن سيف سماع من عبد الله ابن عمرو . انتهى .

وقد روى الترمذى الحكيم من حديث ربيعة بن سيف هذا عن عياض بن عقبة الفهرى عن عبد الله بن عمرو .

وقد رواه أبو نعيم الحافظ عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعا ولفظه من مات ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أجير من عذاب القبر وجاء يوم القيامة وعليه طابع الشهداء . تفرد به عمر بن موسى الوجيهى وهو مدنى ضعيف .

(وقوله) صلى الله عليه وآله وسلم كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة . معناه والله أعلم قد امتحن نفاقه من إيمانه ببارقة السيف على رأسه فلم يفر فلو كان منافقا لما صبر ببارقة السيف على رأسه فدل على أن إيمانه هو الذى حمله على بذل نفسه لله وتسليمها له وهاج من قلبه حمية الغضب لله ورسوله واظهار دينه وإعزاز كلمته فهذا قد أظهر صدق مافى ضميره حيث برز للقتل فاستغنى بذلك عن الامتحان فى قبره .

(قال) أبو عبد الله القرطبى إذا كان الشهيد لايفتن فالصديق أجل خطراً وأعظم أجراً أن لايفتن لأنه مقدم ذكره فى التنزيل على الشهداء وقد صح فى المرابط الذى هو دون الشهيد أنه لايفتن فكيف بمن هو أعلى رتبة منه ومن الشهيد .

والأحاديث الصحيحة ترد هذا القول وتبين أن الصديق يسأل فى قبره كما يسأل غيره وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأس الصديقين وقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما أخبره عن سؤال الملك فى قبره فقال وأنا على مثل حالتى هذه ؟ فقال نعم وذكر الحديث .

وقد اختلف فى الأنبياء هل يسألون فى قبورهم على قولين وهما وجهان فى مذهب أحمد

وغيره ولايلزم من هذه الخاصية التى اختص بها الشهيد أن يشاركه الصديق فى حكمها وإن كان أعلى منه فخواص الشهداء قد تنتفى عمن هو أفضل منهم وإن كان أعلى منهم درجة .

وأما حديث ابن ماجه « من مات مريضاً مات شهيداً ووقى فتنـــة القبر » فمن إفراد ابن ماجه وفى إفراده غرائب ومنكرات ومثل هذا الحديث مما يتوقف فيه ولايشهد به على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فان صح فهو مقيد بالحديث الآخر وهو الذى يقتله بطنه فان صح عنه أنه قال المبطون شهيد فيحمل هذا المطلق على ذلك المقيد . والله أعلم .

(وقد جاء) فيما ينجى من عذاب القبر حديث فيه الشفاء رواه أبو موسى المدينى وبين علته فى كتابه فى الترغيب والترهيب وجعله شرحا له . رواه من حديث الفرج بن فضالة حدثنا هلال أبو جبلة عن سعيد بن المسيب عن عبدالرحمن بن سمرة قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن فى صفة بالمدينة فقام علينا فقال إنى رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمتى أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد ملك الموت عنه ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله فطير الشياطين عنه . ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشا كلما دنا من حوض منع وطرد فجاءه صيام شهر رمضان فاسقاه وأرواه ، ورأيت رجلا من أمتى ورأيت النبيين جلوسا حلقاً حلقاً كلما دنا إلى حلقة طرد ومنع فجـــاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى ، ورأيت رجلا من أمتى من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة وهو متحير فيه فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه فى النور ، ورأيت رجلا من أمتى يتقى وهج النار وشررها فجاءته صدقته فصارت ستراً بينه وبين النار وظلا على رأسه ، ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين ولا يكلمونه فجاءته صلته لرحمه فقالت يامعشر المؤمنين انه كان وصولا لرحمه فكلموه فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم ، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الزبانية فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله فى ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل ، ورأيت رجلا من أمتى قد ذهبت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فوضعها فى يمينه ، ورأيت رجلا من أمتى خف ميزانه فجاءه أفراطه[1] فثقلوا ميزانه ، ورأيت رجلا من أمتى قائماً على شفير جهنم فجاءه رجاؤه من الله عز وجل فاستنقذه من ذلك ومضى ورأيت رجلا من أمتى قد هوى

---

[1] جمع فرط . والمراد بهم أولاده الذين ماتوا صغاراً .

فى النار فجاءته دمعته التى قد بكى من خشية الله عز وجل فاستنقذته من ذلك ، ورأيت رجلا من أمتى قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة فى ريح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكن روعه[1] ومضى ، ورأيت رجلا من أمتى يزحف على الصراط يحبو أحياناً ويتعلق أحياناً فجاءته صلاته فأقامته على قدميه وأنقذته ، ورأيت رجلا من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة . قال الحافظ أبو موسى هذا حديث حسن جداً رواه عن سعيد بن المسيب وعمر بن ذر وعلى ابن زيد بن جدعان .

ونحو هذا الحديث مما قيل فيه أن رؤيا الأنبياء وحى فهو على ظاهرها لا كنحو ماروى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال رأيت كأن سيفى انقطع فأولته كذا وكذا . ورأيت بقرا تنحر . ورأيت كأنا فى دار عقبة بن رافع .

وقد روى فى رؤياه الطويلة من حديث سمرة فى الصحيح ومن حديث على وأبى أمامة وروايات هؤلاء الثلاثة قريب بعضها من بعض مشتملة على ذكر عقوبات جماعة من المعذبين فى البرزخ فأما فى هذه الرواية فذكر العقوبة وأنبعها بما ينجى صاحبها من العمل وراوى هذا الحديث عن ابن المسيب هلال أبو جبلة مدنى لا يعرف بغير هذا الحديث ذكره ابن أبى حاتم عن أبيه هكذا ذكره الحاكم أبو أحمد والحاكم أبو عبد الله أبو جبل بلا هاء وحكياه عن مسلم ورواه عنه الفرج بن فضالة وهو وسط فى الرواية ليس بالقوى ولا المتروك ورواه عنه بشر ابن الوليد الفقيه المعروف بأبى الخطيب كان حسن المذهب جميـــل الطريقة وسمعت شيخ الإسلام يعظم أمر هذا الحديث ويقال أصول السنة تشهد له وهو من أحسن الأحاديث .

المسألة الحادية عشر

وهى أن السؤال فى القبر هل هو عام فى حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم والمنافق ؟

قال أبو عمر بن عبد البر فى (كتاب التمهيد) والآثار الدالة تدل على أن الفتنة فى القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق كان منسوباً إلى أهل القبلة ودين الإسلام بظاهر الشهادة ، وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه وإنما يسأل عن هذا أهل الإسلام فيثبت الله الذين آمنوا ويرتاب المبطلون .

---

[1] ن . رعدته .

والقرآن والسنة تدل على خلاف هذا القول وأن السؤال للكافر والمسلم ، قال الله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) وقد ثبت فى الصحيح أنها نزلت فى عذاب القبر حين يسأل من ربك وما دينك ومن نبيك .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه انه ليسمع قرع نعالهم ، وذكر الحديث . زاد البخارى وأما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس فيقال لا دريت ولا تليت ويضرب بمطرقة من حديد يصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين هكذا فى البخارى وأما المنافق والكافر بالواو وقد تقدم فى حديث أبى سعيد الخدرى الذى رواه ابن ماجه والإمام أحمد ، كنا فى جنازة مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها فاذا الإنسان دفن وتولى عنه أصحابه جاء ملك وفى يده مطراق فأقعده فقال ماتقول فى هذا الرجل ؟ فإن كان مؤمناً قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول له صدقت فيفتح له باب إلى النار فيقول هذا منزلك لو كفرت بربك وأما الكافر والمنافق فيقول له ماتقول فى هذا الرجل ؟ فيقول لا أدرى فيقال لا دريت ولا اهتديت ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقول له هذا منزلك لو آمنت بربك فأما إذ كفرت فان الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى النار ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعه خلق الله إلا الثقلين ، فقال بعض الصحابة يارسول الله ما أحد يقوم على رأسه ملك إلا هيل عند ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) .

(وفى حديث) البراء بن عازب الطويل . وأما الكافر إذا كان فى قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزل عليه الملائكة من السماء معهم مسوح . وذكر الحديث إلى أن قال ، ثم تعاد روحه فى جسده فى قبره ، وذكر الحديث ، وفى لفظ فاذا كان كافر جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه فذكر الحديث إلى قوله : ماهذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بأسوأ أسمائه فاذا انتهى به إلى سماء الدنيا أغلقت دونه قال يرمى به من السماء ثم قرأ قوله تعالى : (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) قال فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فيجلسانه وينتهرانه فيقولان من ربك ؟ فيقول هاه لا أدرى فيقولان لا دريت ، فيقولان ماهذا النبى الذى بعث فيكم ؟ فيقول سمعت

الناس يقولون ذلك لاأدرى . فيقولان له لادريت وذلك قوله تعالى (ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء) وذكر الحديث .

واسم الفاجر فى عرف القرآن والسنة يتناول الكافر قطعاً كقوله تعالى (إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم) وقوله تعالى (كلا إن كتاب الفجار لفى سجين) وفى لفظ آخر فى حديث البراء وإن الكافر إذا كان فى قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزل اليه ملائكة شداد غضاب معهم ثياب من نار وسرابيل من قطران فيحتوشونه فتنزع روحه كما ينزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل فاذا أخرجت لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء .

وذكر الحديث إلى أن قال انه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين فيقال ياهذا من ربك ؟ ومادينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول لا أدرى فيقال لادريت . وذكر الحديث رواه حماد بن سلمة عن يونس بن خباب عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء .

وفى حديث عيسى بن المسيب عن عدى بن ثابت عن البراء خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى جنازة رجل من الأنصار . وذكر الحديث إلى أن قال وإن الكافر إذا كان فى دبر من الدنيا وقبل من الآخرة وحضره الموت نزلت عليه ملائكة معهم كفن من نار وحنوط من نار . فذكر الحديث إلى أن قال فترد روحه إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما ، أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيجلسانه ثم يقولان ياهذا من ربك ؟ فيقول لاأدرى فينادى من جانب القبر لادريت فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تقل ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه . وذكر الحديث .

ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى النضر هاشم بن القاسم حدثنا عيسى بن المسيب فذكره .

(وفى حديث) محمد بن سلمة عن خصيف عن مجاهد عن البراء قال كنا فى جنازة رجل من الأنصار ومعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر الحديث إلى أن قال وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإذا وضع الكافر أتاه منكر ونكير فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول لاأدرى فيقولان له لادريت . الحديث وقد تقدم .

وبالجملة فعامة من روى حديث البراء بن عازب قال فيه وأما الكافر بالجزم وبعضهم قال وأما الفاجر وبعضهم قال وأما المنافق والمرتاب وهذه اللفظة من شك بعض الرواة هكذا فى الحديث لاأدرى أى ذلك قال .

وأما من ذكر الكافر والفاجر فلم يشك ورواية من لم يشك مع كثرتهم أولى من رواية من شك مع انفراده على أنه لا تناقض بين الروايتين فان المنافق يسأل كما يسأل الكافر والمؤمن فيثبت الله أهل الإيمان ويضل الله الظالمين وهم الكفار والمنافقون .

(وقد جمع) أبو سعيد الخدرى فى حديثه الذى رواه أبو عامر العقدى حدثنا عباد بن راشد عن داود بن أبى هند عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جنازة . فذكر الحديث وقال وإن كان كافراً أو منافقاً يقول له ماتقول فى هذا الرجل؟ فيقول لا أدرى وهذا صريح فى أن السؤال للكافر والمنافق ، وقول أبى عمر رحمه الله وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ، فيقال له ليس كذلك بل هو من جملة المسئولين وأولى بالسؤال من غيره .

وقد أخبر الله فى كتابه أنه يسأل الكافر يوم القيامة قال تعالى (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) وقال تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقال تعالى (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) فإذا سئلوا يوم القيامة فكيف لا يسألون فى قبورهم فليس لما ذكره أبو عمر رحمه الله وجه .

المسألة الثانية عشرة

وهى أن سؤال منكر ونكير هل هو مختص بهذه الأمة أو يكون لها ولغيرها

هذا موضع تكلم فيه الناس فقال أبو عبد الله الترمذى[1] إنما سؤال الميت فى هذه الأمة خاصة لأن الأمم قبلنا كانت الرسل تأتيهم بالرسالة فاذا أبوا كفت الرسل واعتزلوهم وعولجو بالعذاب فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالرحمة إماماً للخلق كما قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) أمسك عنهم العذاب وأعطى السيف حتى يدخل فى دين الإسلام من دخل لمهابة السيف ثم يرسخ الإيمان فى قلبه فأمهلوا فمن هاهنا ظهر أمر النفاق وكانوا يسرون الكفر ويعلنون الإيمان فكانوا بين المسلمين فى ستر فلما ماتوا قبض الله لهم فتانى القبر ليستخرجا سرهم بالسؤال (وليميز الله الخبيث من الطيب فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء) .

وخالف فى ذلك آخرون منهم عبد الحق الأشبيلى والقرطبى وقالوا السؤال لهذه الأمة ولغيرها .

---

(١) كذا . ولعله الحميدى .

وتوقف فى ذلك آخرون منهم أبو عمر بن عبد البر فقال وفى حديث زيد بن ثابت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها ومنهم من يرويه تسأل ، وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة خصت بذلك فهذا أمر لايقطع عليه .

وقد احتج من خصه بهذه الأمة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها ، وبقوله أوحى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم وهذا ظاهر فى الاختصاص بهذه الأمة قالوا ويدل عليه قول الملكين له ما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول المؤمن أشهد أنه عبد الله ورسوله فهذا خاص بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم . وقوله فى الحديث الآخر إنكم بى تمتحنون وعنى تسألون .

وقال آخرون لايدل هذا على اختصاص السؤال بهذه الأمة دون سائر الأمم فان قوله ان هذه الأمة اما أن يراد به أمة الناس كما قال تعالى (ومامن دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) وكل جنس من أجناس الحيوان يسمى أمة ، وفى الحديث لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها وفيه أيضاً حديث النبى الذى قرصته نملة فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله اليه من أجل أن قرصتك نملة واحدة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله . وإن كان المراد به أمته صلى الله عليه وآله وسلم الذى بعث فيهم لم يكن فيه ماينفى سؤال غيرهم من الأمم . بل قد يكون ذكرهم اخباراً بأنهم مسئولون فى قبورهم وأن ذلك لايختص بمن قبلهم لفضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم .

وكذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم أوحى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم .

وكذلك اخباره عن قول الملكين ماهذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ هو اخبار لأمته بما تمتحن به فى قبورها والظاهر والله أعلم أن كل نبى مع أمته كذلك وأنهم معذبون فى قبورهم بعد السؤال لهم وإقامة الحجة عليهم كما يعذبون فى الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة . والله سبحانه وتعالى أعلم .

المسألة الثالثة عشرة

وهى أن الأطفال هل يمتحنون فى قبورهم ؟

اختلف الناس فى ذلك على قولين : هما وجهان لأصحاب أحمد .

وحجة من قال أنهم يسألون أنه يشرع الصلاة عليهم والدعاء لهم وسؤال الله أن يقيهم عذاب القبر وفتنة القبر (كما ذكر) مالك فى موطئه عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وآله وسلم صلى على جنازة صبى فسمع من دعائه : اللهم قه عذاب القبر .

(واحتجوا) بما رواه على بن معبد عن عائشة رضى الله عنها أنه مر عليها بجنازة صبى صغير فبكت فقيل لها ما يبكيك يا أم المؤمنين ؟ فقالت هذا الصبى بكيت له شفقة عليه من ضمة القبر .

(واحتجوا) بما رواه هناد بن السرى حدثنا أبو معاوية عن يحيى بن سعيد عن سعيد ابن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال إنه كان ليصلى على المنفوس وما ان عمل خطيئة قط فيقول اللهم أجره من عذاب القبر .

قالوا والله سبحانه يكمل لهم عقولهم ليعرفوا بذلك منزلتهم ويلهمون الجواب عما يسألون عنه .

قالوا وقد دل على ذلك الأحاديث الكثيرة التى فيها أنهم يمتحنون فى الآخرة وحكاه الأشعرى عن أهل السنة والحديث فإذا امتحنوا فى الآخرة لم يمتنع امتحانهم فى القبور .

(قال الآخرون) السؤال إنما يكون لمن عقل الرسول والمرسل فيسأل هل آمن بالرسول وأطاعه أم لا ؟ فيقال له ما كنت تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فأما الطفل الذى لا تمييز له بوجه ما فكيف يقال له ماكنت تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ! ولو رد إليه عقله فى القبر فانه لا يسأل عما لم يتمكن من معرفته والعلم به ولافائدة فى هذا السؤال وهذا بخلاف امتحانهم فى الآخرة فان الله سبحانه يرسل اليهم رسولا ويأمرهم بطاعة أمره وعقولهم معهم فمن أطاعه منهم نجا ومن عصاه أدخله النار فذلك امتحان بأمر يأمرهم به يفعلونه ذلك الوقت لا أنه سؤال عن أمر مضى لهم فى الدنيا من طاعة أو عصيان كسؤال الملكين فى القبر .

وأما حديث أبى هريرة رضى الله عنه فليس المراد بعذاب القبر فيه عقوبة الطفل على ترك طاعة أو فعل معصية قطعاً فان الله لا يعذب أحداً بلا ذنب عمله ، بل عذاب القبر قد يراد به الألم الذى يحصل الميت بسبب غيره وإن لم يكن عقوبة على عمل عمله . ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه . أى يتألم بذلك ويتوجع منه لا أنه يعاقب بذنب الحى (ولاتزر وازرة وزر أخرى) .

وهذا كقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم السفر قطعة من العذاب . فالعذاب أعم من العقوبة . ولا ريب أن فى القبر من الآلام والهموم والحسرات ما قد يسرى أثره إلى الطفل فيتألم به فيشرع للمصلى عليه أن يسأل الله تعالى له أن يقيه ذلك العذاب . والله أعلم .

المسألة الرابعـــة عشرة

وهى قوله هل عذاب القبر دائم أو منقطع ؟

جوابها أنه نوعان (نوع دائم) سوى ماورد فى بعض الأحاديث أنه يخفف عنهم مابين النفختين فإذا قاموا من قبورهم قالوا (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هـذا) ويدل على دوامه قوله تعالى : (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً) ويدل عليه أيضاً ما تقدم فى حديث سمرة الذى رواه البخارى فى رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم وفيه فهو يفعل به ذلك إلى يوم القيامة .

وفى حديث ابن عباس فى قصة الجريدتين لعله يخفف عنهما مالم تيبسا ، فجعل التخفيف مقيداً برطوبتهما فقط .

وفى حديث الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى هريرة ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر كلما رضخت عادت لايفتر عنهم من ذلك شىء ، وقد تقدم وفى الصحيح فى قصة الذى لبس بردين وجعل يمشى يتبختر فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

وفى حديث البراء بن عازب فى قصة الكافر ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة . رواه الإمام أحمد وفى بعض طرقه ثم يخرق له خرقاً إلى النار فيأتيه من غمها ودخانها إلى يوم القيامة .

(النوع الثانى) إلى مدة ثم ينقطع وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه ثم يخفف عنه كما يعذب فى النار مدة ثم يزول عنه العذاب .

وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب حج أو قراءة تصل إليه من بعض أقاربه أو غيرهم وهذا كما يشفع الشافع فى المعذب فى الدنيا فيخلص من العذاب بشفاعته لكن هذه شفاعة قد لاتكون باذن المشفوع عنده والله سبحانه وتعالى لايتقدم أحد بالشفاعة بين يديه إلا من بعد إذنه فهو الذى يأذن للشافع أن يشفع إذا أراد أن يرحم المشفوع له ، ولا تغتر بغير هذا فإنه شرك وباطل يتعالى الله عنه (من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه — ولايشفعون إلا لمن ارتضى — مامن شفيع إلا من بعد إذنه ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له — قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض) .

(وقد ذكر) ابن أبى الدنيا حدثنى محمد بن موسى الصائغ حدثنا عبد الله بن نافع قال مات رجل من أهل المدينة فرآه رجل كأنه من أهل النار فاغتم لذلك ثم أنه بعد ساعة أو

ثانية رآه كأنه من أهل الجنة فقال ألم تكن قلت انك من أهل النار ، قال قد كان ذلك إلا أنه دفن معنا رجل من الصالحين فشفع فى أربعين من جيرانه فكنت أنا منهم .

(قال) ابن أبى الدنيا وحدثنا أحمد بن يحيى قال حدثنى بعض أصحابنا قال مات أخى فرأيته فى النوم فقلت ما كان حالك حين وضعت فى قبرك ؟ قال أتانى آت بشهاب من نار فلولا أن داعياً دعانى لرأيت أنه سيضربنى به .

(وقال) عمرو بن جرير إذا دعا العبد لأخيه الميت أتاه بها ملك إلى قبره فقال ياصاحب القبر الغريب هدية من أخ عليك شفيق .

(وقال) بشار بن غالب رأيت رابعة فى منامى وكنت كثير الدعاء لها فقالت لى يابشار بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير قلت كيف ذلك ، قالت هكذا دعاء المؤمنين الاحياء إذا دعوا للموتى استجيب لهم وجعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخمر بمناديل الحرير ثم أتى بها الذى دعى له من الموتى فقيل هذه هدية فلان إليك .

(قال) ابن أبى الدنيا وحدثنى أبو عبيد بن بحير قال حدثنى بعض أصحابنا قال رأيت أخا لى فى النوم بعد موته فقلت أيصل إليكم دعاء الاحياء قال أى والله يترفرف مثل النور ثم يلبسه .

وسيأتى إن شاء الله تعالى تمام لهذه فى جواب السؤال عن انتفاع الاموات بما تهديه إليهم الاحياء .

المسألة الخامسة عشرة

وهى أين مستقر الارواح ما بين الموت إلى يوم القيامة هل هى فى السماء أم فى الارض ؟ وهل هى فى الجنة أم لا ؟ وهل تودع فى أجساد غير أجسادها التى كانت فيها فتنعم وتعذب فيها أم تكون مجردة ؟

هذه مسألة عظيمة تكلم فيها الناس واختلفوا فيها وهى إنما تتلقى من السمع فقط واختلف فى ذلك فقال قائلون أرواح المؤمنين عند الله فى الجنة شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولادين وتلقاهم ربهم بالعفو عنهم والرحمة لهم ، وهـــذا مذهب أبى هريرة وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم .

وقالت طائفة هم بفناء الجنة على بابها يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها .

وقالت طائفة الارواح على أفنية قبورها .

وقال مالك بلغنى أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت .

(وقال) الإمام أحمد فى رواية ابنه عبد الله أرواح الكفار فى النار وأرواح المؤمنين فى الجنة .

(وقال) أبو عبد الله بن منده وقال طائفة من الصحابة والتابعين أرواح المؤمنين عند الله عز وجل ولم يزيدوا على ذلك ، قال روى عن جماعة من الصحابة والتابعين أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار ببرهوت بئر بحضرموت .

وقال صفوان بن عمرو سألت عامر بن عبد الله أبا اليمان هل لأنفس المؤمنين مجتمع ؟ فقال إن الأرض التى يقول الله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) قال هى الأرض التى يجتمع إليها أرواح المؤمنين حتى يكون البعث وقالوا هى الأرض التى يورثها الله المؤمنين فى الدنيا وقال كعب أرواح المؤمنين فى عليين فى السماء السابعة ، وأرواح الكفار فى سجين فى الأرض السابعة تحت جند إبليس .

وقالت طائفة أرواح المؤمنين ببئر زمزم وأرواح الكفار ببئر برهوت .

وقال سلمان الفارسى أرواح المؤمنين فى برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت وأرواح الكفار فى سجين . وفى لفظ عنه نسمة المؤمن تذهب فى الأرض حيث شاءت .

وقالت طائفة أرواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكفار عن شماله .

وقالت طائفة أخرى منهم ابن حزم مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها .

وقال والذى نقول به فى مستقر الأرواح هو ماقاله الله عز وجل ونبيه صلى الله عليه وآله وسلم لانتعداه فهو البرهان الواضح وهو أن الله عز وجل قال (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) وقال تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فصح أن الله تعالى خلق الأرواح جملة وكذلك أخبر صلى الله عليه وآله وسلم أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . وأخذ الله عهدها وشهادتها له بالربوبية وهى مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم وقبل أن يدخلها فى الأجساد والأجساد يومئذ تراب وماء ثم أقرها حيث شاء وهو البرزخ الذى ترجع إليه عند الموت ثم لايزال يبعث منها الجملة بعد الجملة فينفخها فى الأجساد المتولدة من المنى . إلى أن قال فصح أن الأرواح أجساد حاملة لأغراضها من التعارف والتناكر وأنها عارفة مميزة فيبلوهم الله فى الدنيا كما يشاء ثم يتوفاها فيرجع إلى

البرزخ الذى رآها فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أسرى به عند سماء الدنيا أرواح أهل السعادة عن يمين آدم وأرواح أهل الشقاوة عن يساره وذلك عند منقطع العناصر ويعجل أرواح الأنبياء والشهداء إلى الجنة .

قال وقد ذكر محمد بن نصر المروزى عن اسحاق بن راهويه أنه ذكر هذا الذى قلنا بعينه . قال وعلى هذا أجمع أهل العلم .

قال ابن حزم وهو قول جميع أهل الإسلام قال وهذا هو قول الله تعالى (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ، والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين) وقوله تعالى (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم) إلى آخرها فلا تزال الأرواح هنالك حتى يتم عـــدد الأرواح كلها بنفخها فى الأجساد ثم برجوعها إلى البرزخ فتقوم الساعة ويعيد الله عز وجل الأرواح إلى أجسادها ثانية وهى الحياة الثانية يحاسب الخلق فريق فى الجنة وفريق فى السعير مخلدين أبدا . انتهى .

وقال أبو عمر بن عبد البر أرواح الشهداء فى الجنة وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم ونحن نذكر كلامه وما احتج به ونبين ما فيه .

(وقال) ابن المبارك عن ابن جريج فيما قرىء عليه عن مجاهد ليس هى فى الجنة ولكن يأكلون من ثمارها ويجدون ريحها .

وذكر معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد أنه سأل ابن شهاب عن أرواح المؤمنين فقال بلغنى أن أرواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش تغدو وتروح إلى رياض الجنة تأتى ربها فى كل يوم تسلم عليه .

(وقال) أبو عمر بن عبد البر فى شرح حديث ابن عمر أن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله إلى يوم القيامة قال وقد استدل به من ذهب إلى أن الأرواح على أفنية القبور ، وهو أصح ما ذهب اليه فى ذلك والله أعلم لأن الأحاديث بذلك أحسن مجيئاً وأثبت نقلا من غيرها .

قال والمعنى عندى أنها قد تكون على أفنية قبورها لا على أنها تلزم ولا تفارق أفنيـــة القبور كما قال مالك رحمه الله أنه بلغنا أن الأرواح تسرح حيث شاءت .

قال وعن مجاهد أنه قال الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام من يوم دفن الميت لا تفارق ذلك . والله أعلم .

وقالت فرقة مستقرها العدم المحض وهذا قول من يقول ان النفس عرض من أعراض البدن كحياته وإدراكه فتعدم بموت البدن كما تعدم سائر الأعراض المشروطة بحياته . وهذا قول مخالف لنصوص القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين كما سنذكر ذلك إن شاء الله . والمقصود أن عند هذه الفرقة المبطلة ان مستقر الأرواح بعد الموت العدم المحض .

وقالت فرقة مستقرها بعد الموت أرواح أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التى اكتسبتها فى حال حياتها فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الأرواح فتصير النفس السبعية إلى أبدان السباع والكلبية إلى أبدان الكلاب والبهيمية إلى أبدان البهائم والدنية والسفلية إلى أبدان الحشرات ، وهذا قول المتناسخة منكرى المعاد ، وهو قول خارج عن أقوال أهل الإسلام كلهم .

فهذا ما تلخص لى من جمع أقوال الناس فى مصير أرواحهم بعد الموت ولا تظفر به مجموعا فى كتاب واحد غير هذا البتة ونحن نذكر مأخذ هذه الأقوال ومالكل قول وماعليه وما هو الصواب من ذلك الذى دل عليه الكتاب والسنة على طريقتنا التى من الله بها وهو مرجو الإعانة والتوفيق .

فصـــل

فأما من قال هى فى الجنة فاحتج بقوله تعالى (فاما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم) قال وهذا ذكره سبحانه عقيب ذكر خروجها من البدن بالموت وقسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام (مقربين) وأخبر أنها فى جنة النعيم (وأصحاب يمين) حكم لها بالإسلام وهو يتضمن سلامتها من العذاب (ومكذبة ضالة) وأخبر أن لها نزلا من حميم وتصلية جحيم . قالوا وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعا ، وقد ذكر سبحانه حالها يوم القيامة فى أول السورة فذكر حالها بعد الموت وبعد البعث واحتجوا بقوله تعالى (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) وقد قال غير واحد من الصحابة والتابعين ان هذا يقال لها عند خروجها من الدنيا يبشرها الملك بذلك ولا ينافى ذلك قول من قال ان هذا يقال لها فى الآخرة فانه يقال لها عند الموت وعند البعث وهذه من البشرى التى قال تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) وهذا التنزل يكون عند الموت ويكون فى القبر ويكون عند البعث وأول بشارة الآخرة عند الموت .

وقد تقدم فى حديث البراء بن عازب أن الملك يقول لها عند قبضها أبشرى بروح وريحان وهذا من ريحان الجنة .

واحتجوا بما رواه مالك فى الموطأ عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك انه أخبره أن أباه كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال إنما نسمة المؤمن طائر تعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه . قال أبو عمر وفى رواية مالك هذه بيان سماع الزهرى لهذا الحديث من عبد الرحمن بن كعب بن مالك وكذلك رواه يونس عن الزهرى قال سمعت عبد الرحمن بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه ، وكذلك رواه الأوزاعى عن الزهرى حدثنى عبد الرحمن بن كعب وقد أعل محمد بن يحيى الذهلى هذا الحديث بأن شعيب بن أبى حمزة ومحمد بن أخى الزهرى وصالح بن كيسان رووه عن الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن جده كعب فيكون منقطعا ، وقال صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن عبد الرحمن انه بلغه أن كعبا بن مالك كان يحدث ، قال الذهلى وهذا المحفوظ عندنا وهو الذى يشبهه حديث صالح وشعيب وابن أخى الزهرى وخالفه فى هذا غيره من الحفاظ فحكموا لمالك والأوزاعى ، قال أبو عمر فاتفق مالك ويونس بن يزيد والأوزاعى والحارث بن فضيل على رواية هذا الحديث عن الزهرى عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك عن أبيه وصححه الترمذى وغيره .

(قال) أبو عمرو لا وجه عندى لما قاله محمد بن يحيى من ذلك ولا دليل عليه واتفاق مالك ويونس بن زيد والأوزاعى ومحمد بن إسحاق أولى بالصواب والنفس إلى قولهم وروايتهم أسكن وهم من الحفظ والاتقان بحيث لا يقاس بهم من خالفهم فى هذا الحديث . انتهى . وقد قال محمد الذهلى سمعت على بن المدينى يقول ولد كعب خمسة : عبد الله ، وعبيد الله ، ومعبد ، وعبد الرحمن ، ومحمد . قال الذهلى فسمع الزهرى من عبد الله بن كعب وكان قائد أبيه حين عمى وسمع من عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب وروى عن بشير بن عبد الرحمن بن كعب ولا أراه سمع منه انتهى فالحديث ان كان لعبد الرحمن عن أبيه كعب كما قال مالك ومن معه فظاهر وإن كان لعبد الرحمن بن عبد الله بن كعب عن جده كما قال شعيب ومن معه فنهايته أن يكون مرسلا من هذا الطريق وموصولا من الأخرى والذين وصلوه ليسوا بدون الذين أرسلوه قدرا ولا عددا فالحديث من صحاح الأحاديث وإنما لم يخرجه صاحبا الصحيح لهذه العلة . والله أعلم .

(قال) أبو عمرو أما قوله نسمة المؤمن « فالنسمة هاهنا الروح يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى الحديث نفسه » حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه ، وقيل النسمة الروح والنفس والبدن وأصل هذه اللفظة اعنى النسمة الانسان بعينه وإنما قيل للروح نسمة والله أعلم لان حياة الانسان بروحه وإذا فارقه عدم أو صار كالمعدوم والدليل على أن النسمة الانسان قوله صلى الله عليه وآله وسلم « من أعتق نسمه مؤمنة » وقول على رضى الله عنه ، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، وقال الشاعر :

فأعظم منك تقى فى الحساب ... إذا النسمات نفضن الغبارا

يعنى إذا بعث الناس من قبورهم يوم القيامة وقال الخليل بن أحمد النسمة الإنسان قال والنسمة الروح والنسيم هبوب الريح ، وقوله تعالى فى شجر الجنة يروى بفتح اللام وهو الأكثر ويروى بضم اللام والمعنى واحد وهو الأكل والرعى يقول تأكل من ثمار الجنة وتسرح بين أشجارها والعلوقة والعلوق الأكل والرعى تقول العرب ماذاق اليوم علوقا أى طعاما قال الربيع بن زياد يصف الخيل :

وجنبات ما يذقن علوقة يمصعن بالمهرات والأمهار

وقال الأعشى :

وفلاة كأنها ظهر ترس ليس فيها إلا الرجيع علاق

قلت ومنه قول عائشة والنساء إذ ذاك خفاف لم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام وأصل اللفظة من التعلق وهو ما يعلق القلب والنفس من الغذاء .

قال واختلف العلماء فى معنى هذا الحديث فقال قائلون منهم أرواح المؤمنين عند الله فى الجنة شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين وتلقاهم ربهم بالعفو عنهم والرحمة لهم .

قال واحتجوا بأن هذا الحديث لم يخص فيه شهيداً من غير شهيد .

واحتجوا أيضاً بما روى عن أبى هريرة أن أرواح الأبرار فى عليين وأرواح الفجار فى سجين وعن عبد الله بن عمرو مثل ذلك ، قال أبو عمر وهذا قول يعارضه من السنة ما لا مدفع فى صحة نقله وهو قوله إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة .

وقال آخرون إنما معنى هذا الحديث فى الشهداء دون غيرهم لأن القرآن والسنة إنما يدلان على ذلك . أما القرآن فقوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله) الآية .

واما الآثار فذكر حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه من طريق بقى بن مخلد[1] مرفوعاً الشهداء يغدون ويروحون ثم يكون مأواهم إلى قناديل معلقة بالعرش فيقول لهم الرب تبارك وتعالى هل تعلمون كرامة أفضل من كرامة أكرمتكموها ؟ فيقولون لا . غير

---

[1] بقى بن مخلد بوزن رضى حافظ الأندلس .

أنا وددنا أنك أعدت أرواحنا فى أجسادنا حتى نقاتل مرة أخرى فنقتل فى سبيلك . رواه عن هناد عن اسماعيل بن المختار عن عطية عنه .

(ثم ساق حديث) ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أصيب إخوانكم يعنى يوم أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب مدلاة فى ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ إخواننا أنا أحياء فى الجنة نرزق لئلا ينكلوا عن الحرب [1] ولا يزهدوا فى الجهاد ؟ قال فقال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) والحديث فى مسند أحمد وسنن أبى داود .

(ثم ذكر حديث) الأعمش عن عبدالله بن مرة عن مسروق قال سأل عندالله بن مسود رضى الله عنه عن هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) فقال أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال أرواحهم فى جوف طير خضر تسرح فى الجنة فى أيها شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع اليهم ربك إطلاعة فقال هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا وأى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ! ففعل بهم ذلك ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا يارب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا . والحديث فى صحيح مسلم .

(قلت) وفى صحيح البخارى عن أنس أن أم الربيع بنت البراء وهى أم حارثة بن سراقة أتت النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يانبى الله ألا تحدثنى عن حارثة ؟ وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب فان كان فى الجنة صبرت وإن كان فى غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء ، قال يا أم حارثة إنها جنان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى .

(ثم ساق) من طريق بقى بن مخلد حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا ابن عيينة عن عبيد الله ابن أبى يزيد سمع ابن عباس يقول أرواح الشهداء تجول فى أجواف طير خضر تعلق فى ثمر الجنة .

(ثم ذكر) عن معمر عن قتادة قال بلغنا أن أرواح الشهداء فى صور طير بيض تأكل من ثمار الجنة .

(ومن طريق) أبى عاصم النبيل عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن عبدالله بن عمرو أرواح الشهداء فى طير كالزرازير يتعارفون ويرزقون من ثمر الجنة .

---

[1] يقال : نكل عن الأمر إذا امتنع .

(قال) أبو عمر هذه الآثار كلها تدل على أنهم الشهداء دون غيرهم وفى بعضها فى صور طير وفى بعضها فى أجواف طير وفى بعضها كطير خضر قال والذى يشبه عندى والله أعلم أن يكون القول قول من قال كطير أو صور طير لمطابقته لحديثنا المذكور (يريد حديث كعب ابن مالك) وقوله فيه نسمة المؤمن كطائر ولم يقل فى جوف طائر .

(قال) وروى عيسى بن يونس حديث ابن مسعود عن الأعمش عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله كطير خضر .

قلت : والذى فى صحيح مسلم فى أجواف طير خضر .

قال أبو عمر : فعلى هذا التأويل كأنه صلى الله عليه وآله وسلم قال إنما نسمة المؤمن من الشهداء طائر يعلق فى شجر الجنة .

(قلت) لاتنافى بين قوله صلى الله عليه وآله وسلم نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة وبين قوله إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار ، فمن أهل النار ، وهذا الخطاب يتناول الميت على فراشه والشهيد كما أن قوله نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة يتناول الشهيد وغيره ومع كونه يعرض عليه مقعده بالغداة والعشى ترد روحه أنهار الجنة وتأكل من ثمارها .

وأما المقعد الخاص به والبيت الذى أعد له فانه إنما يدخله يوم القيامة ويدل عليه أن منازل الشهداء ودورهم وقصورهم التى أعد الله لهم ليست هى تلك القناديل التى تأوى اليها أرواحهم فى البرزخ قطعاً فهم يرون منازلهم ومقاعدهم من الجنة ويكون مستقرهم فى تلك القناديل المعلقة بالعرش فان الدخول التام الكامل إنما يكون يوم القيامة ودخول الأرواح الجنة فى البرزخ أمر دون ذلك .

ونظير هذا أهل الشقاء تعرض أرواحهم على النار غدواً وعشياً فإذا كان يوم القيامة دخلوا منازلهم ومقاعدهم التى كانوا يعرضون عليها فى البرزخ فتنعم الأرواح بالجنة فى البرزخ شيء ، وتنعمها مع الأبدان يوم القيامة بها شيء آخر فغذاء الروح من الجنة فى البرزخ دون غذائها مع بدنها يوم البعث ولهذا قال تعلق فى شجر الجنة أى تأكل العلقة وتمام الأكل والشرب واللبس والتمتع فإنما يكون إذا ردت إلى أجسادها يوم القيامة فظهر أنه لايعارض هذا القول من السنن شيء ، وإنما تعاضده السنة وتوافقه .

وأما قول من قال إن حديث كعب فى الشهداء دون غيرهم فتخصيص ليس فى اللفظ مايدل عليه وهو حمل اللفظ العام على أقل مسمياته فإن الشهداء بالنسبة إلى عموم المؤمنين

قليل جداً والنبي صلى الله عليه وآله وسلم علق هذا الجزاء بوصف الإيمان فهو المقتضي له ولم يعلقه بوصف الشهادة . ألا ترى أن الحكم الذى اختص بالشهداء علق بوصف الشهادة كقوله فى حديث المقدام بن معد يكرب للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له فى أول دفقة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا ومافيها ، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين ، ويشفع فى سبعين إنساناً من أقاربه ، فلما كان هذا يختص بالشهيد قال إن للشهيد ولم يقل إن للمؤمن وكذلك قوله فى حديث قيس الجذامى يعطى الشهيد ست خصال ، وكذلك سائر الأحاديث والنصوص التى علق فيها الجزاء بالشهادة .

وأما ماعلق فيه الجزاء بالإيمان فإنه يتناول كل مؤمن شهيداً كان أو غير شهيد .

وأما النصوص والآثار التى ذكر فى رزق الشهداء وكون أرواحهم فى الجنة فكلها حق وهى لاتدل على انتفاء دخول أرواح المؤمنين الجنة ولاسيما الصديقين الذين هم أفضل من الشهداء بلا نزاع بين الناس فيقال لهؤلاء ما تقولون فى أرواح الصديقين هل هى فى الجنة أم لا ؟ .

فإن قالوا أنها فى الجنة ولايسوغ لهم غير هذا القول فثبت أن هذه النصوص لاتدل على اختصاص أرواح الشهداء بذلك . وإن قالوا ليست فى الجنة لزمهم من ذلك أن تكون أرواح سادات الصحابة كأبى بكر الصديق وأبى بن كعب وعبد الله بن مسعود وأبى الدرداء وحذيفة بن اليمان وأشباههم رضى الله عنهم ليست فى الجنة وأرواح شهداء زماننا فى الجنة ، وهذا معلوم البطلان ضرورة .

فإن قيل : فإن كان هذا حكم يختص بالشهداء فما الموجب لتخصيصهم بالذكر فى هذه النصوص ؟ قلت التنبيه على فضل الشهادة وعلو درجتها وأن هذا مضمون لأهلها ولابد وأن لهم منها أوفر نصيب ، فنصيبهم من هذا النعيم فى البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فراشهم وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة منهم فله نعيم يختص به لايشاركه فيه من هو دونه .

ويدل على هذا أن الله سبحانه جعل أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر فإنهم لما بذلوا أنفسهم لله حتى أتلفها أعداؤه فيه أعاضهم منها فى البرزخ أبدانا خيراً منها تكون فيها إلى يوم القيامة ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من نعيم الأرواح المجردة عنها ، ولهذا كانت نسمة المؤمن فى صورة طير أو كطير ونسمة الشهيد فى جوف طير وتأمل لفظ الحديثين فإنه قال : « نسمة المؤمن طير » فهذا يعم الشهيد وغيره ثم خص الشهيد بأن قال :

« هى فى جوف طير » ومعلوم أنها إذا كانت فى جوف طير صدق عليها أنها طير فصلوات الله وسلامه على من يصدق كلامه بعضه بعضاً ويدل على أنه حق من عند الله وهذا الجمع أحسن من جمع أبى عمر وترجيحه رواية من روى أرواحهم كطير خضر بل الروايتان حق وصواب فهى كطير خضر وفى أجواف طير خضر .

فصـــل

وأما قول مجاهد ليس هى فى الجنة ولكن يأكلون من ثمارها ويجدون ريحها فقد يحتج لهذا القول بما رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث ابن اسحق عن عاصم بن عمر عن محمـــود ابن لبيد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية .

وهذا لاينافى كونهم فى الجنة فإن ذلك النهر من الجنة ورزقهم يخرج عليهم من الجنـــة فهم فى الجنة وإن لم يصيروا إلى مقاعدهم منها . فمجاهد نفى الدخول الكامل من كل وجه ، والتعبير يقصر عن الإحاطة بتمييز هذا من هذا وأكمل العبارة أدلها على المراد عبارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم عبارة أصحابه . وكلما نزلت رأيت الشفاء والهدى والنور وكلما نزلت رأيت الحيرة والدعاوى والقول بلا علم .

(قال) أبو عبدالله بن منده وروى موسى بن عبيدة عن عبد الله بن يزيد عن أم كبشة بنت المعرور قالت دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسألناه عن هذه الأرواح؟ فوصفها صفة أبكى أهل البيت فقال إن أرواح المؤمنين فى حواصل طير خضر ترعى فى الجنة وتأكل من ثمارها وتشرب من مائها وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت العرش يقولون ربنا ألحق بنا إخواننا وآتنا ما وعدتنا ، وأن أرواح الكفار فى حواصل طير سود تأكل من النـار وتشرب من النار وتأوى إلى جحر فى النـار يقولون ربنا لاتلحق بنا إخواننا ولا تؤتنا ما وعدتنا .

(وقال) الطبرانى : حدثنا أبو زرعة الدمشقى حدثنا عبد الله بن صالح حـــدثنى معاوية ابن صالح عن ضمرة بن حبيب قال سئل النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن أرواح المؤمنين ؟ فقال فى طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت قالوا يا رسـول الله وأرواح الكفار ؟ قال محبوسة فى سجين . رواه أبو الشيخ عن هشام بن يونس عن عبدالله بن صالح (ورواه) أبو المغيرة عن أبى بكر بن أبى مريم عن ضمرة بن حبيب .

(وذكر) أبو عبد الله بن منده من حـــديث غنجار عن الثورى عن ثور بن يزيد عن

خالد بن معدان عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرواح المؤمنين فى طير خضر كالزرازير تأكل من ثمر الجنة (ورواه) غيره موقوفا .

وذكر يزيد الرقاشى عن أنس ، وأبو عبد الله الشامى عن تميم الدارى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم إذا عرج ملك الموت بروح المؤمن إلى السماء استقبله جبرائيل فى سبعين الفا من الملائكة كل منهم يأتيه ببشارة من السماء سوى بشارة صاحبه فإذا انتهى به إلى العرش خر ساجداً فيقول الله عز وجل لملك الموت انطلق بروح عبدى فضعه فى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب . رواه بكر بن خنيس عن ضرار بن عمرو عن يزيد وأبى عبدالله .

فصـــل

وأما قول من قال الأرواح على أفنية قبورها فان أراد أن هذا أمر لازم لها لاتفارق أفنية القبور أبداً فهذا خطأ ترده نصوص الكتاب والسنة من وجوه كثيرة قد ذكرنا بعضها ، وسنذكر منها مالم نذكره إن شاء الله .

وإن أراد أنها تكون على أفنية القبور وقتاً ، أولها إشراف على قبورها وهى فى مقرها فهذا حق ولكن لايقال مستقرها أفنية القبور .

وقد ذهب إلى هذا المذهب جماعة منهم أبو عمر بن عبد البر ، قال فى كتابه فى شرح حديث ابن عمر إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى وقد استدل به من ذهب إلى أن الأرواح على أفنية القبور وهو أصح ما ذهب اليه فى ذلك من طريق الأثر ؛ ألاترى أن الاحاديث الدالة على ذلك ثابتة متواترة وكذلك أحاديث السلام على القبور .

(قلت) يريد الاحاديث المتواترة مثل حديث ابن عمر هـــذا ومثل حديث البراء ابن عازب الذى تقدم وفيه « هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » ومثل حديث أنس أن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه انه ليسمع قرع نعالهم وفيه أنه يرى مقعده من الجنة والنار ، وأنه يفسح للمؤمن فى قبره سبعين ذراعا ويضيق على الكافر ، ومثل حديث جابر إن هذه الأمة تبلى فى قبورها فاذا دخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه أتاه ملك (الحديث) وأنه يرى مقعده من الجنة فيقول دعونى أبشر أهلى فيقال له أسكن فهذا مقعدك أبدا ، ومثل سائر أحاديث عذاب القبر ونعيمه التى تقدمت ، ومثل أحاديث السلام على أهل القبور وخطابهم ومعرفتهم بزيارة الاحياء لهم ، وقد تقدم ذكر ذلك كله .

وهذا القول ترده السنة الصحيحة والآثار التى لامدفع لها وقد تقدم ذكرها وكل ماذكره

من الأدلة فهو يتناول الأرواح التى هى فى الجنة بالنص وفى الرفيق الأعلى وقد بينا ان عرض مقعد الميت عليه من الجنة والنار لايدل على أن الروح فى القبر ولا على فنائه دائماً من جميع الوجوه بل لها اشراف واتصال بالقبر وفنائه وذلك القدر منها يعرض عليه مقعده فإن الروح شأنا آخر تكون فى الرفيق الأعلى فى أعلى عليين ولها اتصال بالبدن بحيث إذا سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام وهى فى الملأ الأعلى وإنما يغلط أكثر الناس فى هذا الموضع حيث يعتقد أن الروح من جنس مايعهد من الأجسام التى إذا شغلت مكانا لم يمكن أن تكون فى غيره وهذا غلط محض بل الروح تكون فوق السموات فى أعلى عليين وترد إلى القبر فترد السلام وتعلم بالمسلم وهى فى مكانها هناك وروح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الرفيق الأعلى دائما ويردها الله سبحانه إلى القبر فترد السلام على من سلم عليه وتسمع كلامه وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موسى قائماً يصلى فى قبر ورآه فى السماء السادسة والسابعة فإما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كلمح البصر وإما أن يكون المتصل منها بالقبر وفنائه بمنزلة شعاع الشمس وجرمها فى السماء وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخترق السبع الطباق وتسجد لله بين يدى العرش ثم ترد إلى جسده فى أيسر زمان ، وكذلك روح الميت تصعد بها الملائكة حتى تجاوز السموات السبع وتقف بين يدى الله فتسجد له ويقضى فيها قضاء ويريها الملك ما أعد الله لها فى الجنة ثم تهبط فتشهد غسله وحمله ودفنه ، وقد تقدم فى حديث البراء بن عازب أن النفس يصعد بها حتى توقف بين يدى الله فيقول تعالى اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ثم اعيدوه إلى الأرض فيعاد الى القبر وذلك فى مقدار تجهيزه وتكفينه فقد صرح به فى حديث ابن عباس حيث قال فيهبطون على قدر فراغه من غسله وأكفانه فيدخلون ذلك الروح بين جسده وأكفانه .

(وقد ذكر) أبو عبد الله بن منده من حديث عيسى بن عبد الرحمن حدثنا ابن شهاب حدثنا عامر بن سعد عن اسماعيل بن طلحة بن عبيد الله عن أبيه قال أردت مالى بالغابة فأدركنى الليل فأويت إلى قبر عبد الله بن عمر بن حرام فسمعت قراءة من القبر ماسمعت أحسن منها فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له فقال ذلك عبد الله ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم فلا يزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم إلى مكانهم الذى كانت به .

فى هذا الحديث بيان سرعة انتقال أرواحهم من العرش إلى الثرى ثم انتقالها من الثرى إلى مكانها ، ولهذا قال مالك وغيره من الأئمة أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت ، وما

يراه الناس من أرواح الموتى ومجيئهم إليهم من المكان البعيد أمر يعلمه عامة الناس ولا يشكون فيه . والله أعلم .

وأما السلام على أهل القبور وخطابهم فلا يدل على أن أرواحهم ليست فى الجنة وأنها على أفنية القبور فهذا سيد ولد آدم الذى روحه فى أعلى عليين مع الرفيق الأعلى صلى الله عليه وآله وسلم يسلم عليه عند قبره ويرد سلام المسلم عليه وقد وافق أبو عمر رحمه الله على أن أرواح الشهداء فى الجنة ويسلم عليهم عند قبورهم كما يسلم على غيرهم كما علمنا النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن نسلم عليهم وكما كان الصحابة يسلمون على شهداء أحد وقد ثبت أن أرواحهم فى الجنة تسرح حيث شاءت كما تقدم ولا يضيق عقلك عن كون الروح فى الملأ الأعلى تسرح فى الجنة حيث شاءت وتسمع سلام المسلم عليها عند قبرها وتدنو حتى ترد عليه السلام والروح شأن آخر غير شأن البدن ، وهذا جبريل صلوات الله وسلامه عليه رآه النبى صلى الله عليه وآله وسلم وله ستمائة جناح منها جناحان قد سد بهما مابين المشرق والمغرب وكان من النبى صلى الله عليه وآله وسلم حتى يضع ركبتيه بين ركبتيه ويديه على فخذيه وما أظنك يتسع بظنك انه كان حينئذ فى الملأ الأعلى فوق السموات حيث هو مستقره وقد دنا من النبى صلى الله عليه وآله وسلم هذا الدنو فإن التصديق بهذا له قلوب خلقت له وأهلت لمعرفته ومن لم يتسع بطانه لهذا فهو أضيق أن يتسع للايمان بالنزول الإلهى إلى سماء الدنيا كل ليلة وهو فوق سماواته على عرشه لا يكون فوقه شىء البتة بل هو العالى على كل شىء وعلوه من لوازم ذاته . وكذلك دنوه عشية عرفة من أهل الموقف وكذلك مجيئه يوم القيامة لمحاسبة خلقه وإشراق الأرض بنوره وكذلك مجيئه إلى الأرض حين دحاها وسواها ومدها وبسطها وهيأها لما يراد منها . وكذلك مجيئه يوم القيامة حين يقبض من عليها ولا يبقى بها أحد كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم فأصبح ربك يطوف فى الأرض وقد خلت عليه البلاه . هذا وهو فوق سماواته على عرشه .

فصـــل

ومما ينبغى أن يعلم أن ماذكرنا من شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح من القوة والضعف والكبر والصغر فللروح العظيمة الكبيرة من ذلك ما ليس لمن هو دونها ، وأنت ترى أحكام الأرواح فى الدنيا كيف تتفاوت أعظم تفاوت بحسب تفارق الأرواح فى كيفياتها وقواها وإبطائها وإسراعها والمعاونة لها فللروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه من التصرف والقوة والنفاذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله والتعلق بالله ما ليس للروح المهينة المحبوسة فى علائق البدن وعوائقه فاذا كان هذا وهى محبوسة فى بدنها فكيف إذا تجردت

وفارقته واجتمعت فيها قواها وكانت فى أصل شأنها روحا علية زكية كبيرة ذات همة عالية فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر .

وقد تواترت الرؤيا فى أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد موتها ما لا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن من هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد والاثنين والعدد القليل ونحو ذلك وكم قد رئى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ومعه أبو بكر وعمر فى النوم قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم فإذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وعددهم وضعف المؤمنين وقلتهم .

ومن العجب أن أرواح المؤمنين المتحابين المتعارفين تتلاقى وبينها أعظم مسافة وأبعدها فتتألم وتتعارف فيعرف بعضها بعضا كأنه جليسه وعشيره فإذا رآه طابق ذلك ما كان عرفته روحه قبل رؤيته .

(قال) عبد الله بن عمرو ان أرواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط . ورفعه بعضهم إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

(وقال) عكرمة ومجاهد إذا نام الانسان فان له سببا يجرى فيه الروح وأصله فى الجسد فتبلغ حيث شاء الله مادام ذاهبا فالإنسان نائم فاذا رجع إلى البدن انتبه الإنسان وكان بمنزلة شعاع الشمس الذى هو ساقط بالأرض فأصله متصل بالشمس . وقد ذكر أبو عبد الله بن منده عن بعض أهل العلم أنه قال إن الروح يمتد من منخر الإنسان ومركبه وأصله فى بدنه فلو خرج الروح بالكلية لمات كما أن السراج لو فرق بينه وبين الفتيلة ألا ترى أن مركب النار فى الفتيلة وضوؤها وشعاعها يملأ البيت فكذلك الروح تمتد من منخر الإنسان فى منامه حتى تأتى السماء وتجول فى البلدان وتلتقى مع أرواح الموتى فاذا أراه الملك الموكل بأرواح العباد ما أحب أن يريه وكان المرئى [1] فى اليقظة عاقلا ذكياً صدوقاً لا يلتفت فى يقظته إلى شىء من الباطل رجع إليه روحه فأدى إلى قلبه الصدق مما أراه الله عز وجل على حسب خلقه ، وإن كان خفيفاً نزقا يحب الباطل والنظر إليه فإذا نام وأراه الله أمراً من خير أو شر رجعت روحه إليه فحيث ما رأى شيئاً من مخاريق الشيطان أو الباطل وقفت روحه عليه كما تقف فى يقظته فكذلك لا يؤدى إلى قلبه فلا يعقل ما رأى لأنه خلط الحق بالباطل فلا يمكن معبر أن يعبر له وقد خلط الحق بالباطل .

---

[1] اسم مفعول من أراه — أن الشخص الذى أراه الملك ما أحب أن يريه .

وهذا من أحسن الكلام وهو دليل على معرفة قائله وبصيرته بالأرواح وأحكامها .

وأنت ترى الرجل يسمع العلم والحكمة وما هو أنفع شيء له ثم يمر بباطل ولهو من غناء أو شبهة أو زور أو غيره فيصغى إليه ويفتح له قلبه حتى يتأدى إليه فيتخبط عليه ذلك الذى سمعه من العلم والحكمة ويلتبس عليه الحق بالباطل فهكذا شأن الأرواح عند النوم ، وأما بعد المفارقة فانها تعذب بتلك الاعتقادات والشبه الباطلة التى كانت حظها حال اتصالها بالبدن ، وينضاف إلى ذلك عذابها بتلك الارادات والشهوات التى حيل بينها وبينها وينضاف إلى ذلك عذاب آخر ينشئه الله لها ولبدنها من الأعمال التى اشتركت معه فيها وهذه هى المعيشة الضنك فى البرزخ والزاد الذى تزود به إليه .

والروح الزكية العلوية المحققة التى لا تحب الباطل ولا تألفه بضد ذلك كله تنعم بتلك الاعتقادات الصحيحة والعلوم والمعارف التى تلقتها من مشكاة النبوة وتلك الارادات والهمم الزكية وينشىء الله سبحانه لها من أعمالها نعيما ينعمها به فى البرزخ فتصير لها روضة من رياض الجنة ولتلك حفرة من حفر النار .

فصـــل

وأما قول من قال أرواح المؤمنين عند الله تعالى ولم يزد على ذلك فانه تأدب مع لفظ القرآن حيث يقول الله عزوجل (بل أحياء عند ربهم يرزقون) .

وقد احتج أرباب هذا القول بحجج (منها) ماروواه محمد بن اسحاق الصغانى حدثنا يحيى بن بكير حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن أبى ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال إن الميت إذا خرجت نفسه يعرج بها إلى السماء حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل ، وإذا كان الرجل السوء يعرج بها إلى السماء فانه لا يفتح لها أبواب السماء فترسل من السماء فتصير إلى القبر .

وهذا إسناد لا تسأل عن صحته وهو فى مسند أحمد وغيره .

وقال أبو داود الطيالسى حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن أبى وائل عن موسى الأشعرى قال تخرج روح المؤمن أطيب من ريح المسك فتتطلق بها الملائكة من دون السماء فيقولون ماهذا ؟ فيقولون هذا فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت — لمحاسن عمله — فيقولون مرحبا بكم وبه فيقبضونها منهم فيصعد بها من الباب الذى كان يصعد منه عمله فتشرق فى السموات ولها برهان كبرهان الشمس حتى ينتهى إلى العرش ، وأما الكافر فاذا قبض انطلق بروحه فيقولون ماهذا ؟ فيقولون هذا فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت — لمساوى عمله — فيقولون لا مرحبا لا مرحبا ردوه فيرد إلى أسفل الأرض إلى الثرى .

وقال الملكى بن إبراهيم عن داود بن يزيد الأودى قال أراه عن عامر الشعبى عن حذيفة ابن اليمان أنه قال الأرواح موقوفة عند الرحمن عز وجل تنتظر موعده حتى ينفخ فيها .

(وذكر) سفيان بن عيينة عن منصور بن صفية عن أمه أنه دخل ابن عمر المسجد بعد قتل ابن الزبير وهو مصلوب فأتى أسماء يعزيها فقال لها عليك بتقوى الله والصبر فان هذه الجثث ليست بشىء وإنما الأرواح عنـــد الله فقالت وما يمنعنى من الصبر وقد أهدى رأس يحيى ابن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل .

(وذكر) جرير عن الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال كنا جلوساً إلى كعب والربيع بن خيثم وخالد بن عرعرة فى أناس فجاء ابن عباس فقال هذا ابن عم نبيكم قال فأوسع له فجلس فقال يا كعب كل ما فى القرآن قد عرفت غير أربعة أشياء فأخبرنى عنهن ماسجين وماعليون وماسدرة المنتهى وما قول الله لإدريس (ورفعناه مكاناً علياً) ؟ قال أما عليون فالسماء السابعة فيها أرواح المؤمنين ، وأماسجين فالأرض السابعة الســـفلى وأرواح الكفار تحت جسد إبليس ؛ وأما قول الله سبحانه لإدريس (ورفعناه مكاناً علياً) فأوحى الله إليه أنى رافع لك كل يوم مثل أعمال بنى آدم وكلم صديقاً له من الملائكة أن يكلم له ملك الموت فيؤخره حتى يزداد عملا فحمله بين جناحيه فعرج به حتى إذا كان فى السماء الرابعة لقيه ملك الموت فكلمه فى حاجته فقال وأين هو قال هو ذا بين جناحى قال فالعجب أنى أمرت أن أقبض روحه فى السماء الرابعة فقبض روحه وأما سدرة المنتهى فإنها سدرة على رؤوس حملة العرش ينتهى اليها علم الخلائق ثم ليس لأحد وراءها علم فلذلك سميت سدرة المنتهى .

(قال) ابن منده ورواه وهب بن جرير عن أبيه ورواه يعقوب القمى عن شمر ، ورواه خالد بن عبد الله عن العوام بن حوشب عن القاسم بن عوف عن الربيع بن خيثم قال كنا جلوسا عند كعب . فذكره .

وذكر يعلى بن عبيد عن الأجلح عن الضحاك قال إذا قبض روح العبد المؤمن عرج به إلى السماء الدنيا فينطلق معه المقربون إلى السماء الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامســـة ثم السادسة ثم السابعة حتى ينتهى به إلى سدرة المنتهى ، قلت للضحاك لم سميت سدرة المنتهى اليها كل شىء من أمر الله عز وجل لا يعدوها فيقول ربى ! عبدك فلان ، وهو أعلم به منهم فيبعث الله اليه بصك مختوم يؤمنه من العذاب وذلك قوله تعالى (كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين وما أدراك ماعليون كتاب مرقوم يشهده المقربون) وهذا القول لاينافى قول من قال

هم فى الجنة فإن الجنة عند سدرة المنتهى والجنة عند الله وكأن قائله رأى أن هذه العبارة أسلم وأوفق وقد أخبر الله سبحانه أن أرواح الشهداء عنده وأخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنها تسرح فى الجنة حيث شاءت .

فصـــل

وأما قول من قال إن أرواح المؤمنين بالجابية ، وأرواح الكفار بحضرموت ببرهوت فقال أبو محمد بن حزم هذا من قول الرافضة ، وليس كما قال بل قد قاله جماعة من أهل السنة .

(قال) أبو عبد الله بن منده وروى عن جماعة من الصحابة والتابعين أن أرواح المؤمنين بالجابية ثم قال أخبرنا محمد بن محمد بن يونس حدثنا أحمد بن عاصم حدثنا أبو داود سليمان ابن داود حدثنا همام حدثنى قتادة حدثنى رجل عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو أنه قال إن أرواح المؤمنين تجتمع بالجابية وان أرواح الكفار تجتمع فى سبخة بحضرموت يقال لها برهوت .

ثم ساق من طريق حماد بن سلمة عن عبد الجليل بن عطيه عن شهر بن حوشب أن كعباً رأى عبد الله بن عمرو وقد تكلب الناس عليه يسألونه فقال لرجل سله أين أرواح المؤمنين وأرواح الكفار ؟ فسأله فقال : أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار ببرهوت .

(قال) ابن منده ورواه أبو داود وغيره عن عبد الجليل ، ثم ساق من حديث سفيان عن فرات القزاز عن أبى الطفيل عن على قال خير بئر فى الأرض زمزم وشر بئر فى الأرض برهوت فى حضرموت . وخير واد فى الأرض وادى مكة والوادى الذى أهبط فيه آدم بالهند منه طيبكم ، وشر واد فى الأرض الأحقاف وهو فى حضرموت ترده أرواح الكفار .

(قال) ابن منده وروى حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس عن على أبغض بقعة فى الأرض واد بحضرموت يقال له برهوت فيه أرواح الكفار وفيه بئر ماؤها بالنهار أسود كأنه قيح تأوى اليه الهوام .

ثم ساق من طريق إسماعيل بن إسحاق القاضى حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان حدثنا ابان بن تغلب قال قال رجل بت فيه . يعنى وادى برهوت . فكأنما حشرت فيه أصوات الناس وهم يقولون يادومة يادومة ! قال ابان فحدثنا رجل من أهل الكتاب أن دومة هو الملك الذى على أرواح الكفار .

(وقال) سفيان وسألنا الحضرميين فقالوا لايستطيع أحد أن يبيت فيه بالليل .

فهذا جملة ماعلمته فى هذا القول فإن أراد عبدالله بن عمرو بالجابية التمثيل والتشبيه وأنها تجمع فى مكان فسيح يشبه الجابية لسعته وطيب هوائه فهذا قريب وإن أراد نفس الجابية دون سائر الأرض فهذا لايعلم إلا بالتوقيت ولعله مما تلقاه عن بعض أهل الكتاب .

فصل

وأما قول من قال إنها تجتمع فى الأرض التى قال الله فيها : (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) فهذا إن كان قاله تفسير الآية فليس هو تفسيراً لها .

وقد اختلف الناس فى الأرض المذكورة هنا فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس هى أرض الجنة وهذا قول أكثر المفسرين . وعن ابن عباس قول آخر أنها الدنيا التى فتحها الله على أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا القول هو الصحيح ونظيره قوله تعالى فى سورة النور (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال زويت لى الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها .

وقالت طائفة من المفسرين المراد بذلك أرض بيت المقدس .

وهى من الأرض التى أورثها الله عباده الصالحين وليست الآية مختصة بها .

فصل

وأما قول من قال إن أرواح المؤمنين فى عليين فى السماء السابعة وأرواح الكفار فى سجين فى الأرض السابعة فهذا قول قد قاله جماعة من السلف والخلف ويدل عليه قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم اللهم الرفيق الأعلى . وقد تقدم حديث أبى هريرة أن الميت إذا خرجت روحه عرج بها إلى السماء حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة التى فيها الله عز وجل ، وتقدم قول أبى موسى أنها تصعد حتى تنتهى إلى العرش وقول حذيفة أنها موقوفة عند الرحمن ، وقول عبدالله بن عمر إن هذه الأرواح عند الله ، وتقدم قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن أرواح الشهداء تأوى إلى قناديل تحت العرش ، وتقدم حديث البراء بن عازب أنها تصعد من سماء إلى سماء ويشيعها من كل سماء مقربوها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة ، وفى لفظ إلى السماء التى فيها الله عز وجل .

ولكن هذا لايدل على استقرارها هناك بل يصعد بها إلى هناك للعرض على ربها فيقضى فيها أمره ويكتب كتابه من أهل عليين أو من أهل سجين ثم تعود إلى القبر للمسألة ثم ترجع إلى مقرها التى أودعت فيه فأرواح المؤمنين فى عليين بحسب منازلهم وأرواح الكفار فى سجين بحسب منازلهم .

فصـــل

وأما قول من قال إن أرواح المؤمنين تجتمع ببئر زمزم فلا دليل على هذا القول من كتاب ولا سنة يجب التسليم لهـا ولا قول صاحب يوثق به وليس بصحيح فإن تلك البئر لا تسـع أرواح المؤمنين جميعهم وهو مخالف لما ثبتت به السنة الصريحة من أن نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة .

وبالجملة فهذا من أبطل الأقوال وأفسدها وهو أفسـد من قول من قال أنها بالجابية فإن ذلك مكان متسع فضاء بخلاف البئر الضيقة .

فصـــل

وأما قول من قال إن أرواح المؤمنين فى برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت فهذا مروى عن سلمان الفارسى والبرزخ هو الحاجز بين شيئين وكأن سلمان أراد بها فى أرض بين الدنيا والآخرة مرسلة هناك تذهب حيث شاءت وهذا قول قوى فإنها قد فارقت الدنيـا ولم تلج الآخرة بل هى فى برزخ بينهما فأرواح المؤمنين فى برزخ واسع فيه الروح والريحان والنعيم وأرواح الكفار فى برزخ ضيق فيه الغم والعذاب قال تعالى : (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) فالبرزخ هنا ما بين الدنيا والآخرة وأصله الحاجز بين الشيئين .

فصـــل

وأما قول من قال إن أرواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكفار عن يساره فلعمر والله لقد قال قولا يؤيده الحديث الصحيح وهو حديث الاسراء فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم رآهم كذلك . ولكن لا يدل ذلك على تعادلهم فى اليمين والشمال بل يكون هؤلاء عن يمينه فى العلو والسعة وهؤلاء عن يساره فى السفل والسجن .

وقد قال أبو محمد بن حزم ان ذلك البرزخ الذى رآه فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أسرى به عند سماء الدنيا قال وذلك عند منقطع العناصر ، قال وهذا يدل على أنهـا عنده تحت السماء حيث تنقطع العناصر وهى الماء والتراب والنار والهواء .

وهو دائماً يشنع على من قال قولا لا دليل عليه فأى دليل له على هـذا القول من كتاب وسنة ؟ وسيأتى اشباع الكلام على قوله إذا انتهينا إليه إن شاء الله تعالى .

فإن قيل فاذا كانت أرواح أهل السعادة عن يمين آدم وآدم فى السماء الدنيا وقد ثبت أن

أرواح الشهداء فى ظل العرش والعرش فوق السماء السابعة فكيف تكون عن يمينه وكيف يراها النبى صلى الله عليه وآله وسلم هناك فى السماء الدنيا ؟ فالجواب من وجوه .

(أحدها) أنه لا يمتنع كونها عن يمينه فى جهة العلو كما كانت أرواح الأشقياء عن يساره فى جهة السفل .

(الثانى) أنه غير ممتنع أن تعرض على النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى سماء الدنيا وإن كان مستقرها فوق ذلك .

(الثالث) أنه لم يخبر أنه رأى أرواح السعداء جميعا هناك بل قال فاذا عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة ومعلوم قطعا أن روح إبراهيم وموسى فوق ذلك فى السماء السادسة والسابعة وكذلك الرفيق الأعلى أرواحهم فوق ذلك وأرواح السعداء بعضها أعلى من بعض بحسب منازلهم كما أن أرواح الأشياء بعضها أسفل من بعض بحسب منازلهم . والله أعلم .

فصل

وأما قول أبى محمد بن حزم أن مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها فهذا بناء منه على مذهبه الذى اختاره وهو أن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد وهذا فيه قولان للناس ، وجمهورهم على أن الأرواح خلقت بعد الأجساد والذين قالوا أنها خلقت قبل الأجساد ليس معهم على ذلك دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع إلا ما فهموه من نصوص لا تدل على ذلك أو أحاديث لا تصح كما احتج به أبو محمد بن حزم من قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) الآية وبقوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) قال فصح أن الله خلق الأرواح جملة وهى الأنفس ، وكذلك أخبر عليه السلام أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، قال وأخذ عز وجل عهدها وشهادتها وهى مخلوقة مصورة عاقلة قبل أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم وقبل أن يدخلها فى الأجساد والأجساد يومئذ تراب . وقال لأن الله تعالى خلق ذلك بلفظة ثم التى توجب التعقيب والمهلة ثم أقرها سبحانه وتعالى حيث شاء وهو البرزخ الذى ترجع اليه عند الموت .

وسنذكر ما فى هذا الاستدلال عند جواب سؤال السائل عن الأرواح هى مخلوقة مع الأبدان أم قبلها ؟ إذ الغرض هنا الكلام على مستقر الأرواح بعد الموت ، وقوله أنها تستقر فى البرزخ الذى كانت فيه قبل خلق الاجساد مبنى على هذا الاعتقاد الذى اعتقده ،

وقوله أن أرواح السعداء عن يمين آدم وأرواح الكفار الأشقياء عن يساره حق كما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقوله إن ذلك عند منقطع العناصر لادليل عليه من كتاب ولاسنة ولايشبه أقوال أهل الإسلام والأحاديث الصحيحة تدل على أن الأرواح فوق العناصر في الجنة عند الله وأدلة القرآن تدل على ذلك وقد وافق أبو محمد على أن أرواح الشهداء في الجنة ومعلوم أن الصديقين أفضل منهم فكيف تكون روح أبي بكر الصديق وعبد الله بن مسعود وأبي الدرداء وحذيفة بن اليمان وأشباههم رضى الله عنهم عند منقطع العناصر وذلك تحت هذا الفلك الأدنى وتحت السماء الدنيا وتكون أرواح شهداء زماننا وغيرهم فوق العناصر وفوق السموات .

وأما قوله قد ذكر محمد بن نصر المروزى عن إسحاق بن راهويه أنه ذكر هذا الذى قلنا بعينه قال وعلى هذا جميع أهل العلم وهو قول جميع أهل الإسلام.

قلت محمد بن نصر المروزى ذكر فى كتاب الرد على ابن قتيبة فى تفسير قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم) الآثار التى ذكرها السلف من استخراج ذرية آدم من صلبه ثم أخذ الميثاق عليهم وردهم فى صلبه وأنه أخرجهم مثل الذر وأنه سبحانه قسمهم إذ ذاك إلى شقى وسعيد وكتب آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وما يصيبهم من خير وشر ثم قال : قال اسحاق أجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد استنطقهم (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل) هذا نص كلامه وهو كما ترى لايدل على أن مستقر الأرواح ماذكر أبو محمد حيث تنقطع العناصر بوجه من الوجوه بل ولايدل على أن الأرواح كائنة قبل خلق الأجساد بل إنما يدل على أنه سبحانه أخرجها حينئذ فخاطبها ثم ردها إلى صلب آدم وهذا القول وإن كان قد قاله جماعة من السلف والخلف فالقول الصحيح غيره كما ستقف عليه إن شاء الله إذ ليس الغرض فى جواب هذه المسألة الكلام فى الأرواح هل هى مخلوقة قبل الأجساد أم لا حتى لو سلم لأبى محمد هذا كله لم يكن فيه دليل على أن مستقرها حيث تنقطع العناصر ولا أن ذلك الموضع كان مستقرها أولا .

فصل

وأما قول من قال مستقرها العدم المحض فهذا قول من قال إنها عرض من أعراض البدن وهو الحياة وهذا قول ابن الباقلانى ومن تبعه . وكذلك قال أبو الهذيل العلاف النفس عرض من الأعراض ولم يعينه بأنه الحياة كما عينه ابن الباقلانى ثم قال هى عرض كسائر أعراض الجسم .

وهؤلاء عندهم أن الجسم إذا مات عدمت روحه كما تقدم وسائر أعراضه المشروطة بالحياة ومن يقول منهم أن العرض لا يبقى زمانين كما يقوله أكثر الأشـــعرية فمن قولهم إن روح الانسان الآن هى غير روحه قبل وهو لا ينفك يحدث له روح ثم تغير ثم روح ثم تغير هكذا ابدا فيبدل له ألف روح فأكثر فى مقدار ساعة من الزمان فما دونها فإذا مات فلا روح تصعد إلى السماء وتعود إلى القبر وتقبضها الملائكة ويستفتحون لها أبواب السموات ولا تنعم ولا تعذب وإنما ينعم ويعذب الجسد اذا شاء الله تنعيمه أو تعذيبه رد إليه الحياة فى وقت يريد نعيمه أو عذابه وإلا فلا أرواح هناك قائمة بنفسها البتة .

وقال بعـــض أرباب هذا القول ترد الحياة إلى عجب الذنب فهو الذى يعذب وينعم وحسب .

وهذا قول يرده الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقول والفطن والفطرة وهو قول من لم يعرف روحه فضلا عن روح غيره وقد خاطب الله سبحانه النفس بالرجوع والدخول والخروج ودلت النصوص الصحيحة الصريحة على أنها تصعد وتنزل وتقبض وتمسك وترسل وتستفتح لها أبواب السماء وتسجد وتتكلم وأنها تخرج تسيل كما تسيل القطرة وتكفن وتحنط فى أكفان الجنة والنار وأن ملك الموت يأخذها بيده ثم تتناولها الملائكة من يده ويشم لها كأطيب نفحة مسك أو أنتن جيفة وتشيع من سماء إلى سماء ثم تعاد إلى الأرض مع الملائكة وأنها إذا خرجت تبعها البصر بحيث يراها وهى خارجة ، ودل القرآن على أنها تنتقل من مكان إلى مكان حتى تبلغ الحلقوم فى حركتها ، وجميع ماذكرنا من جمع الأدلة الدالة على تلاقى الأرواح وتعارفها وأنها اجناد مجندة إلى غير ذلك تبطل هذا القول ، وقد شاهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم الارواح ليلة الاسراء عن يمين آدم وشماله وأخبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم ان نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة ، وأن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر ، وأخبر تعالى عن أرواح آل فرعون أنها تعرض على النار غدوا وعشيا .

ولما أورد ذلك على ابن الباقلانى لج فى الجواب وقال يخرج على هـذا أحد وجهين إما بأن يوضع عرض من الحياة فى أول جزء من أجزاء الجسم وإما أن يخلق لتلك الحيـاة والنعيم والعذاب جسد آخر .

وهذا قول فى غاية الفسـاد من وجوه كثيرة ، أى قول أفسد من قول من يجعل روح الإنسان عرضا من الاعراض تتبـدل كل ساعة الوفا من المرات فإذا فارقه هـذا العرض لم يكن بعد المفارقة روح تنعم ولا تعذب ولا تصعد ولا تنزل ولا تمسك ولا ترسل فهذا قول

مخالف للعقل ونصوص الكتاب والسنة والفطرة وهو قول من لم يعرف نفسه وسيأتى ذكر الوجوه الدالة على بطلان هذا القول فى موضعه من هذا الجواب إن شاء الله . وهو قول لم يقل به أحد من سلف الأمة ولا من الصحابة والتابعين ولا أئمة الإسلام .

فصـــل

وأما قول من قال إن مستقرها بعد الموت أبدان أخر غير هذه الأبدان فهذا القول فيه حق وباطل .

فاما الحق فما أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم عن أرواح الشهداء أنها فى حواصل طير خضر تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش هى لها كالأوكار للطائر ، وقد صرح بذلك فى قوله : جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر .

وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة يحتمل أن يكون هذا الطائر مركباً للروح كالبدن لها ويكون ذلك لبعض المؤمنين والشهداء، ويحتمل أن يكون الروح فى صورة طائر وهذا اختيار أبى محمد بن حزم وأبى عمر بن عبد البر ، وقد تقدم كلام أبى عمر والكلام عليه ، وأما ابن حزم فانه قال معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم نسمة المؤمن طائر يعلق ، هو على ظاهره لا على ظن أهل الجهل وإنما أخبر صلى الله عليه وآله وسلم أن نسمة المؤمن طائر يعلق بمعنى أنها تطير فى الجنة لا أنها تمسخ فى صورة الطير . قال فإن قيل إن النسمة مؤنثة . قلنا قد صح عن عربى فصيح أنه قال أتتك كتابى فاستخففت بها فقيل له أتؤنث الكتاب ؟ قال أوليس صحيفة وكذلك النسمة تذكر كذلك ، قال وأما الزيادة التى فيها أنها فى حواصل طير خضر فإنها صفة تلك القناديل التى تأوى اليها والحديثان معاً حديث واحد. وهذا الذى قاله فى غاية الفساد لفظا ومعنى فإن حديث نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة غير حديث أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر ، والذى ذكره محتمل فى الحديث الأول وأما الحديث الثانى فلا يحتمله بوجه فإنه صلى الله عليه وآله وسلم أخبر أن أرواحهم فى حواصل طير ، وفى لفظ فى أجواف طير خضر ، وفى لفظ بيض ، وان تلك الطير تسرح فى الجنة فتأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها ثم تأوى إلى قناديل تحت العرش هى لها كالأوكار للطائر ، وقوله أن حواصل تلك الطير هى صفة القناديل التى تأوى اليها خطأ قطعاً بل تلك القناديل مأوى لتلك الطير فهاهنا ثلاثة أمور صرح بها الحديث ، أرواح ، وطير هى فى أجوافها ، وقناديل هى مأوى لتلك الطير . والقناديل مستقرة تحت العرش لا تسرح والطير تسرح وتذهب وتجىء والأرواح فى أجوافها .

فإن قيل يحتمل أن تجعل نفسها فى صورة طير لا أنها تركب فى بدن طير كما قال تعالى (فى أى صورة ما شاء ركبك) ويدل عليه قوله فى اللفظ الآخر أرواحهم كطير خضر كذلك رواه ابن أبى شيبة حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله .

قال أبو عمر والذى يشبه عندى والله أعلم أن يكون القول قول من قال كطير أو صورة طير لمطابقته لحديثنا المذكور . يعنى حديث كعب بن مالك فى نسمة المؤمن .

فالجواب أن هذا الحديث قد روى بهذين اللفظين والذى رواه مسلم فى الصحيح من حديث الاعمش عن مسروق [1] فلم يختلف حديثها أنها فى أجواف طير خضر .

(وأما حديث ابن عباس) فقال عثمان بن أبى شيبة حدثنا عبد الله بن ادريس عن محمد ابن اسحاق عن اسماعيل بن أمية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أصيب اخوانكم يعنى يوم أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب مدلاة فى ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ اخواننا عنا انا أحياء فى الجنة نرزق لئلا ينكلوا عن الحرب ولا يزهدوا فى الجهاد ؟ فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى : (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) .

(وأما حديث كعب بن مالك) فهو فى السنن الاربعة ومسند أحمد ولفظه للترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان أرواح الشهداء فى طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو شجر الجنة . قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح ولا محذور فى هذا ولا يبطل قاعدة من قواعد الشرع ولا يخالف نصاً من كتاب ولا سنة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل هذا من تمام إكرام الله للشهداء أن أعاضهم من أبدانهم التى مزقوها لله أبداناً خيراً منها تكون مركباً لارواحهم ليحصل بها كمال تنعمهم فاذا كان يوم القيامة رد أرواحهم إلى تلك الابدان التى كانت فيها فى الدنيا .

---

[1] تأمل ، والذى فى صحيح مسلم عن يحيى بن يحيى وأبى بكر بن أبى شيبة عن أبى معاوية وعن ابن نمير عن أسباط وأبى معاوية . وعن اسحاق عن جرير وعيسى بن يونس ، كلهم عن الأعمش عن عبدالله بن مرة عن مسروق ولفظه « فى جوف طير خضر » لكن قال مسلم بعد ذكر ابن نمير « واللفظ له » .

فان قيل فهـــذا هو القول بالتناسخ وحلول الأرواح فى أبدان غير أبدانها التى كانت فيها .

قيل هذا المعنى الذى دلت عليه السنة الصريحة حق يجب اعتقاده ولايبطله تسمية المسمى له تناسخاً كما أن اثبات مادل عليه العقل والنقل من صفات الله عز وجل وحقائق أسمائه الحسنى حق لايبطله تسمية المعطلين لها تركيباً وتجسيما وكذلك مادل عليه العقل والنقل من اثبات أفعاله وكلامه بمشيئته ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا ومجيئه يوم القيامة للفصل بين عباده حق لايبطله تسمية المعطلين له حلول حوادث كما أن مادل عليه العقل والنقل من علو الله على خلقه ومباينته لهم واستوائه على عرشه وعروج الملائكة والروح اليه ونزولها من عنده وصعود الكلم الطيب إليه وعروج رسوله اليه ودنوه منه حتى صار قاب قوسين أوأدنى وغير ذلك من الأدلة حق لايبطله تسمية الجهمية له حيزاً وجهة وتجسيما .

قال الإمام أحمد « لانزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين » فان هذا شأن أهل البدع يلقبون أهل السنة وأقوالها بالألقاب التى ينفرون منها الجهال ويسمونها حشواً وتركيباً وتجسيما ويسمون عرش الرب تبارك وتعالى حيزاً وجهة ليتوصلوا بذلك إلى نفى علوه على خلقه واستوائه على عرشه كما تسمى الرافضة موالاة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم ومحبتهم والدعاء لهم نصباً وكما تسمى القدرية المجوسية اثبات القدر جبراً فليس الشأن فى الألقاب وإنما الشأن فى الحقائق والمقصود أن (تسمية [1]) مادلت عليه الصريحة من جعل أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر تناسخاً لايبطل هذا المعنى ، وإنما التناسخ الباطل ماتقوله أعداء الرسل من الملاحدة وغيرهم الذين ينكرون المعاد أن الأرواح تصير بعد مفارقة الأبدان إلى أجناس الحيوان والحشرات والطيور التى تناسبها وتشاكلها فاذا فارقت هذه الأبدان انتقلت إلى أبدان تلك الحيوانات فتنعم فيها أو تعذب ثم تفارقها وتحل فى أبدان أخر تناسب أعمالها وأخلاقها وهكذا أبداً فهـــذا معادها عندهم ونعيمها وعذابها لامعاد لها عندهم غير ذلك فهذا هو التناسخ الباطل المخالف لما اتفقت عليه الرسل والأنبياء من أولهم إلى آخرهم وهو كفر بالله واليوم الآخر وهذه الطائفة يقولون أن مستقر الارواح بعد المفارقة أبدان الحيوانات التى تناسبها . وهو أبطل قول وأخبثه ، ويليه قول من قال إن الارواح تعدم جملة بالموت ولاتبقى هناك روح تنعم ولاتعذب بل النعيم والعذاب يقع على أجزاء الجســـد أو جزء منه أما عجب أو غيره فيخلق الله فيه الألم واللذة اما بواسطة رد الحياة

---

[1] زدنا هذه الكلمة إذ لابد منها .

إليه كما قاله بعض أرباب هذا القول أوبدون رد الحياة كما قاله آخرون منهم ، فهؤلاء عندهم لاعذاب فى البرزخ إلا على الأجساد ، ومقابلهم من يقول أن الروح لاتعاد إلى الجسد بوجه ولاتتصل به والعذاب والنعيم على الروح فقط ، والسنة الصريحـــة المتواترة ترد قول هؤلاء وهؤلاء وتبين أن العذاب على الروح والجسد مجتمعين ومنفردين .

فإن قيل فقد ذكرتم أقوال الناس فى مستقر الأرواح ومأخذهم فما هو الراجح من هذه الأقوال حتى نعتقده ؟

قيل الأرواح متفاوتة فى مستقرها فى البرزخ أعظم تفاوت (فمنها) أرواح فى أعلى عليين فى الملا الاعلى وهى أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وهم متفاوتون فى منازلهم كما رآهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء .

(ومنها) أرواح فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت وهى أرواح بعض الشهداء لاجميعهم بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه أو غيره كما فى المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال يارسول الله مالى إن قتلت فى سبيل الله ؟ قال الجنة فلما ولى قال إلا الذى سارنى به جبريل آنفاً .

(ومنهم) من يكون محبوساً على باب الجنة كما فى الحديث الآخر رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنة .

(ومنهم) من يكون محبوساً فى قبره كحديث صاحب الشملة التى غلها ثم استشهد فقال الناس هنيئاً له الجنة فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم والذى نفسى بيده ان الشملة التى غلها لتشتعل عليه ناراً فى قبره .

(ومنهم) من يكون مقره باب الجنة كما فى حديث ابن عباس : الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية . رواه أحمد . وهذا بخلاف جعفر بن أبى طالب حيث أبدله الله من يديه جناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء .

(ومنهم) من يكون محبوساً فى الأرض لم تعل روحه إلى الملأ الأعلى فإنها كانت روحاً سفلية أرضية فان الأنفس الأرضية لاتجامع الأنفس السماوية كما لاتجامعها فى الدنيا والنفس التى لم تكتسب فى الدنيا معرفة ربها ومحبته وذكره والأنس به والتقرب اليه بل هى أرضية سفلية ، لاتكون بعد المفارقة لبدنها إلا هناك كما أن النفس العلوية التى كانت فى الدنيا عاكفة

على محبة الله وذكره والقرب اليه والانس به تكون بعد المفارقة مع الأرواح العلوية المناسبة لها فالمرء مع من أحب فى البرزخ ويوم القيامة والله تعالى يزوج النفوس بعضها ببعض فى البرزخ ويوم المعاد كما تقدم فى الحديث ويجعل روحه يعنى المؤمن مع النسم الطيب أى الارواح الطيبة المشاكلة فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأخواتها وأصحاب عملها فتكون معهم هناك .

(ومنها) أرواح تكون فى تنور الزناة والزوانى (وأرواح) فى نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة ، فليس للارواح سعيدها وشقيها مستقر واحد بل روح فى أعلى عليين ، وروح أرضية سفلية لاتصعد عن الارض .

وأنت إذا تأملت السنن والآثار فى هذا الباب وكان لك بها فضل اعتناء عرفت حجة ذلك ولاتظن أن بين الآثار الصحيحة فى هذا الباب تعارضاً فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً ، لكن الشأن فى فهمها ومعرفة النفس وأحكامها وان لها شأناً غير شأن البدن وأنها مع كونها فى الجنة فهى فى السماء وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه وهى أسرع شىء حركة وانتقالا وصعوداً وهبوطاً وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة وعلوية وسفلية ولها بعد المفارقة صحة ومرض ولذة ونعيم وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير ، فهنالك الحبس والالم والعذاب والمرض والحسرة ، وهنالك اللذة والراحة والنعيم والاطلاق وما أشبه حالها فى هذا البدن بحال ولد فى بطن أمه وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار .

فلهذه الأنفس أربع دور كل دار أعظم من التى قبلها :

(الدار الأولى) فى بطن الأم وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث .

(والدار الثانية) هى الدار التى نشأت فيها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر وأسباب السعادة والشقاوة .

(والدار الثالثة) دار البرزخ وهى أوسع من هذه الدار وأعظم بل نسبتها اليه كنسبة هذه الدار إلى الأولى .

(والدار الرابعة) دار القرار وهى الجنة أو النار فلا دار بعدها والله ينقلها فى هذه الدور طبقاً بعد طبق حتى يبلغها الدار التى لايصلح لها غيرها ولايليق بها سواها وهى التى خلقت لها وهيئت للعمل الموصل لها اليها ولها فى كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى فتبارك الله فاطرها ومنشئها وميتها ومحييها ومسعدها ومشقيها الذى فاوت بينها فى درجات سعادتها وشقاوتها كما فاوت بينها فى مراتب علومها وأعمالها وقواها وأخلاقها . فمن

عرفها كما ينبغى شهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك كله وله الحمد كله وبيده الخير كله واليه يرجع الأمر كله وله القوة كلها والقدرة كلها والعز كله والحكمة كلها والكمال المطلق من جميع الوجوه وعرف بمعرفة نفسه صدق أنبيائه ورسله وأن الذى جاءوا به هو الحق الذى تشهد به العقول وتقر به الفطر وماخالفه هو الباطل وبالله التوفيق .

المسألة السادسة عشرة

وهى هل تنتفع أرواح الموتى بشىء من سعى الاحياء أم لا ؟

(فالجواب) أنها تنتفع من سعى الاحياء بأمرين : بمجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير .

(أحدهما) ما تسبب إليه الميت فى حياته .

(والثانى) دعاء المسلمين له واستغفارهم له والصدقة والحج على نزاع ما الذى يصل من ثوابه هل ثواب الانفاق أوثواب العمل ؟ فعند الجمهور يصل ثواب العمل نفسه وعند بعض الحنفية إنما يصل ثواب الإنفاق .

واختلفوا فى العبادة البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر فذهب الإمام أحمد وجمهور السلف وصولها وهو قول بعض أصحاب أبى حنيفة نص على هذا الإمام أحمد فى رواية محمد بن يحيى الكحال قال قيل لابى عبد الله الرجل يعمل الشىء من الخير من صلاة أو صدقة أو غير ذلك فيجعل نصفه لابيه أو لأمه ؟ قال أرجو أو قال الميت يصل اليه كل شىء من صدقة أوغيرها وقال أيضاً اقرأ آية الكرسى ثلاث مرات وقل هو الله أحد وقل اللهم إن فضله لأهل المقابر .

والمشهور من مذهب الشافعى ومالك أن ذلك لايصل .

وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام أنه لايصل إلى الميت شىء البتة لادعاء ولاغيره .

فالدليل على انتفاعه بما تسبب إليه فى حياته مارواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية . أوعلم ينتفع به . أو ولد صالح يدعوله . فاستثناء هذه الثلاث من عمله يدل على أنها منه فانه هو الذى تسبب إليها .

(وفى سنن ابن ماجه) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم إنما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علما علمه ونشره أو ولداً صالحاً تركه أو مصحفاً ورثه أومسجداً بناه أو بيتاً لابن السبيل بناه أونهراً أكراه أو صدقةأخرجها من ماله فيصحته وحياته تلحقه منبعد موته .

(وفى صحيح مسلم) أيضاً من حديث جرير بنعبد الله قال : قال رسولالله صلى الله عليه وآله وسلم من سنفىالإسلام سنةحسنةفلهأجرهاوأجرمنعملبها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ؛ ومن سنفىالإسلامسنة سيئة كانعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء . وهذا المعنى روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من عدة وجوه صحاح وحسان .

(وفىالمسند) عن حذيفة قال سأل رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فامسك القومثم أنرجلا أعطاه فأعطىالقوم فقال النبي صلىالله عليه وآله وسلم من سنخيراً فاستن به كان له أجره ومن أجور منتبعه غير منتقصمنأجورهم شيئاً ومن سن شراً فاستن به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئاً .

وقد دل على هذا قوله صلى الله عليه وآله وسلملاتقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل فاذا كان هذا فى العذاب والعقاب ففى الفضل والثواب أولى وأحرى .

فصـــل

والدليل على انتفاعه بغير ما تسبب فيه القرآن والسنة والإجماع وقواعد الشرع .

(أما القرآن) فقوله تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) فأثنى الله سبحانه عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء .

وقد يمكن أن يقال إنما انتفعوا باستغفارهم لانهم سنوا لهم الإيمان بسبقهم إليه فلما اتبعوهم فيه كانوا كالمستنين فىحصوله لهم . لكن قد دلعلى انتفاع الميت بالدعاء إجماع الامة علىالدعاء له فىصلاة الجنازة .

(وفى السنن) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء .

(وفى صحيح مسلم) من حديث عوف بنمالك قال صلى الله عليه وآله وسلم علىجنازة فحفظت مندعائه وهو يقول اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله وأوسع

مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار .

(وفى السنن) عن واثلة بن الأسقع قال صلى الله عليه وآله وسلم على رجل من المسلمين فسمعته يقول اللهم ان فلانا ابن فلان فى ذمتك وحبل جوارك فقه من فتنة القبر وعذاب النار وأنت أهل الوفاء والحق فاغفر له وارحمه إنك الغفور الرحيم .

وهذا كثير فى الأحاديث بل هو المقصود بالصلاة على الميت وكذلك الدعاء له بعد الدفن.

(وفى السنن) من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه قال كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فانه الآن يسأل .

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم (كما فى صحيح مسلم) من حديث بريدة بن الخصيب قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية .

(وفى صحيح مسلم) أن عائشة رضى الله عنها سألت النبى صلى الله عليه وآله وسلم كيف نقول إذا استغفرت لاهل القبور ؟ قال قولى السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وانا ان شاء الله بكم للاحقون .

(وفى صحيحه) عنها أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج فى ليلتها من آخر الليل إلى البقيع فقال السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون غداً مؤجلون وانا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد .

ودعاء النبى صلى الله عليه وآله وسلم للأموات فعلا وتعليما ودعاء الصحابة والتابعين والمسلمين عصراً بعد عصر أكثر من أن يذكر وأشهر من أن ينكر وقد جاء ان الله يرفع درجة العبد فى الجنة فيقول أنى لى هذا فيقال بدعاء ولدك لك .

فصل

وأما وصول ثواب الصدقة (فى الصحيحين) عن عائشة رضى الله عنها أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال يارسول الله ان أمى افتلتت نفسها ولم توص وأظنها لو تكلمت تصدقت أفلها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال نعم .

(وفى صحيح البخارى) عن عبدالله بن عباس رضى الله عنهما أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال يارسول الله ان أمى توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها إن تصدقت عنها ؟ قال نعم قال فانى أشهدك أن حائطى المخراف صدقة عنها .

(وفى صحيح مسلم) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ان أبى مات وترك مالا ولم يوص فهل يكفى عنه أن أتصدق عنه ؟ قال نعم .

(وفى السنن ومسند أحمد) عن سعد بن عبادة أنه قال يارسول الله ان أم سعد ماتت فأى الصدقة أفضل ؟ قال الماء فحفر بئراً وقال هذه لأم سعد .

(وعن) عبد الله بن عمرو أن العاص بن وائل نذر فى الجاهلية أن ينحر مائة بدنة وأن هشام بن العاص نحر خمسة وخمسين وأن عمراً سأل النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال أما أبوك فلو أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك . رواه الإمام أحمد .

فصـــل

وأما وصول ثواب الصوم (ففى الصحيحين) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال من مات وعليه صيام صام عنه وليه .

(وفى الصحيحين) أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما قال جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال يارسول الله أمى ماتت وعليها صوم شهر أفأقضيه عنها ؟ قال نعم فدين الله أحق أن يقضى .

(وفى رواية) جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يارسول الله ان أمى ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها ؟ قال أفرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدى ذلك عنها ؟ قالت نعم قال فصومى عن أمك . وهذا اللفظ للبخارى وحده تعليقاً .

(وعن بريدة رضى الله عنه) قال بينا أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذ أتته امرأة فقالت إنى تصدقت على أمى بجارية وأنها ماتت فقال وجب أجرك وردها عليك الميراث فقالت يارسول الله انه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها ؟ قال صومى عنها ، قالت انها لم تحج قط أفأحج عنها ؟ قال حجى عنها . رواه مسلم . وفى لفظ صوم شهرين .

(وعن ابن عباس رضى الله عنهما) أن امرأة ركبت البحر فنذرت إن الله نجاها أن تصوم شهراً فنجاها الله فلم تصم حتى ماتت فجاءت بنتها أو أختها إلى رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم فأمرها أن تصوم عنها . رواه أهل السنن والإمام أحمد . وكذلك روى عنه صلى الله عليه وآله سلم وصول ثواب بدل الصوم وهو الاطعام .

(ففى السنن) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مات وعليه صيام شهر فليطعم عنه لكل يوم مسكين . رواه الترمذى وابن ماجه . قال الترمذى ولا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه والصحيح عن ابن عمر من قوله موقوفاً .

(وفى سنن أبى داود) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال إذا مرض الرجل فى رمضان ولم يصم أطعم عنه ولم يكن عنه قضاء وإن نذر قضى عنه وليه .

فصـــل

وأما وصول ثواب الحج ففى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقالت ان أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟ قال حجى عنها أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله فالله أحق بالقضاء .

وقد تقدم حديث بريدة وفيه أن أمى لم تحج قط أفأحج عنها ؟ قال حجى عنها .

(وعن ابن عباس رضى الله عنهما) قال ان امرأة سنان بن سلة الجهنى سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أمها ماتت ولم تحج أفيجزىء أن تحج عنها ؟ قال نعم لو كان على أمها دين فقضته عنها ألم يكن يجزىء عنها . رواه النسائى .

(وروى) أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة سألت النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن ابنها مات ولم يحج قال حجى عن ابنك .

(وروى) أيضاً عنه قال : قال رجل يانبى الله ان أبى مات ولم يحج أفأحج عنه ؟ قال أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضيه ؟ قال نعم ، قال فدين الله أحق . وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمته ولو كان من أجنبى أو من غير تركته . وقد دل عليه حديث أبى قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت فلما قضاهما قال له النبى صلى الله عليه وسلم الآن بردت عليه جلدته .

وأجمعوا على أن الحى إذا كان له فى ذمة الميت حق من الحقوق فأحله منه أنه ينفعه ويبرأ منه كما يسقط من ذمة الحى .

فاذا سقط من ذمة الحى بالنص والاجماع مع إمكان أدائه له بنفسه ولو لم يرض به بل

رده فســـقوطه من ذمة الميت بالابراء حيث لايتمكن من أدائه أولى وأحرى ، وإذا انتفع بالإبراء والاسقاط فكذلك ينتفع بالهبة والإهداء . ولافرق بينهما فإن ثواب العمل حق المهدى الواهب فإذا جعله للميت انتقل إليه ، كما أن ماعلى الميت من الحقوق من الدين وغيره هو محض حق الحى فإذا أبرأه وصل الإبراء اليه وسقط من ذمته فكلاهما حق للحى فأى نص أوقياس أو قاعدة من قواعد الشرع يوجب وصول أحدهما ويمنع وصول الآخر .

هذه النصوص متظاهرة على وصول ثواب الأعمال إلى الميت إذا فعلها الحى عنه وهذا محض القياس فإن الثواب حق للعامل فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك كما لم يمنع من هبة ماله فى حياته وإبرائه له من بعد موته .

وقد نبه النبى صلى الله عليه وآله وسلم بوصول ثواب الصوم الذى هو مجرد ترك ونية تقوم بالقلب لايطلع عليه إلا الله وليس بعمل الجوارح على وصول ثواب القراءة التى هى عمل باللسان تسمعه الأذن وتراه العين بطريق الأولى .

ويوضحه أن الصوم نية محضة وكف النفس عن المفطرات وقد أوصل الله ثوابه إلى الميت فكيف بالقراءة التى هى عمل ونية بل لاتفتقر إلى النية فوصول ثواب الصوم إلى الميت فيه تنبيه على وصول سائر الأعمال .

والعبادات قسمان : مالية ، وبدنية . وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصدقة قال على وصول ثواب سائر العبادات المالية ، ونبه بوصول ثواب الصـــوم على وصول ثواب سائر العبادات البدنية ، وأخبر بوصول ثواب الحج المركب من المالية والبدنية ، فالأنواع الثلاثة ثابتة بالنص والاعتبار وبالله التوفيق .

قال المانعون من الوصول قال الله تعالى (وأن ليس للانسان إلا ماسعى) وقال (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) وقال (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) . وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية عليه ، أو ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعد . فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب إليه فى الحياة ومالم يكن قد تسبب اليه فهو منقطع عنه .

وأيضاً لحديث أبى هريرة رضى الله عنه المتقدم وهو قوله إن مما يلحق الميت من عمله وحسناته بعد موته علما نشره . الحديث يدل على أنه إنما ينتفع بما كان قد تسبب فيه .

وكذلك حديث أنس يرفعه سبع يجرى على العبد أجرهن وهو فى قبره بعد موته من علم

علماً ، أو أكرى نهراً أوحفر بئراً ، أو غرس نخلا أو بنى مسجداً ، أو ورث مصحفاً ، أو ترك ولداً صالحاً يستغفر له بعد موته .

وهذا يدل على أن ماعدا ذلك لايحصل له منه ثواب وإلا لم يكن للحصر معنى .

قالوا والاهداء حوالة والحوالة إنما تكون بحق لازم والأعمال لاتوجب الثواب وإنما هو مجرد تفضل الله وإحسانه فكيف يحيل العبد على مجرد الفضل الذى لايجب على الله بل إن شاء آتاه وإن لم يشأ لم يؤته وهو نظير حوالة الفقير على من يرجو أن يتصدق عليه ، ومثل هذا لايصح إهداؤه وهبته كصلة ترجى من ملك لاتحقق حصولها .

(قالوا) وأيضاً فالايثار بأسباب الثواب مكروه وهو الإيثار بالقرب فكيف الإيثار بنفس الثواب الذى هو غاية فإذا كره الإيثار بالوسيلة فالغاية أولى وأحرى .

وكذلك كره الإمام أحمد التأخر عن الصف الأول وإيثار الغير به لما فيه من الرغبة عن سبب الثواب ، قال أحمد فى رواية حنبل وقد سئل عن الرجل يتأخر عن الصف الأول ويقدم أباه فى موضعه قال مايعجبنى هو يقدر أن يبر أباه بغير هذا .

(قالوا) أيضاً لوساغ الإهداء إلى الميت لساغ نقل الثواب والاهداء إلى الحى .

وأيضاً لو ساغ ذلك لساغ لهذا نصف الثواب وربعه وقيراط منه .

وأيضاً لوساغ ذلك لساغ إهداؤه بعد أن يعمله لنفسه وقد قلتم أنه لابد أن ينوى حال الفعل إهداءه إلى الميت وإلا لم يصل اليه فإذا ساغ له نقل الثواب ، فأى فرق بين أن ينوى قبل الفعل أو بعده .

وأيضاً لوساغ الإهداء لساغ إهداء ثواب الواجبات على الحى كما يسوغ إهداء ثواب التطوعات التى يتطوع بها .

(قالوا) وإن التكاليف امتحان وابتلاء لاتقبل البدل فإن المقصود منها عين المكلف العامل المأمور المنهى فلايبدل المكلف الممتحن بغيره ولاينوب غيره عنه فى ذلك أن المقصود طاعته هو نفسه وعبوديته ولو كان ينتفع باهداء غيره له من غير عمل منه لكان أكرم الأكرمين أولى بذلك وقد حكم سبحانه أنه لاينتفع إلا بسعيه وهذه سنته تعالى فى خلقه وقضاؤه كما هى سنته فى أمره وشرعه فإن المريض لاينوب عنه غيره فى شرب الدواء والجائع والظمآن والعارى لاينوب عنه غيره فى الأكل والشرب واللباس . قالوا ولو نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه .

(قالوا) ولهذا لايقبل الله إسلام أحد ولاصلاته عن صلاته فإذا كان رأس العبادات لايصح إهداء ثوابه فكيف فروعها .

قالوا وأما الدعاء فهو سؤال ورغبة إلى الله أن يتفضل على الميت ويسامحه ويعفو عنه وهذا إهداء ثواب عمل الحى اليه .

(قال) المقتصرون على وصول العبادات التى تدخلها النيابة كالصدقة والحج والعبادات نوعان : نوع لاتدخله النيابة بحال كالإسلام والصلاة وقراءة القرآن والصيام فهـــذا النوع يختص ثوابه بفاعله لايتعداه ولاينقل عنه كما أنه فى الحيـاة لايفعله أحد عن أحد ولا ينوب فيه عن فاعله غيره .

ونوع تدخله النيابة كرد الودائع وأداء الديون وإخراج الصدقة والحج فهذا يصل ثوابه إلى الميت لأنه يقبل النيابة ويفعله العبد عن غيره فى حياته فبعد موته بالطريق الأولى والأحرى.

قالوا وأما حديث من مات وعليه صيام صام عنه وليه ، فجوابه من وجوه :

(أحدها) ماقاله مالك فى موطئه قال لايصوم أحد عن أحد . قال وهو أمر مجمع عليه عندنا لاخلاف فيه .

(الثانى) أن ابن عباس رضى الله عنهما هو الذى روى حديث الصـوم عن الميت وقد روى عنه النسائى (أخبرنا) محمد بن عبدالأعلى حدثنا يزيد بن زريع حـدثنا حجاج الأحول حدثنا أيوب بن موسى عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لايصلى أحد عن أحد .

(الثالث) أنه حديث اختلف فى إسناده هكذا قال صاحب المفهم فى شرح مسلم .

(الرابع) أنه معارض بنص القرآن كما تقدم من قوله تعـالى : (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) .

(الخامس) أنه معارض بما رواه النسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لايصلى أحد عن أحد ولايصوم أحد عن أحد ولـكن يطعم عنه مكان كل يوم مدا من حنطة .

(السادس) أنه معارض بحديث محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من مات وعليه صوم رمضان يطعم عنه .

(السابع) أنه معارض بالقياس الجلى على الصلاة والإسلام والتوبة فان أحداً لا يفعلها عن أحد . قال الشافعى فيما تكلم به على خبر ابن عباس لم يسم ابن عباس ما كان نذر أم سعد فاحتمل أن يكون نذر حج أو عمرة أو صدقة فأمره بقضائه عنها فأما من نذر صلاة أو صياماً ثم مات فإنه يكفر عنه فى الصوم ولا يصام عنه ولا يصلى عنه ولا يكفر عنه فى الصلاة ثم قال فإن قيل أفاروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر أحد أن يصوم عن أحد ؟ قيل نعم روى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم . فإن قيل فلم لا تأخذ به ؟ قيل حديث الزهرى عن عبيد الله عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم نذراً ولم يسمه مع حفظ الزهرى وطول مجالسة عبيد الله لابن عباس فلما جاء غيره عن رجل عن ابن عباس بغير ما فى حديث عبيد الله أشبه أن لا يكون محفوظاً . فإن قيل فتعرف الرجل الذى جاء بهذا الحديث يغلط عن ابن عباس ؟ قيل نعم روى أصحاب ابن عباس عن ابن عباس أنه قال لابن الزبير أن الزبير حل من متعة الحج فروى هذا عن ابن عباس أنها متعة النساء وهذا غلط فاحش .

فهذا الجواب عن فعل الصوم . وأما فعل الحج فإنما يصل منه ثواب الانفاق وأما أفعال المناسك فهى كأفعال الصلاة إنما تقع عن فاعلها .

(قال) أصحاب الوصول ليس فى شىء مما ذكرتم ما يعارض أدلة الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة ومقتضى قواعد الشرع ونحن نجيب عن كل ما ذكرتموه بالعدل والإنصاف .

أما قوله تعالى (وأن ليس للانسان إلا ماسعى) فقد اختلفت طرق الناس فى المراد بالآية . فقالت طائفة المراد بالإنسان هاهنا الكافر وأما المؤمن فله ماسعى وماسعى له بالأدلة التى ذكرناها . قالوا وغاية ما فى هذا التخصيص وهو جائز إذا دل عليه الدليل .

وهذا الجواب ضعيف جداً ومثل هذا العام لا يراد به الكافر وحده بل هو للمسلم والكافر وهو كالعام الذى قبله وهو قوله تعالى (أن لا تزر وازرة وزر أخرى) .

والسياق كله من أوله إلى آخره كالصريح فى إرادة العموم لقوله تعالى (وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) وهذا يعم الشر والخير قطعاً ويتناول البر والفاجر والمؤمن والكافر كقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وكقوله فى الحديث الإلهى : ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه وهو كقوله تعالى (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) ولا تغتر بقود كثير من المفسرين فى لفظ الإنسان فى

القرآن الانسان هاهنا أبو جهل والإنسان هاهنا عقبة ابن أبي معيط والانسان هاهنا الوليد ابن المغيرة فالقرآن أجل من ذلك بل الإنسان هو الانسان من حيث هو من غير اختصاص بواحد بعينه كقوله تعالى (إن الانسان لفي خسر) و (إن الانسان لربه لكنود) و (إن الانسان خلق هلوعا) و (إن الإنسان ليطغى ان رآه استغنى) و (إن الإنسان لظلوم كفار) و (وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا) فهذا شأن الإنسان من حيث ذاته ونفسه وخروجه عن هذه الصفات بفضل ربه وتوفيقه له ومنته عليه لا من ذاته فليس له من ذاته إلا هذه الصفات وما به من نعمة فمن الله وحده فهو الذي حبب إلى عبده الإيمان وزينه في قلبه وكره اليه الكفر والفسوق والعصيان ، وهو الذي كتب في قلبه الإيمان . وهو الذي يثبت أنبياءه ورسله وأولياءه على دينه وهو الذي يصرف عنهم السوء والفحشاء . وكان يرتجز بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

وقد قال تعالى (وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله) وقال تعالى (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) ، (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) فهو رب جميع العالم ربوبية شاملة لجميع ما في العالم من ذوات وأفعال وأحوال .

(وقالت) طائفة الآية اخبار بشرع من قبلنا وقد دل شرعنا على أنه له ما سعى وما سعى له . وهذا أيضاً أضعف من الأول أو من جنسه فان الله سبحانه أخبر بذلك اخبار مقرر له محتج به لا اخبار مبطل له ولهذا قال (أم لم ينبأ بما في صحف موسى) فلو كان هذا باطلا في هذه الشريعة لم يخبر به اخبار مقرر له محتج به .

(وقالت) طائفة اللام بمعنى على أي وليس على الإنسان إلا ما سعى . وهذا أبطل من القولين الأولين فإنه قول موضوع الكلام إلى ضد معناه المفهوم منه ولا يسوغ مثل هذا ولا تحتمله اللغة . وأما نحو (ولهم اللعنة) فهي على بابها أي نصيبهم وحظهم وأما أن العرب تعرف في لغاتها لي درهم بمعنى على درهم فكلا .

(وقالت) طائفة في الكلام حذف تقديره (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) أو سعى له وهذا أيضاً من النمط الأول فإنه حذف مالا يدل السياق عليه بوجه وقول على الله وكتابه بلا علم .

(وقالت) طائفة أخرى الآية منسوخة بقوله تعالى (والذين آمنوا وأتبعتهم ذريتهم بإيمان الحقنا بهم ذريتهم) وهذا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما وهذا ضعيف أيضا

ولا يرفع حكم الآية بمجرد قول ابن عباس رضى الله عنهما ولا غيره أنها منسوخة والجمع بين الآيتين غير متعذر ولا ممتنع فان الابناء تبعوا الآباء فى الآخرة كما كانوا تبعالهم فى الدنيا وهذه التبعية هى من كرامة الآباء وثوابهم الذى نالوه بسعيهم وأما كون الابناء لحقوا بهم فى الدرجة بلا سعى منهم فهذا ليس هو لهم وإنما هو للآباء أقر الله أعينهم بإلحاق ذريتهم بهم فى الجنة وتفضل على الأبناء بشىء لم يكن لهم كما تفضل بذلك على الولدان والحور العين والخلق الذين ينشئهم للجنة بغير أعمال والقوم الذين يدخلهم الجنة بلا خير قدموه ولا عمل عملوه فقوله تعالى : (أن لا تزر وازرة وزر أخرى) وقوله : (وان ليس للانسان الا ما سعى) آيتان محكمتان يقتضيها عدل الرب تعالى وحكمته وكماله المقدس ، والعقل والفطرة شاهدان بهما فالأول تقتضى أنه لا يعاقب بجرم غيره والثانية تقتضى أنه لا يفلح إلا بعمله وسعيه فالأولى تؤمن العبد من أخذه بجريرة غيره كما يفعله ملوك الدنيا والثانية تقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه كما عليه أصحاب الطمع الكاذب فتأمل حسن اجتماع هاتين الآيتين .

ونظيره قوله تعالى : (من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى) — (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فحكم سبحانه لأعدائه بأربعة أحكام هى غاية العدل والحكمة .

(أحدها) ان هدى العباد بالإيمان والعمل الصالح لنفسه لا لغيره .

(الثانى) أن ضلاله بفوات ذلك وتخلفه عنه على نفسه لا على غيره .

(الثالث) أن أحداً لا يؤاخذ بجريرة غيره .

(الرابع) أنه لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه برسله فتأمل ما فى ضمن هذه الأحكام الأربعة من حكمته تعالى وعدله وفضله ، والرد على أهل الغرور والأطماع الكاذبة وعلى أهل الجهل بالله وأسمائه وصفاته .

وقالت طائفة أخرى المراد بالإنسان هاهنا الحى دون الميت وهذا أيضاً من التخط الأول فى الفساد .

وهذا كله من سوء التصرف فى اللفظ العام وصاحب هذا التصرف لا ينفذ تصرفه فى دلالات الألفاظ وحملها على خلاف موضوعها وما يتبادر إلى الذهن منها وهو تصرف فاسد قطعا يبطله السياق والاعتبار وقواعد الشرع وأدلته وعرفه وسبب هذا التصرف السيء أن صاحبه يعتقد قولا ثم يرد كلما دل على خلافه بأى طريق اتفقت له فالأدلة المخالفة لما

اعتقده عنده من باب المسائل لايبالى بأى شيء دفعه وأدلة الحق لاتتعارض ولا تتناقض بل يصدق بعضها بعضا .

(وقالت) طائفة أخرى وهو جواب أبى الوفاء بن عقيل ، قال الجواب الجيد عندى أن يقال الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء وأولد الأولاد ونكح الأزواج وأسدى الخير وتودد إلى الناس فترحموا عليه وأهدوا له العبادات وكان ذلك أثر سعيه كما قال صلى الله عليه وآله وسلم إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه . ويدل عليه قوله فى الحديث الآخر إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به من بعده وصدقة جارية عليه أو ولد صالح يدعو له . ومن هنا قول الشافعى إذا بذل له ولده طاعة الحج كان ذلك سببا لوجوب الحج عليه حتى كأنه فى ماله زاد وراحلة بخلاف بذل الأجنبي .

وهذا جواب متوسط يحتاج إلى تمام فإن العبد بإيمانه وطاعته لله ورسوله قد سعى فى انتفاعه بعمل إخوانه المؤمنين مع عمله كما ينتفع بعملهم فى الحياة مع عمله فإن المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض فى الاعمال التى يشتركون فيها كالصلاة فى جماعة فإن كل واحد منهم تضاعف صلاته إلى سبعة وعشرين ضعفا لمشاركة غيره له فى الصلاة فعمل غيره كان سبباً لزيادة أجره كما أن عمله سبب لزيادة أجر الآخر بل قد قيل إن الصلاة يضاعف ثوابها بعدد المصلين وكذلك اشتراكهم فى الجهاد والحج والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتعاون على البر والتقوى وقد قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه ومعلوم أن هذا بأمور الدين أولى منه بأمور الدنيا ، فدخول المسلم مع جملة المسلمين فى عقد الاسلام من أعظم الأسباب فى وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه فى حياته وبعد مماته ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم . وقد أخبر الله سبحانه عن حملة العرش ومن حوله أنهم يستغفرون للمؤمنين ويدعون لهم . وأخبر عن دعاء رسله واستغفارهم للمؤمنين كنوح وإبراهيم ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فالعبد بإيمانه قد تسبب إلى وصول هذا الدعاء إليه فكأنه من سعيه . يوضحه أن الله سبحانه جعل الإيمان سببا لانتفاع صاحبه بدعاء اخوانه من المؤمنين وسعيهم فاذا أتى به فقد سعى فى السبب الذى يوصل إليه وقد دل على ذلك قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم لعمرو بن العاص إن أباك لو كان أقر بالتوحيد نفعه ذلك يعنى العتق الذى فعل عنه بعد موته فلو أتى بالسبب لكان قد سعى فى عمل يوصل إليه ثواب العتق . وهذه طريقة لطيفة حسنة جداً .

وقالت طائفة أخرى القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعى غيره وإنما نفى ملكه لغير سعيه

وبين الأمرين من الفرق مالا يخفى فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه وأما سعى غيره فهو ملك لساعيه فان شاء أن يبذله لغيره ، وإن شاء أن يبقيه لنفسه وهو سبحانه لم يقل لاينتفع إلا بما سعى وكان شيخنا يختار هذه الطريقة ويرجحها .

فصـــل

وكذلك قوله تعالى (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وقوله (ولا تجزون الا ما كنتم تعملون) على أن هذه الآية أصرح فى الدلالة على أن سياقها وإنما ينفى عقوبة العبد بعمل غيره وأخذه بجريرته فان الله سبحانه قال (فاليوم لاتظلم نفس شيئاولاتجزون الاما كنتم تعملون) فنفى أن يظلم بأن يزاد عليه فى سيئاته أوينقص من حسناته أو يعاقب بعمل غيره ولم ينف أن ينتفع بعمل غـــيره لاعلى وجه الجزاء فان انتفاعه بما يهدى اليه ليس جزاء على عمله وإنما هو صدقة تصدق الله بها عليه وتفضل بها عليه من غير سعى منه بل وهبه ذلك على يد بعض عباده لا على وجه الجزاء .

فصـــل

وأما استدلالكم بقوله صلى الله عليه وآله وسلم إذا مات العبد انقطع عمله فاستدلال ساقط فانه صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل انقطع انتفاعه وانما أخبر عن انقطاع عمله وأما عمل غيره فهو لعامله فان وهبه له وصل اليه ثواب عمل العامل لاثواب عمله هو فالمنقطع شىء والواصل اليه شىء آخر وكذلك الحديث الآخر وهو قوله ان مما يلحق الميت من حسناته وعمله فلا ينفى أن يلحقه غير ذلك من عمل غيره وحسناته .

فصـــل

وأما قولكم الإهداء حوالة والحوالة إنما تكون بحق لازم ، فهذه حوالة المخلوق على المخلوق.

وأما حوالة المخلوق على الخالق فأمر آخر لايصح قياسها على حوالة العبيد بعضهم على بعض وهل هذا الا من أبطل القياس وأفسده والذى يبطله اجماع الامة على انتفاعه بأداء دينه وما عليه من الحقوق وابراء المستحق لذمته والصدقة والحج عنه بالنص الذى لاسبيل الى رده ودفعه وكذلك الصوم وهذه الاقيسة الفاسدة لاتعارض نصوص الشرع وقواعده .

فصـــل

وأما قولكم الايثار بسبب الثواب مكروه وهو مسألة الايثار بالقرب فكيف الايثار الثواب بنفس الذى هو الغايه فقد أجيب عنه بأجوبه .

(الجواب الأول) أن حال الحياة حال لا يوثق فيها بسلامة العاقبة لجواز أن يرتد الحي فيكون قد آثر بالقربة غير أهلها وهذا قد أمن بالموت . فان قيل والمهدى اليه أيضا قد لا يكون مات على الاسلام باطنا فلا ينتفع بما يهدى اليه وهذا سؤال فى غاية البطلان فان الاهداء له من جنس الصلاة عليه والاستغفار له والدعاء له فان كان أهلا وإلا انتفع به الداعى وحده.

(الجواب الثانى) أن الايثار بالقرب يدل على قلة الرغبة فيها والتأخر عن فعلها فلو ساغ الايثار بها لأفضى إلى التقاعد والتكاسل والتأخر ، بخلاف إهداء ثوابها فان العامل يحرص عليها لأجل ثوابها لينتفع به أو ينفع به أخاه المسلم فبينهما فرق ظاهر .

(الجواب الثالث) أن الله سبحانه وتعالى يحب المبادرة أو المسارعة إلى خدمته والتنافس فيها فان ذلك أبلغ فى العبودية فان الملوك تحب المسارعة والمنافسة فى طاعتها وخدمتها فالإيثار بذلك مناف لمقصود العبودية فان الله سبحانه امر عبده بهذه القربة إما إيجابا واما استحبابا فاذا أثر بها ترك ما أمره وولاه غيره بخلاف ما إذا فعل ما أمر به طاعة وقربة ثم أرسل ثوابه إلى أخيه المسلم وقد قال تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) وقال (فاستبقوا الخيرات) ومعلوم أن الإيثار بها ينافى الاستباق اليها والمسارعة .

وقد كان الصحابة يسابق بعضهم بعضا بالقرب ولا يؤثر الرجل منهم غيره بها ، قال عمر والله ما سابقنى أبو بكر إلى خير إلا سبقنى إليه — حتى قال والله لا أسابقك إلى خير أبدا .

وقد قال تعالى (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) يقال نافست فى الشىء منافسة ونفاساً إذا رغبت فيه على وجه المباراة ، ومن هذا قولهم شىء نفيس أى هو أهل أن يتنافس فيه ويرغب فيه وهذا أنفس مالى أى أحبه إلى وأنفسنى فلان فى كذا أى أرغبنى فيه ، وهذا كله ضد الإيثار به والرغبة عنه .

فصل

وأما قولكم لو ساغ الاهداء إلى الميت لساغ إلى الحى فجوابه من وجهين :

(أحدهما) أنه قد ذهب إلى ذلك بعض الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم قال القاضى وكلام أحمد لا يقتضى التخصيص بالميت فانه قال يفعل الخير ويجعل نصفه لأبيه وأمه ولم يفرق . واعترض عليه أبو الوفاء بن عقيل وقال هذا فيه بعد وهو تلاعب بالشرع وتصرف فى أمانة الله واتجال على الله سبحانه بثواب على عمل يفعله إلى غيره وبعد الموت قد جعل لنا طريقاً إلى إيصال النفع كالاستغفار والصلاة على الميت .

ثم أورد على نفسه سؤالا وهو فان قيل أليس قضاء الدين وتحمل الكل حال الحياة كقضائه بعد الموت فقد استوى ضمان الحياة وضمان الموت فى أنهما يزيلان المطالبة عنه فاذا وصل قضاء الديون بعد الموت وحال الحياة فاجعلوا ثواب الاهداء واصلا حال الحياة وبعد الموت .

وأجاب عنه بأنه لو صح هذا وجب أن تكون الذنوب تكفر عن الحى بتوبة غيره عنه ويندفع عنه مآثم الآخرة بعمل غيره واستغفاره .

قلت وهذا لايلزم بل طرد ذلك انتفاع الحى بدعاء غيره له واستغفاره له وتصدقه عنه وقضاء ديونه وهذا حق وقد أذن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى أداء فريضة الحج عن الحى المعضوب والعاجز وهما حيان .

وقد أجاب غيره من الأصحاب بأن حال الحياة لاتثق بسلامة العاقبة خوفا أن يرتد المهدى له فلا ينتفع بما يهدى اليه .

قال ابن عقيل وهذا عذر باطل باهداء الحى فإنه لايؤمن أن يرتد ويموت فيحبط عمله ومن جملته ثواب ما أهدى إلى الميت .

قلت هذا لايلزمهم وموارد النص والإجماع تبطله وترده فان النبى صلى الله عليه وآله وسلم أذن فى الحج والصوم عن الميت وأجمع الناس على براءة ذمته من الدين إذا قضاه عنه الحى مع وجود ما ذكر من الاحتمال .

والجواب أن يقال ما أهداه من أعمال البر إلى الميت فقد صار ملكا له فلا يبطل بردة فاعله بعد خروجه عن ملكه كتصرفاته التى تصرفها قبل الردة من عتق وكفارة بل لو حج عن معضوب ثم ارتد بعد ذلك لم يلزم المعضوب أن يقيم غيره يحج عنه فإنه لايؤمن فى الثانى والثالث ذلك .

على أن الفرق بين الحى والميت أن الحى ليس بمحتاج كحاجة الميت اذ يمكنه أن يباشر ذلك العمل أو نظيره فعليه اكتساب الثواب بنفسه وسعيه بخلاف الميت .

وأيضا فإنه يفضى إلى اتكال بعض الاحياء على بعض وهذه مفسدة كبيرة فان أرباب الأموال إذا فهموا ذلك واستشعروه استأجروا من يفعل ذلك عنهم فتصير الطاعات معاوضات وذلك يفضى إلى اسقاط العبادات والنوافل ويصير ما يتقرب به الى الله يتقرب به إلى الآدميين فيخرج عن الإخلاص فلا يحصل الثواب لواحد منهما .

ونحن نمنع من أخذ الاجرة على كل قربة ونحبط بأخذ الاجر عليها كالقضاء والفتيا وتعليم العلم والصلاة وقراءة القرآن وغيرها فلا يثيب الله عليها إلا لمخلص اخلص العمل لوجهه فإذا فعله للاجرة لم يثب عليه الفاعل ولا المستأجر ، فلا يليق بمحاسن الشرع أن يجعل العبادات الخالصة له معاملات تقصد بها المعاوضات والاكساب الدنيوية . وفارق قضاء الديون وضمانها فإنها حقوق الآدميين ينوب بعضهم فيها عن بعض فلذلك جازت فى الحياة وبعد الموت .

فصل

وأما قولكم لو ساغ ذلك لساغ اهداء نصف الثواب وربعه إلى الميت فالجواب من وجهين :

(أحدهما) منع الملازمة فإنكم لم تذكروا عليها دليلا إلا مجرد الدعوى .

(الثانى) التزام ذلك والقول به نص عليه الإمام احمد فى رواية محمد بن يحيى الكحال ووجه هذا أن الثواب ملك له فله أن يهديه جميعه وله أن يهدى بعضه . يوضحه انه لو أهداه إلى أربعة مثلا يحصل لكل منهم ربعه فإذا أهدى الربع وأبقى لنفسه الباقى جاز كما لو أهداه إلى غيره .

فصل

وأما قولكم لو ساغ ذلك لساغ اهداؤه بعد أن يعمله لنفسه وقد قلتم انه لابد أن ينوى حال الفعل اهداءه إلى الميت وإلا لم يصل .

فالجواب ان هذه المسألة غير منصوصة عن أحمد ولا هذا الشرط فى كلام المتقدمين من أصحابه وإنما ذكره المتأخرون كالقاضى وأتباعه .

قال ابن عقيل اذا فعل طاعة من صلاة وصيام وقراءة قرآن وأهداها بأن جعل ثوابها للميت المسلم فإنه يصل إليه ذلك وينفعه بشرط أن يتقدم نية الهدية على الطاعة أو تقارنها .

(وقال) أبو عبدالله بن حمدان فى رعايته ومن تطوع بقربة من صدقة وصلاة وصيام وحج وعمرة وقراءة وعتق وغير ذلك من عبادة بدنية تدخلها النيابة وعبادة مالية وجعل جميع ثوابها أو بعضه لميت مسلم حتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ودعا له أو استغفر له أو قضى ما عليه من حق شرعى أو واجب تدخله النيابة نفعه ذلك ووصل إليه أجره وقيل إن نواه حال فعله أو قبله وصل إليه وإلا فلا .

وسر المسألة أن أوان شرط حصول الثواب أن يقع لمن أهدى له أولا ويجوز أن يقع للعامل ثم ينتقل عنه إلى غيره ، فمن شرط أن ينوى قبل الفعل أو الفراغ منه وصوله قال

لو لم ينوه وقع الثواب للعامل فلا يقبل انتقاله عنه إلى غيره فإن الثواب يترتب على العمل ترتب الأثر على مؤثره . ولهذا لو أعتق عبداً عن نفسه كان ولاؤه له فلو نقل ولاؤه إلى غيره بعد العتق لم ينتقل بخلاف مالو أعتقه عن الغير فإن ولاءه يكون للمعتق عنه ، وكذلك لو أدى ديناً عن نفسه ثم أراد بعد الأداء أن يجعله عن غيره لم يكن له ذلك ، وكذلك لو حج أو صام أو صلى لنفسه ثم بعد ذلك أراد أن يجعل ذلك عن غيره لم يملك ذلك ويؤيد هذا أن الذين سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك لم يسألوه عن إهداء ثواب العمل بعده وإنما سألوه عما يفعلونه عن الميت كما قال سعد أينفعها أن أتصدق عنها ؟ ولم يقل أن أهدي لها ثواب ما تصدقت به عن نفسي . وكذلك قول المرأة الأخرى أفأحج عنها ؟ وقول الرجل الآخر أفأحج عن أبي ؟ فأجابهم بالاذن في الفعل عن الميت لا باهداء ثواب ما عملوه لأنفسهم إلى موتاهم فهذا لا يعرف أنه صلى الله عليه وآله وسلم سئل عنه قط ، ولا يعرف عن أحد من الصحابة أنه فعله وقال اللهم اجعل لفلان ثواب عملي المتقدم أو ثواب ما عملته لنفسي .

فهذا سر الاشتراط وهو أفقه ، ومن لم يشترط ذلك يقول الثواب للعامل فإذا تبرع به وأهداه إلى غيره كان بمنزلة ما يهديه إليه من ماله .

فصل

وأما قولكم لو ساغ الإهداء لساغ إهداء ثواب الواجبات التي تجب على الحي فالجواب أن هذا الإلزام محال على أصل من شرط في الوصول نية الفعل عن الميت فان الواجب لا يصح أن يفعله عن الغير فان هذا واجب على الفاعل يجب عليه أن ينوي به القربة إلى الله .

وأما من لم يشترط نية الفعل عن الغير فهل يسوغ عنده أن يجعل للميت ثواب فرض من فروضه ؟ فيه وجهان : قال أبو عبدالله بن حمدان وقيل إن جعل له ثواب فرض من الصلاة أو صوم أو غيرهما جاز وأجزأ فاعله .

قلت وقد نقل عن جماعة أنهم جعلوا ثواب أعمالهم من فرض ونفل للمسلمين وقالوا نلقى الله بالفقر والإفلاس المجرد والشريعة لا تمنع من ذلك ، فالأجر ملك العامل فان شاء أن يجعله لغيره فلا حجر عليه في ذلك . والله أعلم .

فصل

وأما قولكم إن التكاليف امتحان وابتلاء لا تقبل البدن إذ المقصود منها عين المكلف العامل إلى آخره .

فالجواب عنه أن ذلك لا يمنع إذن الشارع للمسلم أن ينفع أخاه بشيء من عمله . بل هذا من تمام إحسان الرب ورحمته لعباده ومن كمال هذه الشريعة التي شرعها لهم التي مبناها على العدل والإحسان والتعارف ، والرب تعالى أقام ملائكته وحملة عرشه يدعون لعباده المؤمنين ويستغفرون لهم ويسألونه لهم أن يقيهم السيئات وأمر خاتم رسله أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ويقيمه يوم القيامة مقاما محموداً ليشفع في العصاة من أتباعه وأهل سنته ، وقد أمره تعالى أن يصلي على أصحابه في حياتهم وبعد مماتهم ، وكان يقوم على قبورهم فيدعو لهم ، وقد استقرت الشريعة على أن المأثم الذي على الجميع بترك فروض الكفايات يسقط إذا فعله من يحصل المقصود بفعله ولو واحد ، وأسقط سبحانه الارتهان وحرارة الجلود في القبر بضمان الحي دين الميت وأدائه عنه وإن كان ذلك الوجوب امتحانا في حق المكلف وأذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحج والصيام عن الميت وإن كان الوجوب امتحانا في حقه ، وأسقط عن المأموم سجود السهو بصحة صلاة الإمام وخلوها من السهو وقراءة الفاتحة بتحمل الإمام لها فهو يتحمل عن المأموم سهوه وقراءته وسترته لقراءة الإمام وسترته قراءة لمن خلفه وسترة له ، وهل الإحسان إلى المكلف بإهداء الثواب اليه إلا تأس بإحسان الرب تعالى والله يحب المحسنين .

والخلق عيال الله فأحبهم اليه أنفعهم لعياله ، وإذ كان سبحانه يحب من ينفع عياله بشربة ماء ومذاقة لبن وكسرة خبز فكيف من ينفعهم في حال ضعفهم وفقرهم وانقطاع أعمالهم وحاجتهم إلى شيء يهدى إليهم أحوج ما كانوا اليه فأحب الخلق إلى الله من ينفع عياله في هذه الحال .

ولهذا جاء أثر عن بعض السلف أنه من قال كل يوم سبعين مرة رب اغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات حصل له من الأجر بعدد كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ، ولا تستبعد هذا فانه إذا استغفر لاخوانه فقد أحسن إليهم والله لا يضيع أجر المحسنين.

فصل

وأما قولكم انه لو نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه وإسلامه عنه .

فهذه الشبهة تورد على صورتين :

(صورة تلازم) يدعى فيها اللزوم بين الأمرين ثم يبين انتفاء اللازم فينتفي ملزومه وصورتها هكذا لو نفعه عمل الغير عنه لنفعه إسلامه وتوبته عنه لكن لا ينفعه ذلك فلا ينفعه عمل الغير .

(والصورة الثانية) أن يقال لاينتفع باسلام الغير وتوبته عنه فلاينتفع بصلاته وصيامه وقراءته عنه .

ومعلوم أن هذا التلازم والاقران باطل قطعاً .

(أما أولا) فلانه قياس مصادم لما تظاهرت به النصوص واجتمعت عليه الأمة .

(وأما ثانيا) فلانه جمع بين ما فرق الله بينه فان الله سبحانه فرق بين إسلام المرء عن غيره وبين صدقته وحجه وعتقه عنه فالقياس المسوى بينهما من جنس قياس الذين قا سوا الميتة على المذكى والربا على البيع .

(وأما ثالثاً) فان الله سبحانه جعل الإسلام سبباً لنفع المسلمين بعضهم بعضاً فى الحياة وبعد الموت فاذا لم يأت بسبب انتفاعه بعمل المسلمين لم يحصل له ذلك النفع كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم لعمرو إن أباك لو كان أقر بالتوحيد فصمت أو تصدقت عنه نفعه ذلك. وهذا كما جعل سبحانه الاسلام سبباً لانتفاع العبد بما عمل من خير فاذا فاته هذا السبب لم ينفعه خير عمله ولم يقبل منه كما جعل الإخلاص والمتابعة سبباً لقبول الأعمال فاذا فقد لم تقبل الأعمال ، وكما جعل الوضوء وسائر شروط الصلاة سبباً لصحتها فاذا فقدت فقدت الصحة وهذا شأن سائر الأسباب مع مسبباتها الشرعية والعقلية والحسية فمن سوى بين حالين وجود السبب وعدمه فهو مبطل .

ونظير هذا الهوس أن يقال لو قبلت الشفاعة فى العصاة لقبلت فى المشركين . ولو خرج أهل الكبائر من الموحدين من النار لخرج الكفار منها ، وأمثال ذلك من الأقيسة التى هى من نجاسات معد أصحابها ورجيع أفواههم .

وبالجملة فالاولى بأهل العلم الاعراض عن الاشتغال بدفع هذه الهذيانات لولا أنهم قد سودوا بها صحف الأعمال والصحف التى بين الناس .

فصل

وأما قولكم العبادات نوعان :

(نوع) تدخله النيابة فيصل ثواب إهدائه إلى الميت .

(ونوع) لاتدخله فلا يصل ثوابه .

فهذا هو نفس المذهب والدعوى فكيف تحتجون به ومن أين لكم هذا الفرق فأى كتاب أم أى سنة أم أى اعتبار دل عليه حتى يجب المصير اليه .

وقد شرع النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصوم عن الميت مع أن الصوم لا تدخله النيابة وشرع للأمة أن ينوب بعضهم عن بعض فى أداء فرض الكفاية فاذا فعله واحد ناب عن الباقين فى فعله وسقط عنهم المأثم وشرع لقيم الطفل الذى لا يعقل أن ينوب عنه فى الإحرام وأفعال المناسك وحكم له بالأجر بفعل نائبه .

وقد قال أبو حنيفة رحمه الله يحرم الرفقة عن المغمى عليه فجعلوا إحرام رفقته بمنزلة إحرامه . وجعل الشارع إسلام الأبوين بمنزلة إسلام أطفالهما وكذلك إسلام السابى والمالك على القول المنصوص فقد رأيت كيف عدت هذه الشريعة الكاملة أفعال البر من فاعلها إلى غيرهم فكيف يليق بها أن تحجر على العبد أن ينفع والديه ورحمه وإخوانه من المسلمين فى أعظم أوقات حاجاتهم بشىء من الخير والبر يفعله ويجعل ثوابه لهم ، وكيف يتحجر العبد إواسعاً أو يحجر على من لم يحجر عليه الشارع فى ثواب عمله أن يصرف منه ماشاء إلى من شاء من المسلمين ، والذى أوصل ثواب الحج والصدقة والعتق هو بعينه الذى يوصل ثواب الصيام والصلاة والقراءة والاعتكاف ، وهو إسلام المهدى اليه وتبرع المهدى وإحسانه وعدم حجر الشارع عليه فى الإحسان بل ندبه إلى الإحسان بكل طريق ، وقد تواطأت رؤيا المؤمنين وتواترت أعظم تواتر على أخبار الأموات لهم بوصول مايهدونه إليهم من قراءة وصلاة وصدقة وحج وغيره ولو ذكرنا ماحكى لنا من أهل عصرنا ومابلغنا عمن قبلنا من ذلك لطال جداً وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرى رؤياكم قد تواطأت على أنها فى العشر الأواخر فاعتبر صلى الله عليه وآله وسلم تواطؤ رؤيا المؤمنين وهذا كما يعتبر تواطؤ روايتهم لما شاهدوه فهم لا يكذبون فى روايتهم ولا فى رؤياهم إذا تواطأت .

فصل

وأما رد حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو قوله : من مات وعليه صيام صام عنه وليه ، بتلك الوجوه التى ذكرتموها فنحن ننتصر لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونبين موافقته للصحيح من تلك الوجوه وأما الباطل فيكفينا بطلانه من معارضته للحديث الصحيح الصريح الذى لا تغمز قناته ولا سبيل إلى مقابلته إلا بالسمع والطاعة والاذعان والقبول وليس لنا بعده الخيرة بل الخيرة وكل الخيرة فى التسليم له والقول به ولو خالفه من بين المشرق والمغرب .

فأما قولكم نرده بقول مالك فى موطئه : لا يصوم أحد عن أحد . فنازعوكم يقولون بل نرد قول مالك هذا بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأى الفريقين أحق بالصواب وأحسن ردا .

وأما قوله : وهو أمر مجمع عليه عندنا لاخلاف فيه . فمالك رحمه الله لم يحك إجماع الأمة من شرق الأرض وغربها وإنما حكى قول أهل المدينة فيما بلغه ولم يبلغه خلاف بينهم وعدم اطلاعه رحمه الله على الخلاف فى ذلك لايكون مسقطا لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بل لو أجمع عليه أهل المدينة كلهم لكان الأخذ بحديث المعصوم أولى من الأخذ بقول أهل المدينة الذين لم تضمن لنا العصمة فى قولهم دون الأمة ولم يجعل الله ورسوله أقوالهم حجة يجب الرد عند التنازع إليها بل قال الله تعالى : (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) .

وان كان مالك وأهل المدينة قد قالوا لايصوم أحد عن أحد فقد روى الحكم بن عتيبة وسلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه أفتى فى قضاء رمضان يطعم عنه وفى النذر يصام عنه .

وهذا مذهب الإمام أحمد وكثير من أهل الحديث وقول أبى عبيد وقال أبو ثور يصام عنه النذر وغيره وقال الحسن بن صالح فى النذر يصوم عنه وليه .

فصل

أما قولكم ابن عباس هو راوى حديث الصوم عن الميت وقد قال لايصوم أحد عن أحد . فغاية هذا أن يكون الصحابى قد أفتى بخلاف مارواه وهذا لا يقدح فى روايته فان روايته معصومة وفتواه غير معصومة ويجوز أن يكون نسى الحديث أو تأوله أو اعتقد له معارضا راجحا فى ظنه أو لغير ذلك من الأسباب على أن فتوى ابن عباس غير معارضة للحديث فإنه أفتى فى رمضان أنه لايصوم أحد عن أحد وأفتى فى النذر أنه يصام عنه . وليس هذا بمخالف لروايته بل حمل الحديث على النذر .

ثم إن حديث من مات وعليه صيام صام عنه وليه ، هو ثابت من رواية عائشة رضى الله عنها فهب أن ابن عباس خالفه فكان ماذا فخلاف ابن عباس لايقدح فى رواية أم المؤمنين بل رد قول ابن عباس برواية عائشة رضى الله عنها أولى من رد روايتها بقوله .

وأيضا فإن ابن عباس رضى الله عنهما قد اختلف عنه فى ذلك وعنه روايتان فليس اسقاط الحديث للرواية المخالفة له عنه أولى من اسقاطها بالرواية الأخرى بالحديث .

فصل

واما قولكم انه حديث اختلف فى إسناده فكلام مجازف لايقبل قوله فالحديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبا الصحيح ولم يختلف فى إسناده .

قال ابن عبد البر ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال من مات وعليه صيام صام عنه وليه ، وصححه الإمام احمد وذهب إليه وعلق الشـــافعي القول به على صحته فقال وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى الصوم عن الميت شيء فإن كان ثابتا صيم عنه كما يحج عنه . وقد ثبت بلا شك فهو مذهب الشافعي ، كذلك قال غير واحد من أئمة أصحابه ، قال البيهقي بعد حكايته هـذا اللفظ عن الشافعي قد ثبت جواز القضـاء عن الميت برواية سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وعن عكرمة عن ابن عباس وفى رواية أكثرهم ان امرأة سألت فأشبه أن تكون غير قصة أم سعد وفى رواية بعضهم صومى عن أمك وسيأتى تقرير ذلك عند الجواب عن كلامه رحمه الله .

وقولكم انه معارض بنص القرآن وهو قوله (وأن ليس للانسان إلا ماسعى) إساءة أدب فى اللفظ وخطأ عظيم فى المعنى وقد أعاذ الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن تعارض سنته لنصوص القرآن بل تعاضدها وتؤيدها وبالله مايصنع التعصب ونصرة التقليد ، وقـد تقدم من الـكلام على الآية مافيه كفاية وبينا أنها لاتعارض بينها وبين سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بوجه وإنما يظن التعارض من سوء الفهم وهذه طريقة وخيمة ذميمة وهى رد السنن الثابتة بما يفهم من ظاهر القرآن ، والعلم كل العـــلم تنزيل السنن على القرآن فإنها مشتقة منه ومأخوذة عمن جاء به وهى بيان له لا أنها مناقضة له .

وقولكم أنه معارض بما رواه النسائى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : لايصلى أحد عن أحد ولايصوم أحد عن أحد ولكن يطعم عنه كل يوم مد من حنطة . خطأ قبيح فإن النسائى رواه هكذا (أخبرنا) محمد بن عبد الأعلى حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حجاج الأحول حدثنا أيوب بن موسى عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لايصلى أحد عن أحد ولايصوم أحد عن أحد ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مد من حنطة . هكذا رواه قول ابن عباس لاقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف يعارض قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقول ابن عباس ثم يقدم عليه مع ثبوت الخلاف عن ابن عباس رضى الله عنهما ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل هذا الكلام قط وكيف يقوله وقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال من مات وعليه صيام صام عنه وليه . وكيف يقوله وقد قال فى حديث بريدة الذى رواه مسلم فى صحيحه أن امرأة قالت له إن أمى ماتت وعليها صوم شهر ؟ قال صومى عن أمك .

وأما قولكم انه معارض بحديث ابن عمر رضى الله عنهما ، من مات وعليه صـوم رمضان يطعم عنه . فمن هذا الخط فإنه حديث باطل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(قال) البيهقي حديث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مات وعليه صوم رمضان يطعم عنه . لايصح ومحمد بن عبد الرحمن كثير الوهم وإنما رواه أصحاب نافع عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما من قوله .

وأما قولكم أنه معارض بالقياس الجلي على الصلاة والإسلام والتوبة فإن أحدا لايفعلها عن أحد .

فلعمر الله انه لقياس جلي البطلان والفساد لرد سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصحيحة الصريحة له وشهادتها ببطلانه ، وقد أوضحنا الفرق بين قبول الإسلام عن الكافر بعد موته وبين انتفاع المسلم بما يهديه اليه أخوه المسلم من ثواب صيام أوصدقة أو صلاة ، ولعمر الله ان الفرق بينهما أوضح من أن يخفى وهل في القياس أفسد من قياس انتفاع المسلم بعد موته بما يهديه اليه أخوه المسلم من ثواب عمله على قبول الإسلام عن الكافر بعد موته أو قبول التوبة عن المجرم بعد موته .

فصل

(وأما كلام الشافعي) رحمه الله في تغليط راوي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن نذر أم سعد كان صوما . فقد أجاب عنه أنصر الناس له هو البيهقي ونحن نذكر كلامه بلفظه قال في (كتاب المعرفة) بعد أن حكى كلامه « قد ثبت جواز القضاء عن الميت برواية سعيد ابن جبير ومجاهد وعطاء وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما وفي رواية أكثرهم ان امرأة سألت فأشبه أن تكون غير قصة أم سعد وفي رواية بعضهم صومي عن أمك ، قال وتشهد له بالصحة رواية عبد الله بن عطاء المدني قال حدثني عبد الله بن بريدة الأسلمي عن أبيه قال كنت عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأتته امرأة فقالت يارسول الله إني كنت تصدقت بوليدة على أمي فماتت وبقيت الوليدة قال قد وجب أجرك ورجعت اليك في الميراث ، قالت فانها ماتت وعليها صوم شهر ؟ قال صومي عن أمك ، قالت وإنها ماتت ولم تحج ؟ قال فحجي عن أمك . رواه مسلم في صحيحه من أوجه عن عبد الله بن عطاء انتهى .

(قلت) وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يارسول الله ان أمي ماتت وعليها صيام شهر أفأقضيه عنها ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لو كان عليها دين أكنت قاضيه عنها ؟ قال نعم . قال فدين الله أحق أن يقضى .

ورواه أبو خيثمة حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة عن الأعمش . فذكره .

ورواه النسائى عن قتيبة بن سعيد حدثنا عبثر عن الأعمش . فذكره .

فهذا غير حديث أم سعد إسنادا ومتنا ؛ فان قصة أم سعد رواها مالك عن الزهرى عن عبيدالله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن سعد بن عبادة استفتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال إن أمى ماتت وعليها نذر ؟ فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم اقضه عنها . هكذا أخرجاه فى الصحيحين .

فهب أن هذا هو المحفوظ فى هذا الحديث أنه نذر مطلق لم يسم فهل يكون هذا فى حديث الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير على أن ترك استفصال النبى صلى الله عليه وآله وسلم لسعد فى النذر هل كان صلاة أو صدقة أو صياما مع أن الناذر قد ينذر هذا وهذا يدل على أنه لافرق بين قضاء نذر الصيام والصلاة وإلا لقال له ماهو النذر فان النذر إذا انقسم إلى قسمين نذر يقبل القضاء عن الميت ونذر لايقبله ، لم يكن من الاستفصال .

فصـــل

ونحن نذكر أقوال أهل العلم فى الصوم عن الميت لئلا يتوهم أن فى المسألة إجماعا بخلافه .

(قال) عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يصام عنه فى النذر ويطعم عنه فى قضاء رمضان وهذا مذهب الإمام أحمد .

(وقال) أبو ثور يصام عنه النذر والفرض ، وكذلك قال داود بن على وأصحابه يصام عنه نذرا كان أو فرضاً .

(وقال) الأوزاعى يجعل وليه مكان الصوم صدقة فان لم يجد صام عنه وهذا قول سفيان الثورى فى إحدى الروايتين عنه .

(وقال) أبو عبيد القاسم بن سلام يصام عنه النذر ويطعم عنه فى الفرض .

(وقال) الحسن إذا كان عليه صيام شهر فصام عنه ثلاثون رجلا يوما واحدا جاز .

فصـــل

وأما قولكم أنه يصل اليه فى الحج ثواب النفقة دون أفعال المناسك فدعوى مجردة بلا برهان والسنة تردها فان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال حج عن أبيك ، وقال للمرأة حجى عن أمك ، فأخبر أن الحج نفسه عن الميت ولم يقل ان الانفاق هو الذى يقع عنه .

وكذلك قال للذى سمعه يلبى عن شبرمة : حج عن نفسك ، ثم حج عن شبرمة .

ولما سألته المرأة عن الطفل الذى معها فقالت ألهذا حج ؟ قال نعم ، ولم يقل إنما له ثواب الانفاق بل أخبر أن له حجا مع أنه لم يفعل شيئاً بل وليه ينوب عنه فى أفعال المناسك .

ثم ان النائب عن الميت قد لا ينفق شيئاً فى حجته غير نفقة مقامه فما الذى يجعل نفقة ثواب نفقة مقامه المحجوج عنه وهو لم ينفقها على الحج بل تلك نفقته أقام أم سافر ، فهذا القول ترده السنة والقياس . والله أعلم .

فصـــل

فان قيل فهل تشترطون فى وصول الثواب ان يهديه بلفظه أم يكفى فى وصوله مجرد نية العامل أن يهديها إلى الغير ؟

قيل السنة لم تشترط التلفظ بالاهداء فى حديث واحـــد بل أطلق صلى الله عليه وآله وسلم الفعل عن الغير كالصوم والحج والصدقة ولم يقل لفاعل ذلك وقل اللهم هذا عن فلان ابن فلان والله سبحانه يعلم نية العبد وقصده بعمله فان ذكره جاز وإن ترك ذكره واكتفى بالنية والقصد وصل إليه ولا يحتاج أن يقول اللهم إنى صائم غدا عن فلان ابن فلان ، ولهذا والله أعلم اشترط من اشترط نية الفعل عن الغير قبله ليكون واقعا بالقصد عن الميت .

فاما إذا فعله لنفسه ثم نوى أن يجعل ثوابه للغير لم يصر للغير بمجرد النية كما لو نوى أن يهب أو يعتق أو يتصدق لم يحصل ذلك بمجرد النية .

ومما يوضح ذلك أنه لو بنى مكانا بنية ان يجعله مسجدا أو مدرسة أو ساقية ونحو ذلك صار وقفاً بفعله مع النية ولم يحتج إلى تلفظ .

وكذلك لو أعطى الفقير مالا بنية الزكاة سقطت عنه الزكاة وإن لم يتلفظ بها .

وكذلك لو أدى عن غيره ديناً حياً كان أو ميتاً سقط من ذمته وإن لم يقل هذا عن فلان.

فإن قيل فهل يتعين عليه تعليق الإهداء بأن يقول : اللهم إن كنت قبلت هذا العمل وأثبتنى عليه فاجعل ثوابه لفلان أم لا ؟

قيل لا يتعين ذلك لفظا ولا قصدا بل لا فائدة فى هذا الشرط فان الله سبحانه انما يفعل هذا سواء شرطه أو لم يشرطه . فلو كان سبحانه يفعل غير هذا بدون الشرط كان فى الشرط فائدة.

(وأما قوله) : اللهم ان كنت اثبتنى على هذا فاجعل ثوابه لفلان ، فهو بناء على ان الثواب يقع للعامل ثم ينتقل منه إلى من اهدى له ، وليس كذلك ، بل إذا نوى حال الفعل

انه عن فلان وقع الثواب أولا عن المعمول له كما لو أعتق عبده عن غيره لا نقول ان الولاء يقع للمعتق ثم ينتقل عنه إلى المعتق عنه فهكذا هذا . وبالله التوفيق .

فإن قيل فما الأفضل انه يهدى إلى الميت ؟ قيل الأفضل ما كان أنفع فى نفسه فالعتق عنه والصدقة أفضل من الصيام عنه ، وأفضل الصدقة ما صادفت حاجة من المتصدق عليه وكانت دائمة مستمرة ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم افضل الصدقة سقى الماء وهذا فى موضع يقل فيه الماء ويكثر فيه العطش وإلا فسقى الماء على الأنهار والقنى لا يكون أفضل من إطعام الطعام عند الحاجة وكذلك الدعاء والاستغفار له إذا كان بصدق من الداعى واخلاص وتضرع فهو فى موضعه أفضل من الصدقة عنه كالصلاة على الجنازة والوقوف للدعاء على قبره .

وبالجملة فأفضل ما يهدى إلى الميت العتق والصدقة والاستغفار له والدعاء له والحج عنه .

وأما قراءة القرآن واهداؤها له تطوعا بغير أجرة فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج .

فإن قيل فهذا لم يكن معروفا فى السلف ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير ولا ارشدهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم اليه وقد أرشدهم إلى الدعاء والاستغفار والصدقة والحج والصيام فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدهم اليه ولكانوا يفعلونه .

فالجواب أن مورد هذا السؤال ان كان معترفا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء والاستغفار .

قيل له ما هذه الخاصية التى منعت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب القرآن واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات ، وان لم يعترف بوصول تلك الأشياء إلى الميت فهو محجوج بالكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع .

وأما السبب الذى لأجله لم يظهر ذلك فى السلف فهو أنهم لم يكن لهم أوقاف على من يقرأ ويهدى إلى الموتى ولا كانوا يعرفون ذلك البتة ولا كانوا يقصدون القبر للقراءة عنده[1] كما يفعله الناس اليوم ولا كان أحدهم يشهد من حضره من الناس على أن ثواب هذه القراءة لفلان الميت بل ولا ثواب هذه الصدقة والصوم .

---

[1] قلت : قد مر فى أول هذا الكتاب عن الشعبى قال كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا إلى قبره يقرءون القرآن .

ثم يقال لهذا القائل لو كلفت أن تنقل عن واحد من السلف أنه قال اللهم ثواب هذا الصوم لفلان لعجزت ، فإن القوم كانوا أحرص شيء على كتمان أعمال البر فلم يكونوا ليشهدوا على الله بايصال ثوابها إلى أمواتهم .

فإن قيل فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرشدهم إلى الصوم والصدقة والحج دون القراءة .

قيل هو صلى الله عليه وآله وسلم لم يبتدئهم بذلك بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم فهذا سأله عن الحج عن ميته فاذن له ، وهذا سأله عن الصيام عنه فاذن له ، وهذا سأله عن الصدقة فاذن له ، ولم يمنعهم مما سوى ذلك .

وأى فرق بين وصول ثواب الصوم الذى هو مجرد نية وإمساك بين وصول ثواب القراءة والذكر .

والقائل أن أحداً من السلف لم يفعل ذلك قائل مالا علم له به فإن هذه شهادة على نفى مالم يعلمه فما يدريه أن السلف كانوا يفعلون ذلك ولا يشهدون من حضرهم عليه ، بل يكفى اطلاع علام الغيوب على نياتهم ومقاصدهم لاسيما والتلفظ بنية الاهداء لايشترط كما تقدم .

وسر المسألة أن الثواب ملك للعامل فإذا تبرع به وأهداه إلى أخيه المسلم أوصله الله اليه ، فما الذى خص من هذا ثواب قراءة القرآن وحجر على العبد أن يوصله إلى أخيه ، وهذا عمل سائر الناس حتى المنكرين فى سائر الأعصار والأمصار من غير نكير من العلماء .

فإن قيل فما تقولون فى الإهداء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قيل من الفقهاء المتأخرين من استحبه ومنهم من لم يستحبه ورآه بدعة فان الصحابه لم يكونوا يفعلونه وأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم له أجر كل من عمل خيراً من أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شيء لأنه هو الذى دل أمته على كل خير وأرشدهم ودعاهم إليه ، ومن دعا إلى هدى فله من الاجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، وكل هدى وعلم فإنما نالته أمته على يده فله مثل أجر من اتبعه أهداه اليه أو لم يهده . والله أعلم .

المسألة السابعة عشرة

وهى هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة ؟

وإذا كانت محدثة مخلوقة وهى من أمر الله فكيف يكون أمر الله محدثا مخلوقا؟ وقد أخبر سبحانه أنه نفخ فى آدم من روحه فهذه الإضافة اليه هل تدل على أنها قديمة أم لا ؟ وما حقيقة هذه الإضافة ؟ فقد أخبر عن آدم أنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه فأضاف اليد والروح اليه إضافة واحدة .

فهذه مسألة زل فيها عالم ، وضل فيها طوائف من بنى آدم . وهدى الله اتباع رسوله فيها للحق المبين والصواب المستبين ، فأجمعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة . هذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث ، وأن معاد الأبدان واقع ، وأن الله وحده الخالق وكل ماسواه مخلوق له ، وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون الفضيلة على ذلك من غير اختلاف بينهم فى حدوثها وأنها مخلوقة حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه فى الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق ، وبأن الله تعالى أضافها اليه كما أضاف اليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده وتوقف آخرون فقالوا لانقول مخلوقة ولاغير مخلوقة .

وسئل عن ذلك حافظ أصبهان أبو عبد الله بن منده فقال أما بعد فان سائلا سألنى عن الروح التى جعلها الله سبحانه قوام نفس الخلق وأبدانهم وذكر أن أقواما تكلموا فى الروح وزعموا أنها غير مخلوقة وخص بعضهم منهـا أرواح القدس وأنها من ذات الله ، قال وأنا أذكر اختلاف أقاويل متقدميهم وأبين مايخالف أقاويلهم من الكتاب والاثر وأقاويل الصحابة والتابعين وأهل العلم ، وأذكر بعد ذلك وجوه الروح من الكتاب والاثر وأوضح خطأ المتكلم فى الروح بغير علم وأن كلامهم يوافق قول جهم وأصحابه . فنقول وبالله التوفيق أن الناس اختلفوا فى معرفة الأرواح ومحلها من النفس .

(فقال) بعضهم الأرواح كلها مخلوقة ، وهذا مذهب أهل الجماعة والاثر واحتجوا بقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منهـا اختلف ، والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة .

(وقال) بعضهم الأرواح من أمر الله أخفى الله حقيقتها وعلمها عن الخلق واحتجوا بقول الله تعالى (قل الروح من أمر ربى) .

(وقال) بعضهم الأرواح نور من أنوار الله تعالى وحياة من حياته واحتجت بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم إن الله خلق خلقه فى ظلمة وألقى عليهم من نوره . ثم ذكر الخلاف فى الأرواح هل تموت أم لا ؟ وهل تعذب مع الأجساد فى البرزخ وفى مستقرها بعد الموت ؟ وهل هى النفس أو غيرها .

(وقال) محمد بن نصر المروزى فى كتابه تأول صنف من الزنادقة وصنف من الروافض فى روح آدم ما تأولته النصارى فى روح عيسى وما تأوله قوم من أن الروح انفصل من ذات الله فصار فى المؤمن فعبد صنف من النصارى عيسى ومريم جميعاً لأن عيسى عندهم روح من الله صار فى مريم فهو غير مخلوق عندهم .

وقال صنف من الزنادقة وصنف من الروافض أن روح آدم مثل ذلك أنه غير مخلوق وتأولوا قوله تعالى (ونفخت فيه من روحى) وقوله تعالى (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) فزعموا أن روح آدم ليس بمخلوق كما تأول من قال إن النور من الرب غير مخلوق ، قالوا ثم صاروا بعد آدم فى الوصى بعده ثم هو فى كل نبى ووصى إلى أن صار فى على ثم فى الحسن والحسين ثم فى كل وصى وإمام فيه يعلم الإمام كل شىء ولا يحتاج أن يتعلم من أحد .

ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التى فى آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بنى آدم كلها مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكونها واخترعها ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف اليه سائر خلقه قال تعالى (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية روح الآدمى مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد ابن نصر المروزى الإمام المشهور الذى هو من أعلم أهل زمانه بالإجماع ولا اختلاف وكذلك أبو محمد بن قتيبة قال فى (كتاب اللفظ) لما تكلم على الروح قال النسم الأرواح . قال وأجمع الناس على أن الله تعالى هو فالق الحبة وبارىء النسمة أى خالق الروح . وقال ابو اسحاق ابن شاقلا فيما أجاب به فى هذه المسألة سألت رحمك الله عن الروح مخلوقة هى أو غير مخلوقة ؟ قال وهذا مما لا يشك فيه من وفق للصواب أن الروح من الأشياء المخلوقة ، وقد تكلم فى هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ وردوا على من يزعم انها غير مخلوقة ، وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده فى ذلك كتابا كبيراً ، وقبله الإمام محمد بن نصر المروزى وغيره والشيخ أبو سعيد الخراز وأبو يعقوب النهرجورى والقاضى أبو يعلى وقد نص على ذلك الأئمة الكبار واشتد نكيرهم على من يقول ذلك فى روح عيسى ابن مريم فكيف بروح

غيره كما ذكره الإمام أحمد فيما كتبه فى مجلسه فى الرد على الزنادقة والجهمية ، ثم أن الجهمى ادعى أمرا فقال أنا أجد آية فى كتاب الله مما يدل على أن القرآن مخلوق قول الله تعالى (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) وعيسى مخلوق ، قلنا له إن الله تعالى منعك الفهم للقرآن ان عيسى تجرى عليه ألفاظ لاتجرى على القرآن لأنا نسميه مولوداً وطفلا وصبياً وغلاماً يأكل ويشرب وهو مخاطب بالأمر والنهى يجرى عليه الخطاب والوعد والوعيد ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم فلا يحل لنا أن نقول فى القرآن ما نقول فى عيسى فهل سمعتم الله يقول فى القرآن ماقال فى عيسى ؟ ولكن المعنى فى قوله تعالى (إن المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) فالكلمة التى ألقاها إلى مريم حين قال له كن، فكان عيسى بكن وليس عيسى هو كن ولكن كان بكن . فكن من الله قول وليس كن مخلوقا وكذبت النصارى والجهمية على الله فى أمر عيسى وذلك أن الجهمية قالوا روح الله وكلمته إلا أن كلمته مخلوقة . وقالت النصارى عيسى روح الله وكلمته من ذاته كما يقال هذه الخرقة من هذا الثواب قلنا نحن أن عيسى بالكلمة كان وليس عيسى هو الكلمة وإنما الكلمة قول الله تعالى كن وقوله (وروح منه) يقول من أمره كان الروح فيه كقوله تعالى (وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه) يقول من أمره وتفسير روح الله إنما معناها بكلمة الله خلقها كما يقال عبد الله وسماء الله وأرض الله فقد صرح بأن روح المسيح مخلوقة فكيف بسائر الأرواح وقد أضاف الله اليه الروح الذى أرسله إلى مريم وهو عبده ورسوله ولم يدل على ذلك أنه قديم غير مخلوق فقال تعالى (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا ، قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكياً) فهذا الروح هو روح الله وهو عبده ورسوله .

وسنذكر إن شاء الله تعالى أقسام المضاف إلى الله وأنى يكون المضاف صفة له قديمة وانى يكون مخلوقا وماضابط ذلك .

فصـــل

والذى يدل على خلقها وجوه :

(الوجه الأول) قول الله تعالى (الله خالق كل شىء) فهذا اللفظ عام لاتخصيص فيه بوجه ما ولايدخل فى ذلك صفاته فانها داخلة فى مسمى باسمه فالله سبحانه هو الإله الموصوف بصفات الكمال فعلمه وقدرته وحياته وإرادته وسمعه وبصره وسائر صفاته داخل فى مسمى اسمه ليس داخلا فى الأشياء المخلوقة كما لم تدخل ذاته فيها فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وماسواه مخلوق.

ومعلوم قطعاً أن الروح ليست هى الله ولا صفة من صفاته وإنما هى مصنوع من مصنوعاته فوقوع الخلق عليها كوقوعه على الملائكة والجن والإنس .

(الوجه الثانى) قوله تعالى لزكريا (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) وهذا الخطاب لروحه وبدنه ليس لبدنه فقط فإن البدن وحده لا يفهم ولا يخاطب ولا يعقل وإنما الذى يفهم ويعقل ويخاطب هو الروح .

(الوجه الثالث) قوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) .

(الوجه الرابع) قوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) وهذا الاخبار انما يتناول أرواحنا وأجسادنا كما يقوله الجمهور واما أن يكون واقعا على الأرواح قبل خلق الأجساد كما يقوله من يزعم ذلك ، وعلى التقدير فهو صريح فى خلق الأرواح .

(الوجه الخامس) النصوص الدالة على أنه سبحانه ربنا ورب آبائنا الأولين ورب كل شىء وهذه الربوبية شاملة لأرواحنا وأبداننا فالأرواح مربوبة له مملوكة كما ان الاجسام كذلك وكل مربوب مملوك فهو مخلوق .

(الوجه السادس) أول سورة فى القرآن وهى الفاتحة تدل على ان الأرواح مخلوقة من عدة أوجه . احدها قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) والأرواح من جملة العالم فهو ربها .

(الثانى) قوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) فالأرواح عابدة له مستعينة ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعانا بها .

(الثالث) انها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم .

(الرابع) أنها منعم عليها مرحومة ومغضوب عليها وضالة شقية وهذا شأن المربوب والمملوك لا شأن القديم غير المخلوق .

(الوجه السابع) النصوص الدالة على أن الانسان عبد بجملته وليست عبوديته واقعة على بدنه دون روحه بل عبودية الروح أصل وعبودية البدن تبع كما أنه تبع لها فى الاحكام وهى التى تحركه وتستعمله وهو تبع لها فى العبودية .

(الوجه الثامن) قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئاً مذكوراً فانه إنما هو إنسان بروحه لا ببدنه فقط كما قيل :

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... أنت بالروح لا بالجسم إنسان

(الوجه التاسع) النصوص الدالة على أن الله سبحانه كان ولم يكن شيء غيره كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمران بن حصين أن أهل اليمن قالوا يارسول الله جئناك لنتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر ، فقال كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء فلم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوي وجودها وجوده تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً بل هو الأول وحده لايشاركه غيره في أوليته بوجه .

(الوجه العاشر) النصوص الدالة على خلق الملائكة وهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها وهم مخلوقون قبل خلق الانسان وروحه فإذا كان الملك الذي تحدث الروح في جسد ابن آدم بنفخته مخلوقا فكيف تكون الروح الحادثة بنفخه قديمة ؟ وهؤلاء الغالطون يظنون ان الملك يرسل إلى الجنين بروح قديمة أزلية ينفخها فيه كما يرسل الرسول بثوب إلى الإنسان يلبسه إياه وهذا ضلال وخطأ وإنما يرسل الله سبحانه إليه الملك فينفخ فيه نفخة تحدث له الروح بواسطة تلك النفخة فتكون النفخة هي سبب حصول الروح وحدوثها له كما كان الوطء والانزال سبب تكوين جسمه ، والغذاء سبب نموه ، فمادة الروح من نفخة الملك ومادة الجسم من صب الماء في الرحم ، فهذه مادة سماوية وهذه مادة أرضية فمن الناس من تغلب عليه المادة السماوية فتصير روحه علوية شريفة تناسب الملائكة ومنهم من تغلب عليه المادة الأرضية فتصير روحه سفلية ترابية مهينة تناسب الأرواح السفلية فالملك أب لروحه والتراب أب لبدنه وجسمه .

(الوجه الحادي عشر) حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي في صحيح البخاري وغيره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة ، وهذا الحديث رواه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبو هريرة وعائشة أم المؤمنين وسلمان الفارسي وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن مسعود وعبد الله بن عمرو وعلي بن أبي طالب وعمرو بن عبسة رضي الله عنهم .

(الوجه الثاني عشر) أن الروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال وهذا شأن المخلوق المحدث المربوب قال الله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) والأنفس هاهنا هي الأرواح قطعاً . وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن أبي قتادة الأنصاري عن أبيه قال سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سفر ذات ليلة فقلنا يارسول الله لو عرست بنا ، فقال إني أخاف أن تناموا فمن يوقظنا للصلاة؟ فقال بلال أنا يارسول الله فعرس بالقوم فاضطجعوا واستند بلال إلى راحلته فغلبته عيناه فاستيقظ

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد طلع جانب الشمس فقال يابلال أين ماقلت لنا ؟ فقال والذى بعثك بالحق ما القيت على نومة مثلها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء فهذه الروح المقبوضة هى النفس التى يتوفاها الله حين موتها وفى منامها التى يتوفاها ملك الموت ، وهى التى تتوفاها رسل الله سبحانه وهى التى يجلس الملك عند رأس صاحبها ويخرجها من بدنه كرها ويكفنها بكفن من الجنة أو النار ويصعد بها إلى السماء فتصلى عليها الملائكة أو تلعنها وتوقف بين يدى ربها فيقضى فيها أمره ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بين الميت وأكفانه فيسأل ويمتحن ويعاقب وينعم ، وهى التى تجعل فى أجواف الطير الخضر تأكل وتشرب من الجنة ، وهى التى تعرض على النار غدوا وعشياً ، وهى التى تؤمن وتكفر وتطيع وتعصى ، وهى الأمارة بالسوء وهى اللوامة وهى المطمئنة إلى ربها وأمره وذكره ، وهى التى تعذب وتنعم وتسعد وتشقى وتحبس وترسل وتصح وتسقم وتلذ وتألم وتخاف وتحزن وما ذاك إلا سمات مخلوق مبدع ، وصفات منشأ مخترع ، وأحكام مربوب مدبر مصرف تحت مشيئة خالقه وفاطره وبارئه وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول عند نومه : اللهم أنت خلقت نفسى وأنت توفاها ، لك مماتها ومحياها فإن أمسكتها فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ، وهو تعالى بارىء النفوس كما هو بارىء الأجساد قال تعالى (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) قيل من قبل أن نبرأ المصيبة وقيل من قبل أن نبرأ الأرض ، وقيل من قبل ان نبرأ الأنفس وهو أولى لأنه أقرب مذكور إلى الضمير ، ولو قيل يرجع إلى الثلاثة أى من قبل أن نبرأ المصيبة والأرض والأنفس لكان أوجه .

وكيف تكون قديمة مستغنية عن خالق محدث مبدع لها وشواهد الفقر والحاجة والضرورة أعدل شواهد على أنها مخلوقة مربوبة مصنوعة وأن وجود ذاتها وصفاتها وأفعالها من ربها وفاطرها ليس لها من نفسها إلا العدم ، فهى لاتملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ولا موتا ولا حياة ولا نشوراً ، لاتستطيع أن تأخذ من الخير إلا ما أعطاها وتتقى من الشر إلا ماوقاها ولا تهتدى إلى شىء من صالح دنياها وأخراها إلا بهداه ، وتصلح إلا بتوفيقه لها وإصلاحه إياها ، ولا تعلم إلا ما علمها ، ولا تتعدى ما ألهمها ، فهو الذى خلقها فسواها وألهمها فجورها وتقواها ، فأخبر سبحانه أنه خالقها ومبدعها وخالق أفعالها من الفجور والتقوى خلافا لمن يقول انها ليست مخلوقة ولمن يقول انها وإن كانت مخلوقة فليس خالقاً لأفعالها بل هى التى تخلق أفعالها وهما قولان لأهل الضلال والغى .

ومعلوم انها لو كانت قديمة غـــير مخلوقة لكانت مستغنية بنفسها فى وجودها وصفاتها وكمالها وهذا من ابطل الباطل . فإن فقرها اليه سبحانه فى وجودها وكمالها وصلاحها هو من لوازم ذاتها ليس معللا بعلة فإنه أمر ذاتى لها كما أن غنى ربها وفاطرها ومبدعها من لوازم ذاته ليس معللا بعلة فهو سبحانه الغنى بالذات وهى الفقيرة اليه بالذات فلا يشاركه سبحانه فى غناه مشارك كما لا يشاركه فى قدمه وربوبيته وملكه التام . وكماله المقدس مشارك ، فشواهد الخلق والحدوث على الأرواح كشواهده على الأبدان .

قال تعالى (ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) وهذا الخطاب بالفقر اليه للارواح والأبدان ليس هو للأبدان فقط ، وهذا الغنى التام لله وحده لايشركه فيه غيره وقد أرشد الله سبحانه عباده إلى أوضح دليل على ذلك بقوله (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب اليه منكم ولكن لاتبصرون ، فلولا ان كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين) أى فلولا ان كنتم غير مملوكين ومقهورين ومربوبين ومجازين بأعمالكم تردون الأرواح إلى الأبدان إذا وصلت إلى هذا الموضع أو لاتعلمون بذلك أنها مدينة مملوكة مربوبة محاسبة مجزية بعملها .

وكلما تقدم ذكره فى هذا الجواب من أحكام الروح وشأنها ومستقرها بعد الموت فهو دليل على أنها مخلوقة مربوبة مدبرة ليست بقديمة .

وهذا الأمر أوضح من أن تساق الأدلة عليه ولولا ضلال من المتصوفة وأهل البدع ومن قصر فهمه فى كتاب الله وسنة رسوله فأتى من سوء الفهم لامن النص تكلموا فى أنفسهم وأرواحهم بمادل على أنهم من أجهل الناس بها ، وكيف يمكن من له أدنى مسكة من عقل أن ينكر أمرا تشهد عليه به نفسه وصفاته وأفعاله وجوارحه وأعضاؤه بل تشهد به السموات والأرض والخليقة فلله سبحانه فى كل ماسواه آية بل آيات تدل على أنه مخلوق مربوب وأنه خالقه وربه وبارؤه ومليكه ولو جحد ذلك فمه شاهد عليه .

فصـــل

وأما مااحتجت به هذه الطائفة فأما ما أتوا به من اتباع متشابه القرآن والعدول عن محكمه فهذا شأن كل ضلال ومبتدع .

فمحكم القرآن من أوله إلى آخره يدل على أن الله تعالى خالق الأرواح ومبدعها .

وأما قوله تعالى (قل الروح من أمر ربى) فمعلوم قطعاً أنه ليس المراد هاهنا بالأمر الذى هو أحد أنواع الكلام فيكون المراد أن الروح كلامه الذى يأمر به ، وإنما المراد

بالأمر هاهنا المأمور وهو عرف مستعمل فى لغة العرب وفى القرآن منه كثير كقوله تعالى (أتى أمر الله) أى مأموره الذى قدره وقضاه وقال له كن فيكون ، وكذلك قوله تعالى (فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك) أى مأموره الذى أمر به من اهلاكهم ، وكذلك قوله تعالى (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر) وكذلك الخلق يستعمل بمعنى المخلوق كقوله تعالى للجنة أنت رحمتى فليس فى قوله تعالى (قل الروح من أمر ربى) مايدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما ، وقد قال بعض السلف فى تفسيرها جرى بأمر الله فى أجساد الخلق وبقدرته استقر .

وهذا بناء على أن المراد بالروح فى الآية روح الإنسان وفى ذلك خلاف بين السلف والخلف وأكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسئول عنها فى الآية ليست أرواح بنى آدم بل هو الروح الذى أخبر الله عنه فى كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة وهو ملك عظيم ، وقد ثبت فى الصحيح من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال بينا أنا أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى حرة المدينة وهو متكىء على عسيب فررنا على نفر من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح ، وقال بعضهم لاتسألوه عسى أن يخبر فيه بشىء تكرهونه وقال بعضهم نسأله فقام رجل فقال يا أبا القاسم ماالروح ؟ فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعلمت أنه يوحى اليه فقمت فلما تجلى عنه قال(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

ومعلوم أنهم إنما سألوه عن أمر لا يعرف إلا بالوحى وذلك هو الروح الذى عند الله لا يعلمها الناس .

وأما أرواح بنى آدم فليست من الغيب وقد تكلم فيها طوائف من الناس من أهل الملل وغيرهم فلم يكن الجواب عنها من أعلام النبوة .

(فإن قيل) فقد قال أبو الشيخ حدثنا الحسين بن محمد بن إبراهيم أنبأنا ابراهيم بن الحكم عن أبيه عن السدى عن أبى مالك عن ابن عباس قال بعثت قريش عقبة بن أبى معيط وعبد الله ابن أبى أمية بن المغيرة إلى يهود المدينة يسألونهم عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا لهم انه قد خرج فينا رجل يزعم أنه نبى وليس على ديننا ولا على دينكم ، قالوا فمن تبعه ؟ قالوا سفلتنا والضعفاء والعبيد ومن لاخير فيه وأما أشراف قومه فلم يتبعوه ، فقالوا انه قد أظل زمان نبى يخرج وهو على ماتصفون من أمر هذا الرجل فائتوه فاسألوه عن ثلاث خصال تأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبى صادق ، وإن لم يخبركم بهن فهو كذاب ، سلوه عن الروح التى نفخ الله تعالى فى آدم فان قال لكم هى من الله فقولوا كيف يعذب الله فى النار شيئا هو

منه ؟ فسأل جبريل عنها فأنزل الله عز وجل (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) يقول : هو خلق من خلق الله ليس هو من الله . ثم ذكر باقي الحديث .

قيل مثل هذا الاسناد لايحتج به فانه من تفسير السدى عن أبي مالك وفيه أشياء منكرة وسياق هذه القصة في السؤال من الصحاح والمسانيد كلها تخالف سياق السدى ، وقد رواها الأعمش والمغيرة بن مقسم عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال مر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ملأ من اليهود وأنا أمشي معه فسألوه عن الروح قال فسكت فظننت أنه يوحى اليه فنزلت (ويسألونك عن الروح) يعني اليهود (قل الروح من أمر ربي وما أوتوا [1] من العلم إلا قليلا).

وكذلك هي في قراءة عبد الله فقالوا كذلك نجد مثله في التوراة أن الروح من أمر الله عز وجل . رواه جرير بن عبد الحميد وغيره عن المغيرة .

(وروى) يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال أتت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسألوه عن الروح فلم يجبهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشيء فأنزل الله عز وجل (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

فهذا يدل على ضعف حديث السدى وأن السؤال كان بمكة فان هذا الحديث وحديث ابن مسعود صريح في أن السؤال كان بالمدينة مباشرة من اليهود ولو كان قد تقدم السؤال والجواب بمكة لم يسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولبادر إلى جوابهم بما تقدم من اعلام الله له وما أنزله عليه .

وقد اضطربت الروايات عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أعظم اضطراب فاما أن تكون من قبل الرواة أو تكون أقواله قد اضطربت فيها ونحن نذكر ذلك فقد ذكرنا رواية السدى عن أبي مالك عنه ، ورواية داود بن أبي هند عن عكرمة عنه تخالفها ، وفي رواية داود بن أبي هند هذه اضطراب فقال مسروق بن المرزبان وابراهيم بن أبي طالب عن يحيى ابن زكريا عنه أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم . الحديث .

(وقال) محمد بن نصر المروزي حدثنا اسحاق أنبأنا يحيى بن زكريا عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال قالت قريش لليهود أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرجل فقالوا سلوه عن الروح فنزلت (ويسألونك عن الروح) الآية .

---

[1] هكذا قرأها عبد الله كما في كتب التفسير . وكان في الأصل : وما أوتيتم . على القراءة المشهورة .

وهذا يخالف الرواية الأخرى عنه وحديث ابن مسعود .

وعن ابن عباس رواية ثالثة قال هشيم حدثنا أبو بشر عن مجاهد عن ابن عباس قل الروح أمر من أمر الله عز وجل وخلق من خلق الله وصور مثل صور بني آدم وما نزل من السماء ملك إلا ومعه واحد من الروح . وهذا يدل على أنها غير الروح التي في ابن آدم .

وعنه رواية رابعة قال ابن منده روى عبد السلام بن حرب عن خصيف عن مجاهد عن ابن عباس (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) قد نزل من القرآن بمنزلة كن نقول كما قال تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) ثم ساق من طريق خصيف عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان لا يفسر أربعة أشياء الرقيم والغسلين والروح .

وقوله تعالى (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) .

وعنه رواية خامسة رواها جويبر عن الضحاك عنه أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الروح فقال قال الله تعالى (قل الروح من أمر ربي) يعني خلقاً من خلقي (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) يعني لو سئلتم عن خلق أنفسكم وعن مدخل الطعام والشراب ومخرجهما ما وصفتم ذلك حق صفته وما اهتديتم لصفتها .

وعنه رواية سادسة روى عبد الغني بن سعيد حدثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ، وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى (ويسألونك عن الروح) وذلك أن قريشاً اجتمعت فقال بعضهم لبعض والله ما كان محمد يكذب ولقد نشأ فينا بالصدق والأمانة فأرسلوا جماعة إلى اليهود فاسألوهم عنه وكانوا مستبشرين به ويكثرون ذكره ويدعون نبوته ويرجون نصرته موقنين بأنه سيهاجر اليهم ويكونون له أنصاراً فسألوهم عنه فقالت لهم اليهود سلوه عن ثلاث ، سلوه عن الروح وذلك أنه ليس في التوراة قصته ولا تفسيره إلا ذكر اسم الروح فأنزل الله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) يريد من خلق ربي عز وجل .

والروح في القرآن على عدة أوجه :

(أحدها) الوحي كقوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) وقوله تعالى (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده) وسمى الوحي روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح .

(الثاني) القوة والثبات والنصرة التي يؤيد بها من شاء من عباده المؤمنين كما قال (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) .

(الثالث) جبريل كقوله تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقال تعالى (من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله) وهو روح القدس قال تعالى (قل نزله روح القدس) .

(الرابع) الروح التى سأل عنها اليهود فاجيبوا بأنها من أمر الله وقد قيل أنها الروح المذكورة فى قوله تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون) وأنها الروح المذكور فى قوله (تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم) .

(الخامس) المسيح ابن مريم قال تعالى (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) وأما أرواح بنى آدم فلم تقع تسميتها فى القرآن إلا بالنفس قال تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة) وقال تعالى (ولا أقسم بالنفس اللوامة) وقال تعالى (إن النفس لامارة بالسوء) وقال تعالى (أخرجوا أنفسكم) وقال تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) وقال تعالى (كل نفس ذائقة الموت) وأما فى السنة فجاءت بلفظ النفس والروح .

والمقصود أن كونها من أمر الله لا يدل على قدمها وأنها غير مخلوقة .

فصـــل

وأما استدلالهم باضافتها اليه سبحانه بقوله تعالى (ونفخت فيه من روحى) فينبغى أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان ، صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر ، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها فعله وكلامه وإرادته وقدرته وحياته وصفات له غير مخلوقة وكذلك وجهه ويده سبحانه .

(والثانى) اضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح ، فهذه اضافة مخلوق الى خالقه ومصنوع الى صانعه لكنها إضافة تقتضى تخصيصا وتشريفا يتميز به المضاف عن غيره كبيت الله وإن كانت البيوت كلها ملكا له وكذلك ناقة الله والنوق كلها ملكه وخلقه لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضى محبته لها وتكريمه وتشريفه بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضى خلقه وإيجـــاده ، فالإضافة العامة تقتضى الإيجاد والخاصة تقتضى الاختيار والله يخلق ما يشاء ويختار ممـــا خلقه كما قال تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار) واضافة الروح اليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة ولا من باب إضافة الصفات فتأمل هذا الموضع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس فان قيل فما تقولون فى قوله تعالى (ونفخت فيه من روحى) فأضاف النفخ إلى نفسه وهذا يقتضى المباشرة منه تعالى كما فى قوله (خلقت بيدى) ولهذا فرق بينهما فى الذكر فى الحديث الصحيح فى قوله صلى

الله عليه وآله وسلم فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء . فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره ولو كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك وكان بمنزلة المسيح بل وسائر أولاده فان الروح حصلت فيهم من نفخة الملك وقد قال الله تعالى : (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي) فهو الذي سواه بيده وهو الذي نفخ فيه من روحه ؟ .

قيل هذا الموضع الذي أوجب لهذه الطائفة أن قالت بقدم الروح ، وتوقف فيها آخرون. ولم يفهموا مراد القرآن . فأما الروح المضافة إلى الرب فهي روح مخلوقة أضافها إلى نفسه إضافة تخصيص وتشريف كما بينا . وأما النفخ فقد قال تعالى في مريم (التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) وقد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك فنفخ في فرجها وكان النفخ مضافاً إلى الله أمرا وإذناً وإلى الرسول مباشرة .

يبقى ههنا أمران :

(أحدهما) أن يقال فإذا كان النفخ حصل في مريم من جهة الملك وهو الذي ينفخ الارواح في سائر البشر فما وجه تسمية المسيح روح الله ؟ وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح فاخاصية المسيح ؟ .

(الثاني) أن يقال فهل تعلق الروح بآدم كانت بواسطة نفخ هذا الروح هو الذي نفخها فيه باذن الله كما نفخها في مريم أم الرب تعالى هو الذي نفخها بنفسه كما خلقه بيده ؟ قيل لعمر الله انهما سؤالان مهمان ! فأما الأول فالجواب عنه أن الروح الذي نفخ في مريم هو الروح المضاف إلى الله الذي اختصه لنفسه وأضافه إليه وهو روح خاص من بين سائر الأرواح وليس بالملك الموكل بالنفخ في بطون الحوامل من المؤمنين والكفار فان الله سبحانه وكل بالرحم ملكا ينفخ الروح في الجنين فيكتب رزق المولود وأجله وعمله وشقاوته وسعادته .

وأما هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذي اصطفاه من الأرواح لنفسه فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع فان نفخته لما دخلت في فرجها كان ذلك بمنزلة لقاح الذكر للأنثى من غير أن يكون هناك وطء وأما ما اختص به آدم فانه لم يخلق كخلقة المسيح من أم ولا كخلقة سائر النوع من أب وأم ولا كان الروح الذي نفخ الله فيه منه هو الملك الذي ينفخ الروح في سائر أولاده ، ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص وإنما ذكر في الحديث ما اختص به على غيره وهو أربعة أشياء خلق الله له بيده ونفخ فيه من روحه ، واسجاد ملائكته له ، وتعليمه أسماء كل شيء فنفخه فيه من روحه يستلزم نافخاً ونفخاً ومنفوخاً منه فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله فمنها سرت النفخة في طينة آدم والله تعالى هو الذي نفخ في طينته من

تلك الروح هذا هو الذى دل عليه النص . وأما كون النفخة بمباشرة منه سبحانه كما خلقه بيده أو أنها حصلت بأمره كما حصلت فى مريم عليها السلام فهذا يحتاج إلى دليل . والفرق بين خلق الله له بيده ونفخه فيه من روحه أن اليد غير مخلوقة والروح مخلوقة والخلق فعل من أفعال الرب وأما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغيره المنفصلة عنه ؟ وهذا مما لا يحتاج إلى دليل ، وهذا بخلاف النفخ فى فرج مريم فانه مفعول من مفعولاته وأضافه إليه لأنه باذنه وأمره فنفخه فى آدم هل هو فعل له أو مفعول وعلى كل تقدير فالروح الذى نفخ منها فى آدم روح مخلوقة غير قديمة وهى مادة روح آدم فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة وهو المراد .

المسألة الثامنة عشرة

وهى تقدم خلق الأرواح على الأجساد أو تأخر خلقها عنها

فهذه المسألة للناس فيها قولان معروفان حكاهما شيخ الإسلام وغيره . وممن ذهب إلى تقدم خلقها محمد بن نصر المروزى وأبو محمد بن حزم وحكاه ابن حزم إجماعا . ونحن نذكر حجج الفريقين وما هو الأولى منها بالصواب .

قال من ذهب إلى تقدم خلقها على خلق البدن قال الله تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) قالوا ثم للترتيب والمهلة فقد تضمنت الآية أن خلقها مقدم على أمر الله للملائكة بالسجود لآدم ومن المعلوم قطعاً أن أبداننا حادثة بعد ذلك فعلم أنها الأرواح . قالوا ويدل عليه قوله سبحانه (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) قالوا وهذا الاستنطاق والاشهاد إنما كان لأرواحنا إذ لم تكن الأبدان حينئذ موجودة . ففى الموطأ (حدثنا) مالك عن زيد ابن أبى أنيسة أن عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسأل عنها فقال خلق الله آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ، وخلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون فقال رجل يارسول الله ففيم العمل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن الله إذا خلق الرجل للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار . قال الحاكم هذا حديث على شرط مسلم

وروى الحاكم أيضاً من طريق هشام بن سعد [1] عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعا لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة امثال الذر ، ثم جعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور . ثم عرضهم على آدم فقال من هؤلاء يارب ؟ قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم أعجبه وبيص مابين عينيه فقال يارب من هذا ؟ فقال هذا ابنك داود يكون فى آخر الأمم قال كم جعلت له من العمر ؟ قال ستين سنة قال يارب زده من عمرى أربعين سنة ، فقال الله تعالى إذا يكتب ويختم فلا يبدل فلما انقضى عمر آدم جاء ملك الموت قال أو لم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ فقال أولم تجعلها لابنك داود؟ قال فجحد فجحدت ذريته ونسى فنسيت ذريته وخطىء فخطئت ذريته — قال هذا على شرط مسلم . ورواه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح . ورواه الامام أحمد من حديث ابن عباس قال لما نزلت آية الدين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان أول من جحد آدم . وزاد محمد بن سعد ثم أكمل الله لآدم الف سنة ولداود مائة سنة .

وفى صحيح الحاكم أيضاً من حديث أبى جعفر الرازى حدثنا الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية قال جمعهم له يومئذ جميعاً ماهو كائن إلى يوم القيامة فجعلهم أرواحا ثم صورهم واستنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) قال فانى أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم (أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) فلا تشركوا فى شيئاً فانى أرسل اليكم رسلى يذكرونكم عهدى وميثاقى وأنزل عليكم كتبى ، فقالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ، ورفع لهم أبوهم آدم فرأى فيهم الغنى والفقير وحسن الصورة وغير ذلك ، فقال رب لو سويت بين عبادك ، فقال انى أحب أن أشكر ، ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج وخصوا بميثاق آخر بالرسالة والنبوة فذلك قوله (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) وهو قوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وهو قوله تعالى (هذا نذير من النذر الأولى) وقوله تعالى (وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) وكان روح عيسى من تلك الأرواح التى أخذ عليها الميثاق فأرسل ذلك الروح إلى مريم حين انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فدخل من فيها وهذا اسناد صحيح .

---

[1] فى الأصل : زيد . خطأ والحديث فى المستدرك — ج ٢ ص ٣٢٥

(فقال) اسحاق بن راهويه حدثنا بقية بن الوليد قال أخبرنى الزبيدى محمد بن الوليد عن راشد بن سعد عن عبد الرحمن بن قتادة البصرى عن أبيه عن هشام بن حكيم بن حزام أن رجلا قال يارسول الله أتبتدأ الأعمال أم قد مضى القضاء ؟ فقال ان الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم فى كفيه فقال هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار ، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار .

(قال) اسحاق وأنبأنا النضر حدثنا أبو معشر عن سعيد المقبرى ونافع مولى الزبير عن أبى هريرة قال لما أراد الله أن يخلق آدم — فذكر خلق آدم — فقال له يا آدم أى يدى أحب اليك أن أريك ذريتك فيها ؟ فقال يمين ربى وكلتا يدى ربى يمين فبسط يمينه فاذا فيها ذريته كلهم ماهو خالق إلى يوم القيامة الصحيح على هيئته والمبتلى على هيئته والأنبياء على هيئتهم فقال ألا أعفيتهم كلهم ، فقال انى أحب ان أشكر . وذكر الحديث .

(وقال) محمد بن نصر حدثنا محمد بن يحيى حدثنا سعيد بن أبى مريم أخبرنا الليث بن سعد حدثنى ابن عجلان عن سعد بن أبى سعيد المقبرى عن أبيه عن عبدالله بن سلام قال خلق الله آدم ثم قال بيديه فقبضهما فقال اختر يا آدم فقال اخترت يمين ربى وكلتا يديه يمين ، فبسطها فاذا فيها ذريته ، فقال من هؤلاء يارب ؟ قال من قضيت أن اخلق من ذريتك من أهل الجنة إلى أن تقوم الساعة .

(قال) واخبرنا اسحاق حدثنا جعفر بن عون أنبأنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبى هريره رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة .

وحدثنا اسحاق وعمرو بن زرارة أخبرنا اسماعيل عن كلثوم بن جبر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية قال مسح ربك ظهر آدم فخرجت منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة بنعمان هذا الذى رواه عرفة فأخذ ميثاقهم (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) .

ورواه أبو جمرة الضبعى ومجاهد وحبيب بن أبى ثابت وأبو صالح وغيرهم عن ابن عباس . وقال اسحاق أخبرنا جرير عن منصور عن مجاهد عن عبدالله بن عمرو فى هذه الآية قال أخذهم كما يؤخذ المشط بالرأس .

(وحدثنا) حجاج عن ابن جريج عن الزبير بن موسى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال إن الله ضرب منكبه الأيمن فخرجت كل نفس مخلوقة للجنة بيضاء نقية فقال هؤلاء أهل الجنة ثم ضرب منكبه الأيسر فخرجت كل نفس مخلوقة للنار سوداء فقال

هؤلاء أهل النار ، ثم أخذ عهده على الإيمان به والمعرفة له ولأمره والتصديق به وبأمره من بنى آدم كلهم وأشهدهم على أنفسهم فآمنوا وصدقوا وعرفوا وأقروا .

(وذكر) محمد بن نصر من تفسير السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود عن أناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) الآية لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبط من السماء مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ وكهيئة الذر فقال لهم ادخلوا الجنة برحمتى ومسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال ادخلوا النار ولا أبالى ، فذلك حيث يقول (وأصحاب اليمين) (وأصحاب الشمال) ثم أخذ منهم الميثاق فقال (ألست بربكم قالوا بلى) فأعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التقية فقال هو والملائكة (شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فليس أحد من ولد آدم إلا وهو يعرف أن الله ربه ، ولا مشرك إلا وهو يقول إنا وجدنا آباءنا على أمة فذلك قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) وقوله تعالى (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها) وقوله تعالى (فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) قال يعنى يوم أخذ عليهم الميثاق .

(قال اسحاق) وأخبرنا روح بن عبادة حدثنا موسى بن عبيدة الربذى قال سمعت محمد بن كعب القرظى يقول فى هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) الآية أقروا له بالإيمان والمعرفة ، الأرواح قبل أن يخلق أجسادها .

(قال) وحدثنا الفضل بن موسى عن عبد الملك عن عطاء فى هذه الآية قال اخرجوا من صلب آدم حين أخذ منهم الميثاق ثم ردوا فى صلبه .

(قال) اسحاق وأخبرنا على بن الأجلح عن الضحاك قال ان الله أخرج من ظهر آدم يوم خلقه ما يكون إلى أن تقوم الساعة فاخرجهم مثل الذر فقال (ألست بربكم قالوا بلى) قالت الملائكة (شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) ثم قبض قبضة بيمينه فقال هؤلاء فى الجنة ، وقبض أخرى فقال هؤلاء فى النار .

(قال) اسحاق وأخبرنا أبو عامر العقدى وأبو نعيم الملائى قال حدثنا هشام بن سعد عن يحيى وليس بابن سعيد قال قلت لابن المسيب ما تقول فى العزل ؟ قال إن شئت حدثتك حديثا هو حق إن الله سبحانه لما خلق آدم أراه كرامة لم يرها أحداً من خلق الله ، أراه كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة فمن حدثك أن يزيد فيهم شيئاً أو ينقص منهم فقد كذب ولو كان لى سبعون ما باليت .

وفى تفسير ابن عيينة عن الربيع بن أنس عن أبى العالية (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرهاً) قال يوم أخذه الميثاق .

(قال اسحاق) فقد كانوا فى ذلك الوقت مقرين وذلك أن الله عز وجل أخبر أنه قال (ألست بربكم قالوا بلى) والله تعالى لايخاطب إلا من يفهم عنه المخاطبة ولايجيب إلا من فهم السؤال ، فاجابتهم إياه بقولهم دليل على أنهم قد فهموا عن الله وعقلوا عنه استشهاده إياهم (ألست بربكم) فأجابوه من بعد عقل منهم للمخاطبة وفهم لها بأن (قالوا بلى) فأقروا له بالربوبية .

فصل

واحتجوا أيضاً بما رواه أبو عبد الله بن منده أخبرنا محمد بن صابر البخارى حدثنا محمد ابن المنذر بن سعد الهروى حدثنا جعفر بن محمد بن هارون المصيصى حدثنا عتبة بن السكن حدثنا أرطأة بن المنذر حدثنا عطاء بن عجلان عن يونس بن حلبس عن عمرو بن عبسة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان الله خلق أرواح العباد قبل العباد بألفى عام فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . فهذا بعض ما احتج به هؤلاء .

قال الآخرون الكلام معكم فى مقامين : أحدهما ذكر الدليل على الأرواح انها خلقت بعد خلق الأبدان ، الثانى الجواب عما استدللتم به .

فأما المقام الأول فقد قال تعالى (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) وهذا خطاب للانسان الذى هو روح وبدن فدل على أن جملته مخلوقة بعد خلق الأبوين وأصرح منه قوله (يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله) الآية وهذا صريح فى أن خلق جملة النوع الإنسانى بعد خلق أصله .

فإن قيل فهذا لاينفى تقدم خلق الأرواح على أجسادها وإن خلقت بعد خلق أبى البشر كادلت عليه الآثار المتقدمة .

قيل سنبين إن شاء الله تعالى أن الآثار المذكورة لاتدل على سبق الأرواح الأجساد سبقا مستقراً ثابتاً . وغايتها أن تدل بعد صحتها وثبوتها على أن بارئها وفاطرها سبحانه صور النسم وقدر خلقها وآجالها وأعمالها واستخرج تلك الصور من مادتها ثم أعادها اليها ، وقدر خروج كل فرد من أفرادها فى وقته المقدر له ، ولاتدل على أنها خلقت خلقاً مستقراً ثم استمرت موجودة حية عالمة ناطقة كلها فى موضع واحد ثم ترسل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة كما قاله

أبو محمد بن حزم ، فهل تحمل الآثار مالا طاقة لنا به ؟ نعم الرب سبحانه يخلق منها جملة بعد جملة على الوجه الذى سبق به التقدير أولا فيجىء الخلق الخارجى مطابقا للتقدير السابق كشأنه تعالى فى جميع مخلوقاته فانه قدر لها أقداراً وآجالا وصفات وهيئات ثم أبرزها إلى الوجود مطابقة لذلك التقدير الذى قدره لها لاتزيد عليه ولاتنقص منه .

فالآثار المذكورة إنما تدل على إثبات القدر السابق وبعضها يدل على أنه سبحانه استخرج أمثالهم وصورهم ومين أهل السعادة من أهل الشقاوة ، وأما مخاطبتهم واستنطاقهم وإقرارهم له بالربوبية وشهادتهم على أنفسهم بالعبودية فمن قاله من السلف فإنما هو بناء منه على فهم الآية والآية لم تدل على هذا بل دلت على خلافه .

وأما حديث مالك فقال أبو عمر هو حديث منقطع ، مسلم بن يسار لم يلق عمر بن الخطاب وبينهما فى هذا الحديث نعيم بن ربيعة وهو أيضاً مع هذا الإسناد لايقوم به حجة ، ومسلم ابن يسار هذا مجهول قيل أنه مدنى وليس بمسلم بن يسار البصرى قال ابن أبى خيثمة قرأت على يحيى بن معين حديث مالك هذا عن زيد بن أبى أنيسة فكتب بيده على مسلم بن يسار « لايعرف » .

ثم ساقه أبو عمر من طريق النسائى (أخبرنا) محمد بن وهب حدثنا محمد بن سلمة قال حدثنى أبو عبد الرحيم قال حدثنى زيد بن أبى أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة .

ثم ساقه من طريق سخبرة (حدثنا) أحمد بن عبد الملك بن واقد حدثنا محمد بن سلمة عن أبى عبد الرحيم عن زيد بن أبى أنيسة عن عبد الحميد عن مسلم عن نعيم قال أبو عمر و زيادة من زاد فى هذا الحديث نعيم بن ربيعة ليست حجة أن الذى لم يذكره احفظ وإنما الزيادة من الحافظ المتقن .

وجملة القول فى هذا الحديث أنه حديث ليس إسناده بالقائم لأن مسلم بن يسار ونعيم بن ربيعة جميعاً غير معروفين بحمل العلم ولكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من وجوه كثيرة ثابت يطول ذكرها من حديث عمر بن الخطاب وغيره وجماعة يطول ذكرهم .

ومراد أبو عمر الأحاديث الدالة على القدر السابق فانها هى التى ساقها بعد ذلك فذكر حديث عبد الله بن عمر فى القدر وقال فى آخره وسأله رجل من مزينة أو جهينة فقال يارسول

الله ففيم العمل ؟ فقال ان أهل الجنة ييسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ييسرون لعمل أهل النار .

قال وروى هذا المعنى فى القدر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن على بن أبي طالب وأبي بن كعب وعبد الله بن عباس وابن عمر وأبو هريرة وأبو سعيد وأبو سريحة الغفارى وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو وعمران بن حصين وعائشة وأنس بن مالك وسراقة ابن جعشم وأبو موسى الأشعرى وعبادة بن الصامت ، وأكثر أحاديث هؤلاء لها طرق شتى ثم ساق كثيرا منها بإسناده .

وأما حديث أبي صالح عن أبي هريرة فانما يدل على استخراج الذرية وتمثلهم فى صور الذر وكان منهم حينئذ المشرق والمظلم وليس فيه أنه سبحانه خلق أرواحهم قبل الأجساد وأقرها بموضع واحد ثم يرسل كل روح من تلك الأرواح عند حدوث بدنها اليه ، نعم هو سبحانه يخص كل بدن بالروح التى قدر أن تكون له فى ذلك الوقت ، وأما أنه خلق نفس ذلك البدن فى ذلك الوقت وفرغ من خلقها وأودعها فى مكان معطلة عن بدنها حتى إذا أحدث بدنها أرسلها اليه من ذلك المكان فلا يدل شيء من الأحاديث على ذلك البتة لمن تأملها .

وأما حديث أبي بن كعب فليس هو عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وغايته لو صح . ولم يصح . أن يكون من كلام أبي وهذا الإسناد يروى به أشياء منكرة جداً مرفوعة وموقوفة وأبو جعفر الرازى وثق وضعف ، وقال على بن المدينى كان ثقة وقال أيضاً كان يخلط وقال ابن معين هو ثقة وقال أيضاً يكتب حديثه إلا أنه يخطىء وقال الامام أحمد ليس بقوى فى الحديث وقال أيضاً صالح الحديث وقال الفلاس سيىء الحفظ وقال أبو زرعة يهم كثيراً وقال ابن حبان ينفرد بالمناكير عن المشاهير .

ومما ينكر من هذا الحديث قوله فكان روح عيسى من تلك الأرواح التى أخذ عليها الميثاق فأرسل ذلك الروح إلى مريم حين انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فدخل فى فيها ومعلوم ان الروح الذى أرسل إلى مريم ليس هو روح المسيح بل ذلك الروح نفخ فيها فحملت بالمسيح قال تعالى (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا ، قالت انى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) فروح المسيح لا يخاطبها عن نفسه بهذه المخاطبة قطعاً وفى بعض طرق حديث أبي جعفر هذا أن روح المسيح هو الذى خاطبها وهو الذى أرسل إليها .

وهاهنا أربع مقامات :

(أحدها) أن الله سبحانه استخرج صورهم وأمثالهم فميز شقيهم وسعيدهم ومعافاهم من مبتلاهم .

(الثانى) أن الله سبحانه أقام عليهم الحجـــة حينئذ وأشهدهم بربوبيته واستشهد عليهم ملائكته .

(الثالث) أن هذا هو تفسير قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) .

(الرابع) أنه أقر تلك الأرواح كلها بعد إخراجها بمكان وفرغ من خلقها وإنما يتجدد كل وقت إرسال جملة منها بعد جملة إلى أبدانها .

فأما المقام الأول فالآثار متظاهرة به مرفوعة وموقوفة .

وأما المقام الثانى فإنما أخذ من أخذه من المفسرين من الآية وظنوا أنه تفسيرها وهذا قول جمهور المفسرين من أهل الأثر ، قال أبو اسحاق جائز أن يكون الله سبحانه جعـل لأمثال الذر التى أخرجها فهما تعقل به كما قال (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) وقد سخر مع داود الجبال تسبح معه والطير .

(وقال) ابن الأنبارى مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم فى هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم فى صور الذر فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون فاعترفوا بذلك وقبلوا وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبل عقلا حين خوطب وكما فعل ذلك بالبعير لما سجد والنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت .

(وقال) الجرجانى ليس بين قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم ان الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وبين الآية اختلاف بحمد الله لأنه عز وجل إذا أخذهم من ظهر آدم فقد أخذهم من ظهور ذريته لأن ذرية آدم ذرية لذريته بعضهم من بعض وقوله تعالى (ان تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) أى عن الميثاق المأخوذ عليهم فإذا قالوا ذلك كانت للملائكة شهوداً عليهم بأخذ الميثاق ، قال وفى هذا دليل على التفسير الذى جاءت به الرواية من أن الله تعالى قال للملائكة اشهدوا فقالوا شهدنا ، قال وزعم بعض أهل العلم أن الميثاق إنما أخذ على الأرواح دون الأجساد ، إن الأرواح هى التى تعقل وتفهم ولها الثواب وعليها العقاب والأجساد أموات لا تعقل ولا تفهم ، قال وكان إسحاق بن راهويه يذهب إلى هذا المعنى وذكر أنه قول أبى هريرة قال اسحاق وأجمع أهل العلم أنها الأرواح قبـــل الأجساد

استنطقهم وأشهدهم ، قال الجرجانى واحتجوا بقوله تعالى (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء) والأجساد قد بليت وضلت فى الأرض والأرواح ترزق وتفرح ، وهى التى تلذ وتألم وتفرح وتحزن وتعرف وتنكر وبيان ذلك فى الأحلام موجود أن الإنسان يصيح وأثر لذة الفرح وألم الحزن باق فى نفسه مما تلاقى الروح دون الجسد ، قال وحاصل الفائدة فى هذا الفصل أنه سبحانه قد أثبت الحجة على كل النفوس ممن يبلغ وممن لم يبلغ بالميثاق الذى أخذه عليهم وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التى نصبها فى نفسه وفى العالم وبالرسل المنفذة اليهم مبشرين ومنذرين وبالمواعظ بالمثلات المنقولة إليهم أخبارها غير أنه عز وجل لايطالب أحداً منهم من الطاعة إلا بقدر مالزمه من الحجة وركب فيهم من القدرة وآتاهم من الأدلة . وبين سبحانه ماهو عامل فى البالغين الذين أدركوا الأمر والنهى ، وحجب عنا علم ماقدره فى غير البالغين إلا أنا نعلم أنه عدل لايجور فى حكمه ، وحكيم لاتفاوت فى صنعه ، وقادر لايسأل عما يفعل له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

فصل

ونازع هؤلاء غيرهم فى كون هذا معنى الآية وقالوا معنى قوله (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) أى أخرجهم وأنشأهم بعد أن كانوا نطفاً فى أصلاب الآباء إلى الدنيا على ترتيبهم فى الوجود ، وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم بما أظهر لهم من آياته وبراهينه التى تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم فليس من أحد إلا وفيه من صنعة ربه ما يشهد على أنه بارئه ونافذ الحكم فيه ، فلما عرفوا ذلك ودعاهم كل مايرون ويشاهدون إلى التصديق به كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهدين على أنفسهم بصحته كما قال فى غير هذا الموضع (شاهدين على أنفسهم بالكفر) يريدهم بمنزلة الشاهدين وإن لم يقولوا نحن كفرة كما تقول كما شهدت جوارحى بقولك تريد قد عرفته فكأن جوارحى لو استشهدت وفى وسعها أن تنطق لشهدت ، ومن هذا اعلامه وتبيينه أيضاً (شهد الله أن لا إله إلا هو) يريد اعلم وبين فأشبه ذلك شهادة من شهد عند الحكام وغيرهم . هذا كلام ابن الأنبارى .

وزاد الجرجانى بياناً لهذا القول فقال حاكياً عن أصحابه أن الله لما خلق الخلق ونفذ علمه فيهم بماهو كائن ومالم يكن بعد بماهو كائن كالكائن إذ علمه بكونه مانع من غير كونه . شائع فى مجاز العربية أن يوضع ماهو منتظر بعد بما لم يقع بعد موقع الواقع لسبق علمه بوقوعه كما قال عز وجل فى مواضع من القرآن كقوله تعالى (ونادى أصحاب النار) (ونادى أصحاب الجنة) (ونادى أصحاب الأعراف) قال فيكون تأويل قوله (وإذ أخذ ربك) وإذ يأخذ ربك ، وكذلك قوله

(وأشهدهم على أنفسهم) أى ويشهدهم بما ركبه فيهم من العقل الذى يكون به الفهم ويجب به الثواب والعقاب ، وكل من ولد وبلغ الحنث وعقل الضر والنفع وفهم الوعد والوعيد والثواب والعقاب صار كأن الله تعالى أخذ عليه الميثاق فى التوحيد بما ركب فيه من العقل وأراه من الآيات والدلائل على حدوثه وأنه لايجوز أن يكون قد خلق نفسه وإذا لم يجز ذلك فلا بد له من خالق هو غيره ليس كمثله . وليس من مخلوق يبلغ هذا المبلغ ولم يقدح فيه مانع من فهم إلا اذا حز به أمر يفزع إلى الله عز وجل حين يرفع رأسه إلى السماء ويشير إليها بأصبعه علما منه بأن خالقه تعالى فوقه وإذا كان العقل الذى منه الفهم والافهام مؤديا إلى معرفة ماذكرنا ودالا عليه فكل من بلغ هذا المبلغ فقد أخذ عليه العهد والميثاق وجائز أن يقال له قد أقر وأذعن وأسلم كما قال الله عز وجل (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها) .

(قال) واحتجوا بقوله صلى الله عليه وآله وسلم رفع القلم عن ثلاث عن الصبى حتى يحتلم وعن المجنون حتى يفيق وعن النائم حتى ينتبه ، وقوله عز وجل (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) ثم قال تعالى (وحملها الانسان) الأمانة هاهنا عهد وميثاق فامتناع السموات والأرض والجبال من حمل الأمانة لاجل خلوها من العقل الذى يكون به الفهم والإفهام وحمل الإنسان إياها لمكان العقل فيه ، قال وللعرب فيها ضروب نظم فمنها قوله :

ضمن القنان لفقعس بثباتها أن القنان لفقعس لايأتلى

والقنان جبل فذكر أنه قد ضمن لفقعس وضمانه لها انهم كانوا اذا حزبهم أمر من هزيمة أو خوف لجأوا اليه فجعل ذلك كالضمان لهم ومنه قول النابغة :

كأجارف الجولان هلل ربه وجوران منها خاشع متضائل [1]

وأجارف الجولان جبالها وجوران الأرض التى الى جانبها ، وقال هذا القائل إن فى قوله تعالى (أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا انما أشرك آباؤنا

---

[1] كذا . والبيت كما فى الديوان واللسان والتاج ومعجم البلدان هكذا :

بكى حارث الجولان من فقد ربه وحوران منها خاشع متضائل

قال ياقوت : الحارث قرية من قرى حوران من نواحى دمشق يقال لها حارث الجولان ، وقال الجوهرى الجولان جبل بالشام وحارث قلة من قلله فى قول النابغة حيث قال . . . وذكر البيت . وفى التاج ويروى من هلك ربه .

من قبل وكنا ذرية من بعدهم) دليلا على هذا التأويل لأنه عز وجل أعلم أن هذا الاخذ للعهد عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين والغفلة هاهنا لاتخلو من أحد وجهين اما أن تكون عن يوم القيامة أو عن أخذ الميثاق ، فأما يوم القيامة فلم يذكر سبحانه فى كتابه أنه أخذ عليهم عهدا وميثاقا بمعرفة البعث والحساب وانما ذكر معرفته فقط ، وأما أخذ الميثاق فالاطفال والاسقاط ان كان هذا العهد مأخوذا عليهم كما قال المخالف فهم لم يبلغوا بعد أخذ هذا الميثاق عليهم مبلغا يكون منهم غفلة عنه فيجحدونه وينكرونه فمتى تكون هذه الغفلة منهم وهو عز وجل لا يؤاخذهم بما لم يكن منهم ، وذكر ما لا يجوز ولا يكون محال . وقوله تعالى (أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فلا يخلو هذا الشرك الذى يؤاخذون به أن يكون منهم أنفسهم أو من آبائهم فان كان منهم فلا يجوز أن يكون ذلك الا بعد البلوغ وثبوت الحجة عليهم اذ الطفل لا يكون منه شرك ولا غيره وان كان من غيرهم فالامة مجمعة على أن (لا تزر وازرة وزر أخرى) كما قال عز وجل فى الكتاب وليس هذا بمخالف لما روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن الله مسح ظهر آدم وأخرج منه ذريته فأخذ عليهم العهد ، لانه صلى الله عليه وآله وسلم اقتص قول الله عز وجل فجاء مثل نظمه فوضع الماضى من اللفظ موضع المستقبل . قال وهذا شبيه القصة بقصة قوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به) فجعل سبحانه ماأنزل على الأنبياء من الكتاب والحكمة ميثاقاً أخذه من أممهم بعدهم يدل على ذلك قوله تعالى (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) ثم قال للأمم (أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) فجعل سبحانه بلوغ الأمم كتابه المنزل على أنبيائهم حجة عليهم كأخذ الميثاق عليهم وجعل معرفتهم به اقرارا منهم .

قلت وشبيه به أيضا قوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به اذ قلتم سمعنا وأطعنا) فهذا ميثاقه الذى أخذه عليهم بعد ارسال رسله اليهم بالإيمان به وتصديقه ، ونظيره قوله تعالى (والذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) وقوله تعالى (ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم) فهذا عهده اليهم على السنة رسله ، ومثله قوله تعالى لبنى اسرائيل (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) ومثله (واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) وقوله تعالى (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا) فهذا ميثاق أخذه منهم بعد بعثهم كما أخذ من أممهم بعد انذارهم

وهذا الميثاق الذى لعن سبحانه من نقضه وعاقبه بقوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية) فانما عاقبهم بنقضهم الميثاق الذى أخذه عليهم على ألسنة رسله وقد صرح به فى قوله تعالى (واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون) ولما كانت هذه الآية ونظيرها فى سورة مدنية خاطب بالتذكير بهذا الميثاق فيها أهل الكتاب فانه ميثاق أخذه عليهم بالإيمان به وبرسله ، ولما كانت هذه آية الأعراف فى سورة مكية ذكر فيها الميثاق والاشهاد العام لجميع المكلفين ممن أقر بربوبيته ووحدانيته وبطلان الشرك وهو ميثاق وإشهاد تقوم به عليهم الحجة وينقطع به العذر وتحل به العقوبة ويستحق بمخالفته الاهلاك فلا بد أن يكونوا ذاكرين له عارفين به وذلك مافطرهم عليه من الاقرار بربوبيته وأنه ربهم وفاطرهم وانهم مخلوقون مربوبون ثم أرسل اليهم رسله يذكرونهم بما فى فطرهم وعقولهم ويعرفونهم حقه عليهم وأمره ونهيه ووعده ووعيده .

ونظم الآية انما يدل على هذا من وجوه متعددة :

(أحدها) أنه قال (واذ أخذ ربك من بنى آدم) ولم يقل آدم ، وبنو آدم غير آدم .

(الثانى) أنه قال (من ظهورهم) ولم يقل ظهر وهذا بدل بعض من كل أو بدل اشتمال وهو أحسن .

(الثالث) أنه قال (ذرياتهم) ولم يقل ذريته .

(الرابع) أنه قال (وأشهدهم على أنفسهم) أى جعلهم شاهدين على أنفسهم فلا بد أن يكون الشاهد ذاكرا لما شهد به وهو انما يذكر شهادته بعد خروجه الى هذه الدار لا يذكر شهادة قبلها.

(الخامس) أنه سبحانه اخبر أن حكمة هذا الاشهاد اقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، والحجة انما قامت عليهم بالرسل والفطرة التى فطروا عليها كما قال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) .

(السادس) تذكيرهم بذلك لئلا يقولوا يوم القيامة (انا كنا عن هذا غافلين) ومعلوم أنهم غافلون بالاخراج لهم من صلب آدم كلهم واشهادهم جميعا ذلك الوقت فهذا لا يذكره أحد منهم.

(السابع) قوله تعالى (أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) فذكر حكمتين فى هذا التعريف والاشهاد ، احداهما ان لا يدعوا الغفلة ، والثانية ان لا يدعوا التقليد فالغافل لا شعور له والمقلد متبع فى تقليده لغيره .

(الثامن) قوله تعالى (لما فعل المبطلون) أى لو عذبهم بجحودهم وشركهم

لقالوا ذلك وهو سبحانه انما يهلكهم لمخالفة رسله وتكذيبهم فلو أهلكهم بتقليد آبائهم في شركهم من غير اقامة الحجة عليهم بالرسل لأهلكهم بما فعل المبطلون أو أهلكهم مع غفلتهم عن معرفة بطلان ما كانوا عليه . وقد اخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون وانما يهلكهم بعد الاعذار والانذار .

(التاسع) أنه سبحانه اشهد كل واحد على نفسه انه ربه وخالقه واحتج عليهم بهذا الاشهاد في غير موضع من كتابه كقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله فأنى يؤفكون) اى فكيف يصرفون عن التوحيد بعد هذا الاقرار منهم ان الله ربهم وخالقهم ، وهذا كثير في القرآن فهذه هي الحجة التي أشهدهم على أنفسهم بمضمونها وذكرتهم بها رسله بقوله تعالى (أفي الله شك فاطر السموات والأرض) فالله تعالى انما ذكرهم على ألسنة رسله بهذا الاقرار والمعرفة ولم يذكرهم قط باقرار سابق على ايجادهم ولا أقام به عليهم حجة .

(العاشر) أنه جعل هذا آية وهي الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها بحيث لا يتخلف عنها المدلول وهذا شأن آيات الرب تعالى فانها أدلة معينة على مطلوب معين مستلزمة للعلم به فقال تعالى (وكذلك نفصل الآيات) اى مثل هذا التفصيل والتبيين نفصل الآيات لعلهم يرجعون من الشرك إلى التوحيد ومن الكفر الى الإيمان ، وهذه الآيات التي فصلها هي التي بينها في كتابه من أنواع مخلوقاته وهي آيات أفقية وحسية آيات في نفوسهم وذواتهم وخلقهم وآيات في الاقطار والنواحي مما يحدثه الرب تبارك وتعالى مما يدل على وجوده ووحدانيته وصدق رسله وعلى المعاد والقيامة ومن أبينها ما أشهد به كل واحد على نفسه من أنه ربه وخالقه ومبدعه وأنه مربوب مخلوق مصنوع حادث بعد أن لم يكن ومحال أن يكون حدث بلا محدث أو يكون هو المحدث لنفسه فلابد له من موجد أوجده ليس كمثله شيء وهذا الإقرار والمشاهدة فطرة فطروا عليها ليست بمكتسبة وهذه الآية وهي قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم) مطابقة لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم كل مولود يولد على الفطرة ولقوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين اليه) .

ومن المفسرين من لم يذكر الا هذا القول فقط كالزمخشري ، ومنهم من يذكر إلا القول الأول فقط ومنهم من حكى القولين كابن الجوزي والواحدي والماوردي وغيرهم .

قال الحسن بن يحيى الجرجاني فان اعترض معترض في هذا الفصل بحديث يروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال ان الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد ثم ردهم في ظهره وقال إن هذا مانع من جواز التأويل الذي ذهبت اليه لامتناع ردهم في الظهر

إن كان أخذ الميثاق عليهم بعد البلوغ وتمام العقل ، قيل له ان معنى ثم ردهم فى ظهره ثم يردهم فى ظهره كما قلنا إن معنى أخذ ربك يأخذ ربك فيكون معناه ثم يردهم فى ظهره بوفاتهم لأنهم إذا ماتوا ردوا إلا الأرض للدفن وآدم خلق منها ورد فيها فقد ردوا فيها ، وفى ظهره اذ كان آدم خلق منها وفيها رد وبعض الشىء من الشىء وفيما ذهبتم اليه من تأويل هذا الحديث على ظاهره تفاوت بينه وبين ماجاء به القرآن فى هذا المعنى إلا أن يرد تأويله إلى ماذكرنا لأنه عز وجل قال (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) ولم يذكر آدم فى القصة انما هو ههنا مضاف اليه لتعريف ذريته أنهم أولاده وفى الحديث أنه مسح ظهر آدم فلا يمكن رد ماجاء فى القرآن وماجاء فى الحديث إلى الاتفاق إلا بالتأويل الذى ذكرناه .

قال الجرجانى وأنا أقول ونحن إلى ماروى فى الآية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما ذهب اليه أهل العلم من السلف الصالح أميل وله أقبل وبه آنس والله ولى التوفيق لما هو أولى وأهدى ، على أن بعض أصحابنا من أهل السنة قد ذكر فى الرد على هذا القائل معنى يحتمل ويسوغ فى النظم الجارى ومجاز العربية بسهولة وإمكان من غير تعسف ولا استكراه وهو أن يكون قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) مبتدأ خبر من الله عز وجل عما كان منه فى أخذ العهد عليهم وإذ تقتضى جوابا يجعل جوابه قوله تعالى (قالوا بلى) وانقطع هذا الخبر بتمام قصته ثم ابتدأ عز وجل خبراً آخر بذكر ما يقوله المشركون يوم القيامة فقالوا شهدنا يعنى نشهد كما قال الحطيئة :

شهد الحطيئة حين يلقى ربه أن الوليد أحق بالعذر

بمعنى يشهد الحطيئة يقول تعالى نشهد أنكم ستقولون يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أى عما هم فيه من الحساب والمناقشة والمؤاخذة بالكفر ثم أضاف اليه خبرا آخر فقال (أو تقولوا) بمعنى وأن تقولوا لأن أو بمعنى واو النسق مثل قوله تعالى (ولاتطع منهم آثما أو كفورا) فتأويله ونشهد أن تقولوا يوم القيامة (إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم) أى أنهم اشركوا وحملونا على مذهبهم فى الشرك فى صبانا فجرينا على مذاهبهم وافتدينا بهم فلا ذنب لنا إذ كنا مقتدين بهم والذنب فى ذلك لهم قالوا (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) يدل على ذلك قولهم (أفتهلكنا بما فعل المبطلون) أى حملهم ايانا على الشرك ، فتكون القصة الأولى خبرا عن جميع المخلوقين بأخذ الميثاق عليهم ، والقصة الثانية خبر عما يقول المشركون يوم القيامة من الاعتذار .

وقال فيما ادعاه المخالف أنه تفاوت فيما بين الكتاب والخبر لاختلاف ألفاظهما فيهما قولا يجب قبوله بالنظائر والعبر التى تأيدها لمخالفته فقال ان الخبر عن رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم ان الله مسح ظهر آدم ، أفاد زيادة خبر كان فى القصة التى ذكر الله تعالى فى الكتاب بعضها ولم يذكر كلها ولو أخبر صلى الله عليه و آله وسلم بسوى هذه الزيادة التى أخبر بها لما عسى أن يكون قد كان فى ذلك الوقت الذى أخذ فيه العهد مما لم يضمنه الله كتابه لما كان فى ذلك خلاف ولا تفاوت بل كان زيادة فى الفائدة . وكذلك الألفاظ إذا اختلفت فى ذاتها كان مرجعها إلى أمر واحد لم يوجب ذلك تناقضا كما قال عز وجل فى كتابه فى خلق آدم فذكر مرة أنه خلق من تراب ومرة أنه خلق من حمأ مسنون ، ومرة من طين لازب ، ومرة من صلصال كالفخار . فهذه الألفاظ مختلفة ومعانيها أيضاً فى الأحوال مختلفة أن الصلصال غير الحمأ والحمأ غير التراب إلا أن مرجعها كلها فى الأصل إلى جوهر واحد وهو التراب ومن التراب تدرجت هذه الأحوال .

فقوله سبحانه وتعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) وقوله صلى الله عليه وآله وسلم أن الله مسح ظهر آدم فاستخرج منه ذريته معنى واحد فى الأصل إلا أن قوله صلى الله عليه وآله وسلم مسح ظهر آدم زيادة فى الخبر عن الله عز وجل ومسحه عز وجل ظهر آدم واستخراج ذريته منه مسح لظهور ذريته واستخراج ذرياتهم من ظهورهم كما ذكر تعالى لا ناقد علمنا أن جميع ذرية آدم لم يكونوا من صلبه لكن لما كان الطبق الأول من صلبه ثم الثانى من صلب الأول ثم الثالث من صلب الثانى جاز أن ينسب ذلك كله الى ظهر آدم لأنهم فرعه وهو أصلهم .

وكما جاز أن يكون ماذكر الله عز وجل انه استخرجه من ظهور ذرية آدم من ظهر آدم جاز أن يكون ما ذكر صلى الله عليه وآله وسلم أنه استخرجه من ظهر آدم من ظهور ذريته إذ الاصل والفرع شىء واحد وفيه أيضا أنه عز وجل لما أضاف الذرية الى آدم فى الخبر احتمل أن يكون الخبر عن الذرية وعن آدم كما قال عز وجل (فظلت أعناقهم لها خاضعين) والخبر فى الظاهر عن الأعناق والنعت للاسماء المكنية فيها وهو [1] مضاف اليها كما كان آدم مضافا اليه هناك وليسا جميعا بالمقصودين فى الظاهر بالخبر ولا يحتمل أن يكون قوله خاضعين للاعناق لأن وجه جمعها خاضعات ومنه قول الشاعر :

وتشرق بالقول الذى قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

فالصدر مذكر وقوله شرقت أنث لاضافة الصدر الى القناة .

---

[1] أى النعت .

فصـــل

فهذا بعض كلام السلف والخلف فى هذه الآية وعلى كل تقدير فلا تدل على خلق الارواح قبل الاجساد خلقا مستقرا وانما غايتها أن تدل على اخراج صورهم وامثالهم فى صور الذر واستنطاقهم ثم ردهم الى أصلهم ان صح الخبر بذلك والذى صح انما هو اثبات القدر السابق وتقسيمهم الى شقى وسعيد . وأما استدلال ابى محمد بن حزم بقوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فما أليق هذا الاستدلال بظاهريته لترتيب الأمر بالسجود لآدم على خلقنا وتصويرنا والخطاب للجملة المركبة من البدن والروح وذلك متأخر عن خلق آدم ولهذا قال ابن عباس (ولقد خلقناكم) يعنى آدم (ثم صورناكم) لذريته . ومثال هذا ماقاله مجاهد (خلقناكم) يعنى آدم و (صورناكم) فى ظهر آدم وإنما قال (خلقناكم) بلفظ الجمع وهو يريد آدم كما تقول ضربناكم وإنما ضربت سيدهم .

واختار أبو عبيد فى هذه الآية قول مجاهد لقوله تعالى بعد (ثم قلنا للملائكة اسجدوا) وكان قوله تعالى للملائكة اسجدوا قبل خلق ذرية آدم وتصويرهم فى الأرحام وثم توجب التراخى والترتيب فمن جعل الخلق والتصوير فى هذه الآية لأولاد آدم فى الأرحام يكون قد راعى حكم ثم فى الترتيب إلا أن يأخذ بقول الاخفش فانه يقول ثم هاهنا فى معنى الواو . قال الزجاج وهذا خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعلمه . قال أبو عبيد وقد بينه مجاهد حين قال ان الله تعالى خلق ولد آدم وصورهم فى ظهره ثم أمر بعد ذلك بالسجود . قال وهذا بين فى الحديث وهو أنه أخرجهم من ظهره فى صور الذر .

قلت والقرآن يفسر بعضه بعضا ونظير هذه الآية قوله تعالى (ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة) فاوقع الخلق من تراب عليهم وهو لأبيهم آدم إذ هو أصلهم والله سبحانه يخاطب الموجودين والمراد آباؤهم كقوله تعالى (وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) وقوله تعالى (وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد) الآية وقوله تعالى (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها) وقوله تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور) وهو كثير فى القرآن يخاطبهم والمراد به آباؤهم فهكذا قوله (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) .

وقد يستطرد سبحانه من ذكر الشخص إلى ذكر النوع كقوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) فالمخلوق من سلالة من طين آدم والمجعول نطفة فى قرار مكين ذريته .

وأما حديث خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام فلا يصح إسناده ففيه عتبة بن السكن قال الدارقطني متروك ، وأرطأة بن المنذر قال ابن عدى بعض أحاديثه غلط .

فصـــل

وأما الدليل على أن خلق الأرواح متأخر عن خلق أبدانها فمن وجوه :

(أحدها) أن خلق أبي البشر وأصلهم كان هكذا فان الله سبحانه أرسل جبريل فقبض قبضة من الأرض ثم خمرها حتى صارت طينا ثم صوره ثم نفخ فيه الروح بعد أن صوره فلما دخلت الروح فيه صار لحما ودما حيا ناطقا ، ففي تفسير أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما فرغ عز وجل من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس ملكا على سماء الدنيا وكان من الخزان قبله من ملائكة يقال لهم الجن وإنما سموا الجن لأنهم خزان أهل الجنة وكان إبليس مع ملكه خازنا فوقع في صدره وقال ما أعطاني الله هذا إلا لمزية لي وفي لفظ لمزية لي على الملائكة فلما وقع ذلك الكبر في نفسه اطلع الله على ذلك منه فقال الله للملائكة (اني جاعل في الأرض خليفة) قالوا ربنا وما يكون حال الخليفة وما يصنعون في الأرض قال الله تكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا قالوا ربنا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون) يعني من شأن إبليس فبعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض إني أعوذ بالله منك أن تقبض مني فرجع ولم يأخذ وقال رب إنها عاذت بك فأعذتها فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها فبعث ملك الموت . فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط فلم يأخذ من مكان واحد فأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء ولذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به قبل الرب عز وجل حتى عاد طينا لازبا واللازب هو الذي يلزق بعضه ببعض ثم قال للملائكة (اني خالق بشرا من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) فخلقه الله بيده لكيلا يتكبر إبليس عنه ليقول له تتكبر عما عملت بيدي ولم أتكبر أنا عنه فخلقه بشرا فكان جسدا من طين أربعين سنة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم منه فزعا ابليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار تكون له صلصلة فذلك حين يقول (من صلصال كالفخار) ويقول لأمر ما خلقت ! ودخل من فيه فخرج من دبره فقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فان ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه فلما بلغ الحين الذي يريد الله جل ثناؤه أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة

إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت الملائكة قل الحمد لله فقال الحمد لله فقال له الله يرحمك ربك ، فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام قبل أن يبلغ الروح رجليه فنهض عجلان إلى ثمار الجنة فذلك حين يقول (خلق الإنسان من عجل) وذكر باقي الحديث .

(وقال) يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب حدثنا ابن زيد قال لما خلق الله النار ذعرت منها الملائكة ذعراً شديداً وقالوا ربنا لم خلقت هذه النار ؟ ولأي شيء خلقتها ؟ قال لمن عصاني من خلقي .

ولم يكن لله يومئذ خلق إلا الملائكة والأرض ليس فيها خلق إنما خلق آدم بعد ذلك وقرأ قوله تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً) قال عمر بن الخطاب يارسول الله ليت ذلك الحين ، ثم قال وقالت الملائكة ويأتي علينا دهر نعصيك فيه ؟ لا يرون له خلقاً غيرهم قال لا ! إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً وأجعل فيها خليفة . وذكر الحديث قال ابن اسحاق فيقال والله أعلم خلق الله آدم ثم وضعه ينظر إليه أربعين عاماً قبل أن ينفخ فيه الروح حتى عاد صلصالا كالفخار ولم تمسسه نار فيقال والله أعلم لما انتهى الروح إلى رأسه عطس فقال الحمد لله . وذكر الحديث .

والقرآن والحديث والآثار تدل على أنه سبحانه نفخ فيه من روحه بعد خلق جسده فمن تلك النفخة حدثت فيه الروح ولو كانت روحه مخلوقة قبل بدنه مع جملة أرواح ذريته لما عجبت الملائكة من خلقه ولما تعجبت من خلق النار وقالت لأي شيء خلقتها؟ وهي ترى أرواح بني آدم فيهم المؤمن والكافر والطيب والخبيث . .

ولما كانت أرواح الكفار كلها تبعاً لإبليس بل كانت الأرواح الكافرة مخلوقة قبل كفره فان الله سبحانه إنما حكم عليه بالكفر بعد خلق بدن آدم وروحه ولم يكن قبل ذلك كافراً فكيف تكون الأرواح قبله كافرة ومؤمنة وهو لم يكن كافراً إذ ذاك ؟ وهل حصل الكفر للأرواح إلا بتزيينه وإغوائه فالأرواح الكافرة إنما حدثت بعد كفره إلا أن يقال كانت كلها مؤمنة ثم ارتدت بسببه والذي احتجوا به على تقديم خلق الأرواح يخالف ذلك .

وفي حديث أبي هريرة في تخليق العالم الاخبار عن خلق أجناس العالم تأخر خلق آدم إلى يوم الجمعة ولو كانت الأرواح مخلوقة قبل الأجساد لكانت من جملة العالم المخلوق في ستة أيام فلما لم يخبر عن خلقها في هذه الأيام علم أن خلقها تابع لخلق الذرية وان خلق آدم وحده هو الذي وقع في تلك الأيام الستة وأما خلق ذريته فعلى الوجه المشاهد المعاين .

ولو كان للروح وجود قبل البدن وهى حية عالمة ناطقة لكانت ذاكرة لذلك فى هذا العالم شاعرة به ولو بوجه ما .

ومن الممتنع أن تكون حية عالمة ناطقة عارفة بربها وهى بين ملأ من الأرواح ثم تنتقل إلى هذا البدن ولا تشعر بحالها قبل ذلك بوجه ما .

وإذا كانت بعد المفارقة تشعر بحالها وهى فى البدن على التفصيل وتعلم ما كانت عليه هاهنا مع أنها اكتسبت بالبدن أموراً عاقتها عن كثير من كمالها فلان تشعر بحالها الأول وهى غير معوقة هناك بطريق الأولى ، إلا أن يقال تعلقها بالبدن واشتغالها بتدبيره منعها من شعورها بحالها الأول ، فيقال هب أنه منعها من شعورها به على التفصيل والكمال فهل يمنعها عن أدنى شعور بوجه ما مما كانت عليه قبل تعلقها بالبدن ، ومعلوم أن تعلقها بالبدن لم يمنعها عن الشعور بأول أحوالها وهى فى البدن فكيف يمنعها من الشعور بما كان قبل ذلك .

وأيضاً فانها لو كانت موجودة قبل البدن لكانت عالمة حية ناطقة عاقلة فلما تعلقت بالبدن سلبت ذلك كله ثم حدث لها الشعور والعلم والعقل شيئاً فشيئاً وهـــذا لو كان لكان أعجب الأمور أن تكون الروح كاملة عاقلة ثم تعود ناقصة ضعيفة جاهلة ثم تعود بعد ذلك إلى عقلها وقوتها فأين فى العقل والنقل والفطرة مايدل على هذا ؟ وقد قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون) فهذه الحال التى أخرجنا عليها هى حالنا الأصلية والعلم والعقل والمعرفة والقوة طارىء علينا حادث فينا بعد أن لم يكن ولم نكن نعلم قبل ذلك شيئاً البتة إذ لم يكن لنا وجود نعلم ونعقل به .

وأيضاً فلو كانت مخلوقة قبل الأجساد وهى على ماهى الآن من طيب وخبث وكفر وإيمان وخير وشر لكان ذلك ثابتاً لها قبل الأعمال وهى إنما اكتسبت هذه الصفات والهيئات من أعمالها التى سعت فى طلبها واستعانت عليها بالبدن فلم تكن لتصف بتلك الهيئات والصفات قبل قيامها بالأبدان التى بها عملت تلك الأعمال .

وإن كان قدر لها قبل إيجادها ذلك ثم خرجت إلى هذه الدار على ماقدر لها فنحن لانتكر الكتاب والقدر السابق لها من الله ، ولو دل دليل على أنها خلقت جملة ثم أودعت فى مكان حية عالمة ناطقة ثم كل وقت تبرز إلى أبدانها شيئاً فشيئاً لكنا أول قائل به ، فالله سبحانه على كل شىء قدير ولكن لانخبر عنه خلقاً وأمراً إلا بما أخبر به عن نفسه على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يخبر عنه بذلك وإنما أخبر بما فى الحديث الصحيح أن خلق ابن آدم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح فالملك وحده يرسل اليه

فينفخ فيه فاذا نفخ فيه كان ذلك سبب حدوث الروح فيه ولم يقل يرسل الملك إليه بالروح فيدخلها فى بدنه وإنما أرسل إليه الملك فأحدث فيه الروح بنفخته فيه لا أن الله سبحانه أرسل إليه الروح التى كانت موجودة قبل ذلك بالزمان الطويل مع الملك ، ففرق بين أن يرسل اليه ملك ينفخ فيه الروح وبين أن يرسل اليه روح مخلوقة قائمة بنفسها مع الملك ، وتأمل مادل عليه النص من هذين المعنيين وبالله التوفيق .

المسألة التاسعة عشرة

وهى ماحقيقة النفس هل هى جزء من أجزاء البدن أو عرض من أعراضه أو جسم مساكن له مودع فيه أو جوهر مجرد ؟ وهل هى الروح أو غيرها ؟ وهل الامارة واللوامة والمطمئنة نفس واحدة لها هذه الصفات أم هى ثلاث أنفس ؟ .

فالجواب أن هذه مسائل قد تكلم الناس فيها من سائر الطوائف واضطربت أقوالهم فيها وكثر فيها خطؤهم وهدى الله أتباع الرسول لأهل سنته لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم فنذكر أقوال الناس ومالهم وما عليهم فى تلك الأقوال ونذكر الصواب بحمد الله وعونه .

قال أبو الحسن الأشعرى فى مقالاته « اختلف الناس فى الروح والنفس والحياة وهل الروح هى الحياة أو غيرها وهل الروح جسم أم لا » ؟ فقال النظام الروح (هى — [1]) جسم وهى النفس وزعم أن الروح حى بنفسه وأنكر أن تكون الحياة والقوة معنى غير الحى القوى . وقال آخرون الروح عرض .

وقال قائلون منهم جعفر بن حرب لاندرى الروح جوهر أو عرض (كذا قال — [2]) واعتلوا فى ذلك بقوله تعالى : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) ولم يخبر عنها ماهى لا أنها جوهر ولا عرض . قال : وأظن جعفرا أثبت [3] أن الحياة غير الروح أثبت [3] أن الحياة عرضا .

وكان الجبائى يذهب إلى أن الروح جسم وأنها غير الحياة والحياة عرض ويعتل بقول أهل اللغة خرجت روح الإنسان وزعم أن الروح لاتجوز عليها الأعراض .

---

[1] من مقالات الأشعرى ومنه صححنا بعض الأغلاط فى هذه العبارة .

[2] هذا من كلام المؤلف ليس فى المقالات .

[3] فى المقالات . ثبت .

(وقال) قائلون ليس الروح شيئاً أكثر من اعتدال الطبائع الأربع ولم يرجعوا من قولهم (اعتدال — [١]) إلا إلى المعتدل ولم يثبتوا فى الدنيا شيئاً إلا الطبائع الأربع التى هى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة .

(وقال) قائلون أن الروح معنى خامس غير الطبائع الأربع وأنه ليس فى الدنيا إلا الطبائع الأربع [٢] والروح واختلفوا فى (أعمال — [١]) الروح فثبتها بعضهم طباعا وثبتها بعضهم اختياراً .

(وقال) قائلون الروح الدم الصافى الخالص من الكدر والعفونات وكذلك قالوا فى القوة .

(وقال) قائلون الحياة هى الحرارة الغريزية وكل هؤلاء الذين حكينا أقوالهم [٣] فى الروح من أصحاب الطبائع يثبتون أن الحياة هى الروح .

وكان الأصم لا يثبت للحياة والروح شيئاً غير الجسد ويقول ليس أعقل إلا الجسد الطويل العريض العميق الذى أراه وأشاهده ، وكان يقول النفس هى هذا البدن بعينه لا غير ، وإنما جرى عليها هذا الذكر على جهة البيان والتأكيد بحقيقة الشىء لا على أنها معنى غير البدن .

وذكر عن أرسطاطاليس أن النفس معنى مرتفع عن الوقوع تحت (التدبير والنشوء والبلى غير دائرة — [٤]) وأنها جوهر بسيط منبث فى العالم كله من الحيوان على جهة الاعمال له والتدبير ، وأنه لا تجوز عليه صفة قلة ولا كثرة . قال وهى على ما وصفت من انبساطها فى هذا العالم غير منقسمة الذات والبنية وأنها فى كل حيوان العالم بمعنى واحد لا غير .

(وقال) آخرون بل النفس معنى موجود ذات حدود وأركان وطول وعرض وعمق وأنها غير مفارقة فى هذا العالم لغيرها مما يجرى عليه حكم الطول والعرض والعمق وكل واحد منهما بجمعهما صفة الحد والنهاية (وهذا قول طائفة من الثنوية يقال لهم المثانية — [٥]).

وقالت طائفة أن النفس موصوفة [٦] بما وصفها هؤلاء الذين قدمنا ذكرهم من معنى

---

[١] من المقالات .

[٢] زاد فى المقالات « التى هى الحرارة والبرودة . والرطوبة واليبوسة » .

[٣] فى المقالات . قولهم .

[٤] من المقالات وكان فى الأصل ، تحت النسق واللون .

[٥] من المقالات .

[٦] فى المقالات . توصف .

الحدود والنهايات إلا أنها غير مفارقة لغيرها مما لايجوز أن يكون موصوفا بصفة الحيوان (وهؤلاء الديصانية - [١]) وحكى الحريرى عن جعفر بن مبشر أن النفس جوهر ليس هو هذا الجسم وليس بجسم لكنه معنى بابن [٢] الجوهر والجسم .

(وقال) آخرون النفس معنى غير الروح والروح غير الحياة والحياة عنده عرض وهو أبو الهذيل ، وزعم أنه قد يجوز أن يكون الانسان فى حال نومه مسلوب النفس والروح دون الحياة ، واستشهد على ذلك بقوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) .

(وقال) جعفر بن حرب النفس عرض من الأعراض يوجد فى هذا الجسم وهو أحد الآلات التى يستعين بها الإنسان على الفعل كالصحة والسلامة وما أشبههما وأنها غير موصوفة بشىء من صفات الجواهر والأجسام . هذا ماحكاه الأشعرى .

وقالت طائفة النفس هى النسيم الداخل والخارج بالتنفس قالوا والروح عرض وهو الحياة فقط وهو غير النفس وهذا قول القاضى أبو بكر بن الباقلانى ومن اتبعه من الأشعرية .

وقالت طائفة ليست النفس جسما ولا عرضا وليست النفس فى مكان ولا لها طول ولا عرض ولا عمق ولا لون ولا بعض ولا هى فى العالم ولا خارجه ولا مجانبة له ولا مباينة . وهذا قول المشائين وهو الذى حكاه الأشعرى عن أرسطاطاليس ، وزعموا أن تعلقها بالبدن لا بالحلول فيه ولا بالمجاورة ولا بالمساكنة ولا بالاتصاق ولا بالمقابلة وإنما هو التدبير له فقط واختار هذا المذهب البستجى ومحمد بن النعمان الملقب بالمفيد ومعمر بن عباد العزالى وهو قول ابن سينا وأتباعه وهو أردى المذاهب وأبطلها وأبعدها من الصواب .

(قال) أبو محمد بن حزم وذهب سائر أهل الإسلام والملل المقرة بالمعاد إلى أن النفس جسم طويل عريض عميق ذات مكان جثة متحيزة مصرفة للجسد قال وبهذا نقول ، قال والنفس والروح اسمان مترادفان لمعنى واحد ومعناهما واحد .

وقد ضبط أبو عبدالله بن الخطيب مذاهب الناس فى النفس فقال : « ما يشير اليه كل إنسان بقوله : إنا اما أن نكون جسما أو عرضاً سارياً فى الجسم أو لاجسما ولاعرضاً سارياً فيه ، أما القسم الأول وهو أنه جسم فذلك الجسم اما أن يكون هذا البدن وإما أن يكون جسما مشاركا لهذا البدن واما أن يكون خارجا عنه ، وأما القسم الثالث وهو أن نفس الإنسان

---

[١] من المقالات .

[٢] فى المقالات . بين .

عبارة عن جسم خارج عن هذا البدن فهذا لم يقله أحد ، وأما القسم الأول وهو أن الإنسان عبارة عن هذا البدن والهيكل المخصوص فهو قول جمهور الخلق وهو المختار عند أكثر المتكلمين » .

(قلت) هو قول جمهور الخلق الذين عرف الرازى أقوالهم من أهل البدع وغيرهم من المضلين وأما أقوال الصحابة والتابعين وأهل الحديث فلم يكن له بها شعور البتة ولا أعتقد أن لهم فى ذلك قولا على عادته فى حكاية المذاهب الباطلة فى المسألة والمذهب الحق الذى دل عليه القرآن والسنة وأقوال الصحابة لم يعرفه ولم يذكره وهذا الذى نسبه إلى جمهور الخلق من أن الإنسان هو هذا البدن المخصوص فقط وليس وراءه شىء هو من أبطل الأقوال فى المسألة بل هو أبطل من قول ابن سينا وأتباعه ، بل الذى عليه جمهور العقلاء أن الإنسان هو البدن والروح معاً وقد يطلق اسمه على أحدهما دون الآخر بقرينة .

فالناس لهم أربعة أقوال فى مسمى الإنسان ، هل هو الروح فقط ، أو البدن فقط ، أو مجموعهما ، أو كل واحد منهما ، وهذه الأقوال الأربعة لهم فى كلامه هل هو اللفظ فقط ، أو المعنى فقط ، أو مجموعهما ، أو كل واحد منهما ، فالخلاف بينهم فى الناطق ونطقه .

(قال) الرازى وأما القسم الثانى وهو أن الإنسان عبارة عن جسم مخصوص موجود فى داخل هذا البدن فالقائلون بهذا القول اختلفوا فى تعيين ذلك الجسم على وجوه :

(الأول) أنه عبارة عن الأخلاط الأربعة التى منها يتولد هذا البدن .

(والثانى) أنه الدم .

(والثالث) أنه الروح اللطيف الذى يتولد فى الجانب الأيسر من القلب وينفذ فى الشريانات إلى سائر الأعضاء .

(والرابع) أنه الروح الذى يصعد فى القلب إلى الدماغ ويتكيف بالكيفية الصالحة لقبول قوة الحفظ والفكرة والذكر .

(والخامس) أنه جزء لا يتجزأ فى القلب .

(والسادس) أنه جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نورانى علوى خفيف حى متحرك ينفذ فى جوهر الأعضاء ويسرى فيها سريان الماء فى الورد وسريان الدهن فى الزيتون والنار فى الفحم . فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقى ذلك الجسم اللطيف مشابكا لهذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الارادية .

وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح .

وهذا القول هو الصواب فى المسألة وهو الذى لا يصح غيره وكل الأقوال سواه باطلة وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ونحن نسوق الأدلة عليه على نسق واحد .

(الدليل الأول) قوله تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) نفى الآية ثلاثة أدلة الاخبار بتوفيها وإمساكها وإرسالها .

(الرابع) قوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم اخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون) إلى قوله تعالى (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) .

وفيها أربعة أدلة :

(أحدها) بسط الملائكة أيديهم لتناولها .

(الثانى) وصفها بالإخراج والخروج .

(الثالث) الإخبار عن عذابها فى ذلك اليوم .

(الرابع) الإخبار عن مجيئها إلى ربها . فهذه سبعة أدلة .

(الثامن) قوله تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم اليه مرجعكم) إلى قوله تعالى (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) وفيها ثلاثة أدلة :

(أحدها) الاخبار بتوفى الأنفس بالليل .

(الثانى) بعثها إلى أجسادها بالنهار .

(الثالث) توفى الملائكة له عند الموت فهذه عشرة أدلة .

(الحادى عشر) قوله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) وفيها ثلاثة أدلة :

(أحدها) وصفها بالرجوع .

(الثانى) وصفها بالدخول .

(الثالث) وصفها بالرضا .

واختلف السلف هل يقال لها ذلك عند الموت أو عند البعث أو فى الموضعين ؟ على ثلاثة أقوال ، وقد روى فى حديث مرفوع أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال لأبى بكر الصديق أما أن الملك سيقولها لك عند الموت . قال زيد بن أسلم بشرت بالجنة عند الموت ويوم الجمع وعند البعث . وقال أبو صالح (ارجعى إلى ربك راضية مرضية) هذا عند الموت (فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) قال هذا يوم القيامة . فهذه أربعة عشر دليلا .

(الخامس عشر) قوله صلى الله عليه وآله وسلم إن الروح إذا قبض تبعه البصر . ففيه دليلان :

(أحدهما) وصفه بأنه يقبض .

(الثانى) أن البصر يراه .

(السابع عشر) مارواه النسائى حدثنا أبو داود عن عفان عن حماد عن أبى جعفر عن عمارة ابن خزيمة أن أباه قال رأيت فى المنام كأنى أسجد على جبهة النبى صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته بذلك فقال ان الروح ليلقى الروح فأقنع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هكذا . قال عفان برأسه إلى حلقه . فوضع جبهته (على جبهة — [1]) النبى صلى الله عليه وآله وسلم فأخبر أن الأرواح تتلاقى فى المنام وقد تقدم قول ابن عباس تلتقى أرواح الأحياء والأموات فى المنام فيتساءلون بينهم فيمسك الله أرواح الموتى .

(الثامن عشر) قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى حديث بلال ان الله قبض أرواحكم وردها اليكم حين شاء . ففيه دليلان وصفها بالقبض ، والرد .

(العشرون) قوله صلى الله عليه وآله وسلم نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة وفيه دليلان .

(أحدهما) كونها طائراً .

(الثانى) تعلقها فى شجر الجنة وأكلها على اختلاف التفسيرين .

(الثانى والعشرون) قوله أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث

---

[1] سقط من الأصل وهو ثابت فى الحديث .

شاءت وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش فاطلع اليهم ربك اطلاعة فقال أى شيء تريدون ؟ الحديث وقد تقدم وفيه ستة أدلة :

(أحدها) كونها مودعة فى جوف طير .

(الثانى) أنها تسرح فى الجنة .

(الثالث) أنها تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها .

(الرابع) أنها تأوى إلى تلك القناديل أى تسكن اليها .

(الخامس) أن الرب تعالى خاطبها واستنطقها فأجابته وخاطبته .

(السادس) أنها طلبت الرجوع إلى الدنيا فعلم أنها مما يقبل الرجوع . (فإن قيل) هذا كله صفة الطير لا صفة الروح (قيل) بل الروح المودعة فى الطير قصد ، وعلى الرواية التى رجحها أبو عمر ، وهى قوله « أرواح الشهداء كطير » ينتفى السؤال بالكلية .

(التاسع والعشرون) قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى حديث طلحة بن عبيد الله أردت مالى بالغابة فادركنى الليل فأويت إلى قبر عبدالله بن عمرو بن حزام فسمعت قراءة من القبر ماسمعت أحسن منها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذاك عبد الله ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة فاذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم فلا تزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم إلى مكانها التى كانت . وفيه أربعة أدلة سوى ما تقدم :

(أحدها) جعلها فى القناديل .

(الثانى) انتقالها من حيز إلى حيز .

(الثالث) تكلمها وقراءتها فى القبر .

(الرابع) وصفها بأنها فى مكان .

(الثالث والثلاثون) حديث البراء بن عازب وقد تقدم سياقه وفيه عشرون دليلا :

(أحدها) قول ملك الموت لنفسه (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية) وهذا الخطاب لمن يفهم ويعقل .

(الثانى) قوله اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان .

(الثالث) قوله فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء .

(الرابع) قوله فلا يدعونها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها منه .

(الخامس) قوله حتى يكفنوها فى ذلك الكفن ويحنطوها بذلك الحنوط . فأخبر أنها تكفن وتحنط .

(السادس) قوله ثم يصعد بروحه إلى السماء .

(السابع) قوله ويوجد منها كأطيب نفحة مسك وجدت .

(الثامن) قوله فتفتح له أبواب السماء .

(التاسع) قوله ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهى إلى الرب تعالى .

(العاشر) قوله فيقول تعالى ردوا عبدى إلى الأرض .

(الحادى عشر) قوله فترد روحه فى جسده .

(الثانى عشر) قوله فى روح الكافر فتفرق فى جسده فيجذبها فتقطع منها العروق والعصب .

(الثالث عشر) قوله ويوجد لروحه كأنتن ريح وجدت على وجه الأرض .

(الرابع عشر) قوله فيقذف بروحه عن السماء وتطرح طرحا فتهوى إلى الأرض .

(الخامس عشر) قوله فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب؟ وما هذا الروح الخبيث ؟

(السادس عشر) قوله فيجلسان ويقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فإن كان هذا للروح فظاهر ، وإن كان للبدن فهو بعد رجوع الروح اليه من السماء .

(السابع عشر) قوله فإذا صعد بروحه قيل أى رب عبدك فلان .

(الثامن عشر) قوله أرجعوه فأروه ماذا أعددت له من الكرامة . فيرى مقعده من الجنة أو النار .

(التاسع عشر) قوله فى الحديث إذا خرجت روح المؤمن صلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض ، فالملائكة تصلى على روحه وبنى آدم يصلون على جسده .

(العشرون) قوله فينظر إلى مقعده من الجنة أو النار حتى تقوم الساعة والبدن قد تمزق وتلاشى وإنما الذى يرى المقعدين الروح .

فصـــل

(الرابع والخمسون) حديث أبي موسى تخرج نفس المؤمن أطيب من ريح المسك فتتطلق بها الملائكة الذين يتوفونه فتلقاهم ملائكة من دون السماء فيقولون هذا فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت . بمحاسن عمله . فيقولون مرحباً بكم وبه فيقبضونها منهم فيصعد به من الباب الذى كان يصعد منه عمله فيشرق فى السموات وهو كبرهان الشمس حتى ينتهى بها إلى العرش ، وأما الكافر فاذا قبض انطلق بروحه فيقولون من هذا ؟ فيقولون فلان ابن فلان كان يعمل كيت وكيت . لمساوى أعماله . فيقولون لا مرحباً لا مرحباً ردوه فيرد إلى أسفل الأرض إلى الثرى ففيه عشرة أدلة :

(أحدها) خروج نفسه .

(الثانى) طيب ريحها .

(الثالث) انطلاق الملائكة بها .

(الرابع) تحية الملائكة لها .

(الخامس) قبضهم لها .

(السادس) صعودهم بها .

(السابع) إشراق السموات لضوئها .

(الثامن) انتهاؤها إلى العرش .

(التاسع) قول الملائكة من هذا ؟ وهذا سؤال عن عين وذات قائمة بنفسها .

(العاشر) قوله ردوه إلى أسفل الأرضين .

فصـــل

(الرابع والستون) حديث أبي هريرة إذا خرجت روح المؤمن تلقاه ملكان فيصعدانه إلى السماء فيقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه وذكر المسك ثم يصعد به إلى ربه عز وجل فيقول ردوه إلى آخر الأجلين ففيه ستة أدلة :

(أحدها) قوله تلقاه ملكان .

(الثانى) قوله فيصعدانه إلى السماء .

(الثالث) قول الملائكة روح طيبة جاءت من قبل الأرض .

(الرابع) صلاتهم عليها .
(الخامس) طيب ريحها .
(السادس) الصعود بها إلى الله عز وجل .

فصـــل

(الحادى والسبعون) حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن المؤمن تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان فلايزال يقال لها ذلك حتى تخرج فيعرج بها حتى ينتهى بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا ؟ فيقال فلان ابن فلان فيقال مرحباً بالنفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان فلايزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء قال أخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث أخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فلايزال يقال لها حتى تخرج فينتهى بها إلى السماء فيقال من هذا ؟ فيقال فلان ابن فلان فيقال لامرحبا بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ارجعى ذميمة فإنه لا تفتح لك أبواب السماء فترسل إلى الأرض ثم تصير إلى القبر . وهو حديث صحيح وفيه عشرة أدلة :

(أحدها) قوله كانت فى الجسد الطيب ، وكانت فى الجسد الخبيث . فهاهنا حال ومحل .
(الثانى) قوله أخرجى حميدة .
(الثالث) قوله وأبشرى بروح وريحان ، فهذا بشارة بما تصير إليه بعد خروجها .
(الرابع) قوله فلايزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء .
(الخامس) قوله فيستفتح لها .
(السادس) قوله أدخلى حميدة .
(السابع) قوله حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله تعالى .
(الثامن) قوله لنفس الفاجر ارجعى ذميمة .
(التاسع) فإنه لاتفتح لك أبواب السماء .
(العاشر) قوله فترسل إلى الأرض ثم تصير إلى القبر .

فصـــل

(الحادى والثمانون) قوله صلى الله عليه وآله وسلم الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . فوصفها بأنها جنود مجندة والجنود ذوات قائمة بنفسها ووصفها بالتعارف والتناكر ومحال أن تكون هذه الجنود أعراضا أو تكون لا داخل العالم ولا خارجه ولا بعض لها ولا كل .

(الثانى والثمانون) قوله فى حديث ابن مسعود رضى الله عنه على الأرواح تتلاقى وتتشامم كما تشام الخيل . وقد تقدم .

(الثالث والثمانون) قوله فى حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن أرواح المؤمنين تتلاقى على مسيرة يومين وما رأى أحدهما صاحبه .

(الرابع والثمانون) الآثار التى ذكرناها فى خلق آدم وأن الروح لما دخل فى رأسه عطس فقال الحمد لله فلما وصل الروح إلى عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما وصل إلى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن يبلغ الروح رجليه وأنها دخلت كارهة وتخرج كارهة .

(الخامس والثمانون) الآثار التى فيها إخراج الرب تعالى النسم وتمييز شقيهم من سعيدهم وتفاوتهم حينئذ فى الإشراق والظلمة وأرواح الأنبياء فيهم مثل السرج . وقد تقدم .

(السادس والثمانون) حديث تميم الدارى أن روح المؤمن إذا صعد بها إلى الله خر ساجدا بين يديه وأن الملائكة تتلقى الروح بالبشرى وأن الله تعالى يقول لملك الموت انطلق بروح عبدى فضعه فى مكان كذا وكذا . وقد تقدم .

(السابع والثمانون) الآثار التى ذكرناها فى مستقر الأرواح بعد الموت واختلاف الناس فى ذلك وفى ضمن ذلك الاختلاف إجماع السلف على أن الروح مستقر بعد الموت وإن اختلف فى تعيينه .

(الثامن والثمانون) ما قد علم بالضرورة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء به وأخبر به الأمة انه تنبت أجسادهم فى القبور فاذا نفخ فى الصور رجعت كل روح إلى جسدها فدخلت فيه فانشقت الأرض عنه فقام من قبره .

وفى حديث الصور أن إسرافيل عليه السلام يدعو الأرواح فتأتيه جميعاً أرواح المسلمين نورا والأخرى مظلمة فيجمعها جميعا فيعلقها فى الصور ثم ينفخ فيه فيقول الرب جل جلاله وعزتى ليرجعن كل روح إلى جسده فتخرج الأرواح من الصور مثل النحل قد ملأت ما بين

السماء والأرض فيأتى كل روح إلى جسده فيدخل ويأمر الله الأرض فتنشق عنهم فيخرجون سراعا إلى ربهم ينسلون مهطعين إلى الداعى يسمعون المنادى من مكان قريب فاذا هم قيام ينظرون .

وهذا معلوم بالضرورة ان الرسول أخبر به وان الله سبحانه لاينشىء لهم أرواحا غير أرواحهم التى كانت فى الدنيا بل هى الأرواح التى اكتسبت الخير والشر أنشأ أبدانها نشأة أخرى ثم ردها إليها .

(التاسع والثمانون) ان الروح والجسد يختصمان بين يدى الرب عز وجل يوم القيامة . قال على بن عبد العزيز حدثنا أحمد بن يونس حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبى سعد [1] البقال عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ماتزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى يخاصم الروح الجسد فيقول الروح يارب إنما كنت روحاً منك جعلتنى فى هذا الجسد فلا ذنب لى . ويقول الجسد يارب كنت جسدا خلقتنى ودخل فى هذا الروح مثل النار فيه ، كنت أقوم وبه كنت أقعد وبه أذهب وبه أجىء لاذنب لى . قال فيقال أنا أقضى بينكما أخبرانى عن أعمى ومقعد دخلا حائطاً فقال المقعد للاعمى إنى أرى ثمرا فلو كانت لى رجلان لتناولت فقال الأعمى أنا أحملك على رقبتى فحمله فتناول من الثمر فأكلا جميعا فعلى من الذنب ؟ قالا عليهما جميعا فقال قضيتما على أنفسكما .

(التسعون) الأحاديث والآثار الدالة على عذاب القبر ونعيمه إلى يوم البعث فمعلوم أن الجسد تلاشى واضمحل وان العذاب والنعيم المستمرين إلى يوم القيامة إنما هو على الروح .

(الحادى والتسعون) أخبار الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم فى الحديث الصحيح عن الشهداء انهم لما سئلوا ما تريدون ؟ قالوا نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فيك مرة أخرى فهذا سؤال وجواب من ذات حية عالمة ناطقة تقبل الرد الى الدنيا والدخول فى أجساد خرجت منها وهذه الأرواح سئلت وهى تسرح فى الجنة والأجساد قد مزقها البلى .

(الثانى والتسعون) ماثبت عن سلمان الفارسى وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم أن أرواح المؤمنين فى برزخ تذهب حيث شاءت وأرواح الكفار فى سجين . وقد تقدم .

(الثالث والتسعون) رؤية النبى صلى الله عليه وآله وسلم لأرواح الناس عن يمين آدم ويساره ليلة الاسراء . فرآها متحيزة بمكان معين .

---

[1] فى الأصل : أبو سعيد . خطأ . وهو أبو سعد سعيد بن المرزبان . قال فى التقريب . ضعيف مدلس .

(الرابع والتسعون) رؤيته أرواح الأنبياء فى السموات وسلامهم عليه وترحيبهم به كما أخبر به ، وأما أبدانهم فى الأرض .

(الخامس والتسعون) رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم أرواح الأطفال حول إبراهيم الخليل عليه السلام .

(السادس والتسعون) رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم أرواح المعذبين فى البرزخ بأنواع العذاب فى حديث سمرة الذى رواه البخارى فى صحيحه ، وقد تلاشت أجسادهم واضمحلت وإنما كان الذى رآه أرواحهم ونسمهم يفعل بها ذلك .

(السابع والتسعون) اخباره سبحانه عن الذين قتلوا فى سبيله أنهم أحياء عند ربهم يرزقون وأنهم فرحون مستبشرون باخوانهم . وهذا للأرواح قطعاً لأن الأبدان فى التراب تنظر عود أرواحها إليها يوم البعث .

(الثامن والتسعون) ما تقدم من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، ونحن نسوقه ليتبين كم فيه من دليل على بطلان قول الملاحدة وأهل البدع فى الروح . وقد ذكرنا إسناده فيما تقدم ، قال بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم قاعداً تلا هذه الآية (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت) الآية ثم قال والذى نفس محمد بيده مامن نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار فاذا كان عند ذلك صف له سماطان من الملائكة ينتظمان ما بين الخافقين كأن وجوههم الشمس فينظر اليهم مايرى غيرهم وإن كنتم ترون أنه ينظر اليكم مع كل ملك منهم أكفان وحنوط فان كان مؤمناً بشروه بالجنة وقالوا اخرجى أيتها النفس المطمئنة إلى رضوان الله وجنته فقد أعد الله لك من الكرامة ماهو خير لك من الدنيا وما فيها فلا يزالون يبشرونه فهم ألطف به وأرأف من الوالدة بولدها ثم يسلون روحه من تحت كل ظفر ومفصل يموت الأول فالأول ويبرد كل عضو الأول فالأول ويهون عليهم وإن كنتم ترونه شديداً حتى تبلغ ذقنه فلهى أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم فيبتدرونها كل ملك منهم أيهم يقبضها فيتولى قبضها ملك ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله سلم (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) فيتلقاها بأكفان بيض ثم يحتضنها اليه فلهو أشد لزوما من المرأة لولدها ثم يفوح منها ريح أطيب من المسك فيستنشقون ريحا طيبا ويتباشرون بها ويقولون مرحباً بالريح الطيبة والروح الطيب اللهم صل عليه روحا وصل على جسد خرجت منه ، قال فيصعدون بها فتفوح لهم ريح أطيب من المسك فيصلون عليها ويتباشرون بها وتفتح لهم أبواب السماء ويصلى عليها كل ملك فى كل سماء تمر بهم حتى تنتهى بين يدى الجبار جل جلاله فيقول الجبار عز وجل مرحباً بالنفس

الطيبة ادخلوها الجنة وأروها مقعدها من الجنة وأعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والنعيم ثم اذهبوا بها إلى الأرض فإني قضيت أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . فوالذى نفس محمد بيده لهى أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد وتقول أين تذهبون بى ؟ إلى ذلك الجسد الذى كنت فيه ؟ فيقولون إنا مأمورون بهذا فلابد لك منه . فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه فيدخلون ذلك الروح بين الجسد وأكفانه . فتأمل كم فى الحديث من موضع يشهد ببطلان قول المبطلين فى الروح .

(التاسع والتسعون) ماذكره عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم عن عبد الرحمن ابن البيلمانى عن عبد الله بن عمر [1] رضى الله عنهما قال إذا توفى المؤمن بعث إليه ملكان بريحان من الجنة وخرقة تقبض فيها فتخرج كأطيب رائحة وجدها أحدقط بأنفه حتى يؤتى به الرحمن جل جلاله فتسجد الملائكة قبله ويسجد بعدهم ثم يدعى ميكائيل عليه السلام فيقال اذهب بهذه النفس فاجعلها مع أنفس المؤمنين حتى أسألك عنها يوم القيامة .

وقد تظاهرت الآثار عن الصحابة أن روح المؤمن تسجد بين يدى العرش فى وقاة النوم ووقاة الموت ، وأما حين قدومها على الله فأحسن تحيتها أن تقول اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام .

(وحدثنى) القاضى نور الدين بن الصائغ قال كانت لى خالة وكانت من الصالحات العابدات قال عدتها فى مرض موتها فقالت لى الروح إذا قدمت على الله ووقفت بين يديه ما تكون تحيتها وقولها له ؟ قال فعظمت على مسألتها وفكرت فيها ثم قلت تقول اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام . قال فلما توفيت رأيتها فى المنام فقالت لى جزاك الله خيراً لقد دهشت فما أدرى ما أقوله ثم ذكرت تلك الكلمة التى قلت لى فقلتها .

فصل

(المائة) ما قد اشترك فى العلم به عامة أهل الأرض من لقاء أرواح الموتى وسؤالهم لهم وإخبارهم إياهم بأمور خفيت عليهم فرأوها عيانا وهذا أكثر من أن يتكلف إيراده .

وأعجب من هذا (الوجه الحادى والمائة) أن روح النائم يحصل لها فى المنام آثار فتصبح يراها على البدن عيانا وهى من تأثير الروح فى الروح كما ذكر القيروانى فى (كتاب البستان) عن بعض السلف .

---

[1] فى نسخة . ابن عمرو .

(قال) كان لى جار يشتم أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فلما كان ذات يوم أكثر من شتمهما فتناولته وتناولنى فانصرفت إلى منزلى وأنا مغموم حزين فنمت وتركت العشاء فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى المنام فقلت يارسول الله فلان يسب أصحابك قال من أصحابى ؟ قلت أبو بكر وعمر فقال خذ هذه المدية فاذبحه بها فأخذتها فأضجعته وذبحته ورأيت كأن يدى أصابها من دمه فالقيت المدية وأهويت بيدى إلى الأرض لأمسحها فانتبهت وأنا أسمع الصراخ من نحو داره فقلت ماهذا الصراخ ؟ قالوا فلان مات فجأة فلما أصحنا جئت فنظرت إليه فإذا خط موضع الذبح .

وفى (كتاب المنامات) لابن أبى الدنيا عن شيخ من قريش قال رأيت رجلا بالشام قد اسود نصف وجهه وهو يغطيه فسألته عن ذلك ؟ فقال قد جعلت لله على أن لا يسألنى أحد عن ذلك إلا أخبرته به كنت شديد الوقيعة فى على بن أبى طالب رضى الله عنه فبينا أنا ذات ليلة نائم إذ أتانى آت فى منامى فقال لى أنت صاحب الوقيعة فى ؟ فضرب شق وجهى فأصبحت وشق وجهى أسود كما ترى .

(وذكر) مسعدة عن هشام بن حسان عن واصل مولى أبى عيينة عن موسى بن عبيدة عن صفية بنت شيبة قالت كنت عند عائشة رضى الله عنها فأتتها امرأة مشتملة على يدها فجعل النساء يولعن بها ، فقالت ما أتيتك إلا من أجل يدى ان أبى كان رجلا سمحا وانى رأيت فى المنام خياضا عليها رجال معهم آنيـــة يسقون من أتاهم فرأيت أبى قلت أين أمى ؟ فقال انظرى فنظرت فإذا أمى ليس عليها إلا قطعة خرقة فقال انها لم تتصدق قط إلا بتلك الخرقة وشحمة من بقرة ذبحوها فتلك الشحمة تذاب وتطرى بهـــا وهى تقول واعطشاه ! قالت فأخذت اناء من الآنية فسقيتها فنوديت من فوق من سقاها أيبس الله يده فأصبحت يدى كما ترين .

(وذكر) الحارث بن أسد المحاسبى واصبغ وخلف بن القاسم وجماعة عن سعيد بن مسلمة قال بينا امرأة عند عائشة إذ قالت بأبيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن لا أشرك بالله شيئاً ولا أسرق ولا أزنى ولا أقتل ولدى ولا آتى ببهتان أفتريه من بين يدى ورجلى ولا أعصى فى معروف فوفيت لربى ووفالى ربى فوالله لا يعذبنى الله فأتاها فى المنام ملك فقال لها كلا انك تتبرجين ، وزينتك تبدين وخيرك تكندين [1] وجارك تؤذين ، وزوجك تعصين . ثم وضع أصابعه الخمس على وجهها وقال خمس بخمس ولو زدت زدناك فأصبحت وأثر الأصابع فى وجهها .

---

[1] الكنود : كفران النعمة ، والبخل . قاموس .

(وقال) عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك سمعت مالكا يقول إن يعقوب بن عبدالله ابن الاشج كان من خيار هذه الأمة نام فى اليوم الذى استشهد فيه فقال لأصحابه انى قد رأيت أمرا ولأخبرنه انى رأيت كأنى أدخلت الجنة فسقيت لبنا فاستبقاء فقاء اللبن واستشهد بعد ذلك . قال أبو القاسم وكان فى غزوة فى البحر بموضع لا لبن فيه ، وقد سمعت غير مالك يذكره ويذكر أنه معروف فقال انى رأيت كأنى ادخل الجنة فسقيت فيها لبنا فقال له بعض القوم أقسمت عليك لما تقيأت فقاء لبنا يصلد أى يبرق . ومما فى السفينة لبن ولا شاة قال ابن قتيبة قوله يصلد أى يبرق يقال صلد اللبن ومنه يصلد ومنه حديث عمر أن الطبيب سقاه لبنا فخرج من الطعنة أبيض يصلد .

(وكان) نافع القارىء إذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك فقيل له كلما قعدت تتطيب فقال ما أمس طيبا ولا أقربه ولكن رأيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى المنام وهو يقرأ فى فمى فمن ذلك الوقت يشم من فى هذه الرائحة .

(وذكر) مسعدة فى كتابه فى الرؤيا عن ربيع بن الرقاشى قال أتانى رجلان فقعدا إلى فاغتابا رجلا فنهيتهما فأتانى أحدهما بعد فقال انى رأيت فى المنام كأن زنجيا أتانى بطبق عليه جنب خنزير لم أر لحما قط أسمن منه فقال لى كل فقلت آكل لحم خنزير ؟ فتهددنى فأكلت فأصبحت وقد تغير فمى فلم يزل يجد الريح فى فمه شهرين .

(وكان) العلاء بن زياد له وقت يقوم فيه فقال لأهله تلك الليلة إنى أجد فترة فاذا كان وقت كذا فأيقظونى فلم يفعلوا قال فأتانى آت فى منامى فقال قم ياعلاء بن زياد اذكر الله يذكرك وأخذ بشعرات فى مقدم رأسى فقامت تلك الشعرات فى مقدم رأسى فلم تزل قائمة حتى مات . قال يحيى بن بسطام فلقد غسلناه يوم مات وانهن لقيام فى رأسه .

(وذكر) ابن أبى الدنيا عن أبى حاتم الرازى عن محمد بن على قال كنا بمكة فى المسجد الحرام قعودا فقام رجل نصف وجهه أسود ونصفه أبيض فقال يا أيها الناس اعتبروا بى فانى كنت أتناول الشيخين وأشتمهما فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ أتانى آت فرفع يده فلطم وجهى وقال لى ياعدو الله يافاسق ألست تسب أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فأصبحت وأنا على هذه الحالة .

(وقال) محمد بن عبد الله [1] المهلبى رأيت فى المنام كأنى فى رحبة بنى فلان وإذا النبى صلى الله عليه وآله وسلم جالس على أكمة ومعه أبو بكر وعمر واقف قدامه فقال له عمر

---

[1] ن . محمد بن عباد .

يارسول الله ان هذا يشتمني ويشتم أبا بكر فقال جيء به يا أبا حفص فأتى برجل فإذا هو العماني وكان مشهوراً بسبهما فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم أضجعه فأضجعه ثم قال اذبحه فذبحه ، قال فما نبهني إلا صياحه فقلت مالي لا أخبره ؟ عسى أن يتوب فلما تقربت من منزله سمعت بكاء شديداً فقلت ماهذا البكاء ؟ فقالوا العماني ذبح البارحة على سريره قال فدنوت من عنقه فإذا من أذنه إلى أذنه طريقة حمراء كالدم المحصور .

(وقال) القيرواني أخبرني شيخ لنا من أهل الفضل قال أخبرني أبو الحسن المطلبي امام مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال رأيت بالمدينة عجباً ! كان رجل يسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فبينا نحن يوما من الأيام بعد صلاة الصبح إذ أقبل رجل وقد خرجت عيناه وسالتا على خديه فسألناه ماقصتك ؟ فقال رأيت البارحة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى بين يديه ومعه أبو بكر وعمر فقالا يارسول الله هذا الذي يؤذينا ويسبنا ! فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أمرك بهذا ياأبا قيس ؟ فقلت له على وأشرت عليه فاقبل على على بوجهه ويده وقد ضم أصابعه وبسط السبابة والوسطى وقصد بها إلى عيني فقلت إن كنت كذبت فقأ الله عينيك وأدخل أصبعيه في عيني فانتبهت من نومي وأنا على هذه الحال فكان يبكي يخبر الناس وأعلن بالتوبة .

(قال) القيرواني وأخبرني شيخ من أهل الفضل قال أخبرني فقيه قال كان عندنا رجل يكثر الصوم ويسرده ولكنه كان يؤخر الفطر فرأى في المنام كأن أسودين آخذين بضبعيه وثيابه إلى تنور محمى ليلقياه فيه قال فقلت لهما على ماذا ؟ فقالا على خلافك لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنه أمر بتعجيل الفطر وأنت تؤخره . قال فأصبح وجهه قد اسود من وهج النار فكان يمشي متبرقعاً في الناس .

وأعجب من هذا الرجل يرى في المنام وهو شديد العطش والجوع والألم أن غيره قد سقاه وأطعمه أو داواه بدواء فيستيقظ وقد زال عنه ذلك كله وقد رأى الناس من هذا عجائب .

وقد ذكر مالك عن أبي الرجال عن عمرة عن عائشة أن جارية لها سحرتها وأن سندياً دخل عليها وهي مريضة فقال إنك سحرت ؛ قالت ومن سحرني ؟ قال جارية في حجرها صبي قد بال عليها . فدعت جاريتها فقالت حتى أغسل بولا في ثوبي ، فقالت لها أسحرتني ؟ قالت نعم ؛ قالت وما دعاك إلى ذلك ؟ قالت أردت تعجيل العتق فأمرت أخاها أن يبيعها من الأعراب ممن يسيء ملكها فباعها ثم ان عائشة رأت في منامها أن اغتسلي من ثلاثة آبار يمد بعضها بعضاً فاستسقى لها فاغتسلت فبرأت .

(وكان) سماك بن حرب قد ذهب بصره فرأى إبراهيم الخليل فى المنام فمسح على عينيه وقال اذهب إلى الفرات فتغمس فيه ثلاثاً . ففعل فأبصر .

(وكان) إسماعيل بن بلال الحضرمى قد عمى فأتى فى المنام فقيل له قل ياقريب ياسميع الدعاء ياطيف بمن يشاء رد على بصرى ؛ فقال الليث بن سعد أنا رأيته قد عمى ثم أبصر .

(وقال) عبيد الله بن أبى جعفر اشتكيت شكوى فجهدت منها فكنت أقرأ آية الكرسى فنمت فإذا رجلان قائمان بين يدى فقال أحدهما لصاحبه أن يقرأ آية فيها ثلاثمائة وستون رحمة أفلا يصيب هذا المسكين فيها رحمة واحدة ؟ فاستيقظت فوجدت خفة .

(قال) ابن أبى الدنيا اعتلت امرأة من أهل الخير والصلاح بوجع المعدة فرأت فى المنام قائلا يقول لها لاإله إلاالله المغلى وشراب الورد . فشربته فأذهب الله عنها ما كانت تجد .

(قال) وقالت أيضاً رأيت فى المنام كأنى أقول السناء والعسل وماء الحمص الأسود شفاء لوجع الأوراك ؛ فلما استيقظت أتتنى امرأة تشكو وجعاً بوركها فوصفت لها ذلك فاستنفعت به.

(وقال) جالينوس السبب الذى دعانى إلى فصد العروق الضوارب أنى أمرت به فى منامى مرتين قال كنت إذ ذاك غلاما قال وأعرف إنسانا شفاه الله من وجع كان به فى جنبه بفصد العرق الضارب لرؤيا رآها فى منامه .

(وقال) ابن الخراز كنت أعالج رجلا ممعودا فغاب عنى ثم لقيته فسألته عن حاله فقال رأيت فى المنام إنسانا فى زى ناسك متوكئا على عصا وقف على وقال انت رجل ممعود ؟ فقلت نعم ، فقال عليك بالكباء والجلنجبين . فأصبحت فسألت عنهما فقيل لى الكباء المصطكى والجلنجبين الورد المربى بالعسل فاستعملتهما أياما فبرأت ، فقلت له: ذلك جالينوس .

والوقائع فى هذا الباب أكثر من أن تذكر . قال بعض الناس ان أصل الطب من المنامات ولاريب أن كثيراً من أصوله مستند إلى الرؤيا ، كما أن بعضها عن التجارب وبعضها عن القياس وبعضها عن الهام ؛ ومن أراد الوقوف على ذلك فلينظر فى (تاريخ الأطباء) وفى (كتاب البستان للقيروانى) وغير ذلك .

فصـــل

(الوجه الثانى بعد المائة) قوله تعالى (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء) وهذا دليل على أن المؤمنين تفتح لهم أبواب السماء ، وهذا التفتيح هو تفتيحها لأرواحهم

عند الموت كما تقدم فى الأحاديث المستفيضة أن السماء تفتح لروح المؤمن حتى ينتهى بها إلى بين يدى الرب تعالى .

وأما الكافر فلا تفتح لروحه أبواب السماء ولا تفتح لجسده أبواب الجنة .

فصـــل

(الوجه الثالث بعد المائة) قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم يا بلال ما دخلت الجنة إلا سمعت خشخشتك بين يدى فيم ذاك ؟ قال ما أحدثت فى ليل أو نهار إلا توضأت وصليت ركعتين . قال بهما ، ومعلوم أى الذى سمع خشخشته بين يديه هو روح بلال ، وإلا فجسده لم ينقل إلى الجنة .

(الوجه الرابع بعد المائة) الأحاديث والآثار التى فى زيارة القبور والسلام على أهلها ومخاطبتهم والاخبار عن معرفتهم بزوارهم وردهم عليهم السلام . وقد تقدمت الإشارة إليها .

(الوجه الخامس بعد المائة) شكاية كثير من أرواح الموتى إلى أقاربهم وغيرهم أموراً مؤذية فيجدونها كما شكوه فيزيلونها .

(الوجه السادس بعد المائة) لو كانت الروح عبارة عن عرض من أعراض البدن أو جوهر مجرد ليس بجسم ولا حال فيه لكان قول القائل خرجت وذهبت وقمت وجئت وقعدت وتحركت ودخلت ورجعت ونحو ذلك كله أقوالا باطلة لأن هذه الصفات ممتنعة الثبوت فى حق الأعراض والمجردات ، وكل عاقل يعلم صدق قوله وقول غيره ذلك فالقدح فى ذلك قدح فى أظهر المعلومات من باب السفسطة (لايقال) حاصل هذا الدليل التمسك بألفاظ الناس وإطلاقاتهم وهى تحتمل الحقيقة والمجاز فلعل مرادهم دخل جسمى وخرج . لانا إنما استدللنا بشهادة العقل والفطرة بمعانى هذه الالفاظ فكل أحد يشهد عقله وحسه بأنه هو الذى دخل وخرج وانتقل لا مجرد بدنه فشهادة الحس والعقل بمعانى هذه الألفاظ وإضافتها إلى الروح أصلا وإلى البدن تبعاً من أصدق الشهادات والاعتماد على ذلك لا على مجرد الاطلاق اللفظى .

(الوجه السابع بعد المائة) أن البدن مركب ومحل لتصرف النفس فكان دخول البدن وخروجه وانتقاله جارياً مجرى دخول مركبه من فرسه ودابته فلو كانت النفس غير قابلة للدخول والخروج والانتقال والحركة والسكون لكان ذلك بمنزلة دخول مركب الإنسان إلى الدار وخروجه منها دون دخوله هو ، وهذا معلوم البطلان بالضرورة ، وكل أحد يعلم أن نفسه

وروحه هى التى دخلت وخرجت وانتقلت وصرفت البدن وجعلته تبعالها فى الدخول والخروج فهو لها بالأصل والبدن بالتبع لكنه للبدن بالمشاهدة وللروح بالعلم والعقل .

(الوجه الثامن بعد المائة) أن النفس لو كانت كما يقوله من يقول أنهـــا عرض لكان الإنسان كل وقت قد يبدل مائة ألف نفس أو أكثر ، والإنسان إنما هو إنسان بروحه ونفسه لا ببدنه وكان الإنسان الذى هو الإنسان غير الذى هو قبله بلحظة وبعده بلحظة ، وهـذا من نوع الهوس ولو كانت الروح مجردة ، وتعلقها بالبدن بالتدبير فقط لا بالمساكنة والمداخلة لم يمتنع أن ينقطع تعلقها بهذا البدن وتتعلق بغيره كما يجوز انقطاع تدبير المدبر لبيت أو مدينة عنها ويتعلق بتدبير غيرها وعلى هذا التدبير فنصير شاكين فى أن هذه النفس التى لزيد هى النفس الأولى أو غيرها ؟ وهل زيد هو ذلك الرجل أم غيره وعاقل لا يجوز ذلك فلو كانت الروح عرضاً او أمراً مجرداً لحصل الشك المذكور .

(الوجه التاسع بعد المائة) أن كل أحد يقطع أن نفسه موصوفة بالعلم والفكر والحب والبغض والرضا والسخط وغيرها من الأحوال النفسانية ويعلم أن الموصوف ليس بذلك عرضاً من أعراض بدنه ولا جوهراً مجرداً منفصلا عن بدنه غير مجاور له ويقطع ضرورة بأن هـذه الإدراكات لأمر داخل فى بدنه كما يقطع بأنه إذا سمع وأبصر وشم وذاق ولمس وتحـــرك وسكن فتلك أمور قائمة به مضافة إلى نفسه ، وأن جوهر النفس هو الذى قام به ذلك كله لم يقم بمجرد ولا بعرض بل قام بمتحيز داخل العالم منتقل من مكان إلى مكان يتحرك ويسكن ويخرج ويدخل وليس إلا هذا البدن والجسم السارى فيـــه المشابك له الذى لولاه لكان بمنزلة الجماد .

(الوجه العاشر بعد المائة) ان النفس لو كانت مجردة وتعلقها بالبدن تعلق التدبير فقط كتعلق الملاح بالسفينة والجمال بحمله لأمكنها ترك تدبير هـــذا البدن واشتغالها بتدبير بدن آخر كما يمكن الملاح والجمال ذلك ، وفى ذلك تجويز نقل النفوس من أبدان إلى أبدان . ولا يقال أن النفس اتحدت ببدنها فامتنع عليها الانتقال أو أنها لها عشق طبيعى وشوق ذاتى إلى تدبير هذا البدن فلهذا السبب امتنع انتقالهـــا . لأنا نقول الاتحاد ما لا يتحيز بالمتحيز محال ، ولأنها لو اتحدت به لبطلت ببطلانه ولأنها بعد الاتحاد إن بقيا فهما اثنان لا واحد ، وإن عدما معا وحدث ثالث فليس من الاتحاد فى شىء ، وإن بقى أحدهما وعدم الآخر فليس باتحاد أيضاً . وأما عشق النفس الطبيعى للبدن فالنفس إنما تعشقه لأنها تتناول اللذات بواسطته ، وإذا كانت الأبدان متساوية فى حصول مطلوبها كانت نسبتها اليها على السواء ، فقولكم ان النفس

المعينة عاشقة للبدن المعين باطل . ومثال ذلك العطشان إذا صادف آنية متساوية كل منها يحصل غرضه امتنع عليه أن يعشق واحداً منها بعينه دون سائرها .

(الوجه الحادى عشر بعد المائة)ان نفس الإنسان لو كانت جوهرا مجردا لاداخل العالم ولا خارجه ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة عنه ولا مباينة له ولا مجانبة لكان يعلم بالضرورة أنه موجود بهذه الصفة لأن علم الانسان بنفسه وصفاتها أظهر من كل معلوم وأن علمه بما عداه تابع لعلمه بنفسه ، ومعلوم قطعا ان ذلك باطل فان جماهير أهل الأرض يعلمون أن إثبات هذا الموجود محال فى العقول شاهدا وغائباً فمن قال ذلك فى نفسه وربه فلا نفسه عرف ولا ربه عرف .

(الوجه الثانى عشر بعدالمائة) ان هذاالبدن المشاهد محل لجميع صفات النفس وإدراكاتها الكلية والجزئية ومحل للقدرة على الحركات الإرادية فوجب أن يكون الحامل لتلك الإدراكات والصفات هو البدن وماسكن فيه . أما ان يكون محلها جوهرا مجردا لاداخل العالم ولا خارجه فباطل بالضرورة .

(الوجه الثالث عشر بعد المائة) أن النفس لو كانت مجردة عن الجسمية والتحيز لامتنع أن يتوقف فعلها على مماسة محل الفعل لأن مالا يكون متحيزا يمتنع أن يصير مماساً للمتحيز ، ولو كان الامر كذلك لكان فعلها على سبيل الاختراع من غير حاجة إلى حصول مماسة وملاقاة بين الفاعل وبين محل الفعل فكان الواحد منا يقدر على تحريك الاجسام من غير أن يماسها أو يماس شيئاً يماسها فان النفس عندكم كما كانت قادرة على تحريك البدن من غير أن يكون بينها وبينه مماسة كذلك لاتمنع قدرتها على تحريك جسم غيره من غير مماسة له ولا لما يماسه وذلك باطل بالضرورة ، فعلم أن النفس لا تقوى على التحريك إلا بشرط أن تماس محل الحركة أو تماس ما يماسه وكل ما كان مماسه للجسم أو لما يماسه فهو جسم . فان قيل يجوز أن يكون تأثير النفس فى تحريك بدنها الخاص غير مشروط بالمماسة وتأثيرها فى تحريك غيره موقوف على حصول المماسة بين بدنها وبين ذلك الجسم ، فالجواب انه لما كان قبول البدن لتصرفات النفس لا يتوقف على حصول المماسة بين النفس وبين البدن وجب أن تكون الحال كذلك فى غيره من الأجسام لأن الأجسام متساوية فى قبول الحركة ، ونسبة النفس إلى جميعها سواء لأنها إذا كانت مجردة عن الجسمية وعلائق الجسمية كانت نسبة ذاتها إلى الكل بالسوية ومتى كانت ذات الفاعل نسبتها إلى الكل بالسوية والقوابل نسبتها إلى ذلك الفاعل بالسوية كان التأثير بالنسبة إلى الكل على السواء فاذا استغنى الفاعل عن مماسة محل الفعل فى حق البعض وجب أن يستغنى فى حق الجميع ، وإن افتقر إلى المماسة فى البعض

وجب افتقاره فى الجميع ، فإن قيل النفس عاشقة لهذا البدن دون غيره فكان تأثيرها فيه أقوى من تأثيرها فى غيره . قيل هذا العشق الشديد يقتضى أن يكون تعلقها بالبدن أكثر وتصرفها فيه أقوى فاما أن يتغير مقتضى ذاتها بالنسبة إلى هذه الأجسام فذلك محال . وهذا دليل فى غاية القوة .

(الوجه الرابع عشر بعد المائة) أن العقلاء كلهم متفقون على أن الإنسان هو هذا الحى الناطق المتغذى النامى الحساس المتحرك بالإرادة وهذه الصفات نوعان صفات لبدنه وصفات لروحه ونفسه الناطقة ، فلو كانت الروح جوهرا مجردا لاداخل العالم ولاخارجه ولامتصلة به ولا منفصلة عنه لكان الإنسان لاداخل العالم ولا خارجه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه أو كان بعضه فى العالم وبعضه لاداخل العالم ولاخارجه ، وكل عاقل يعلم بالضرورة بطلان ذلك وأن الإنسان بجملته داخل العالم بدنه وروحه ، وهذا فى البطلان يضاهى قول من قال أن نفسه قديمة غير مخلوقة فجعلوا نصف الانسان مخلوقاً ونصفه غير مخلوق (فان قيل) نحن نسلم أن الانسان كما ذكرتم إلا أنا نثبت جوهراً مجرداً يدبر الانسان الموصوف بهذه الصفات .

قلنا فذلك الجوهر الذى أثبتموه مغاير للانسان أو هو حقيقة الإنسان ؟ ولا بد لكم من أحد الأمرين ، فان قلتم هو غير الإنسان رجع كلامكم إلى أنكم أثبتم للانسان مدبراً غيره سميتموه نفساً ، وكلامنا الآن إنما هو فى حقيقة الإنسان لافى مدبره فان مدبر الإنسان وجميع العالم العلوى والسفلى هو الله الواحد القهار .

(الوجه الخامس عشر بعد المائة) أن كل عاقل إذا قيل له ما الإنسان ؟ فانه يشير إلى هذه البنية وما قام بها لايخطر بباله أمر مغاير لها مجرد ليس فى العالم ولا خارجه والعلم بذلك ضرورى لا يقبل شكا ولا تشكيكا .

(الوجه السادس عشر بعد المائة) أن عقول العالمين قاضية بأن الخطاب متوجه إلى هذه البنية وما قام بها وساكنها ، وكذلك المدح والذم والثواب والعقاب والترغيب والترهيب ، ولو أن رجلا قال للمأمور والمنهى والممدوح والمذموم والمخاطب والعاقل جوهر مجرد ليس فى العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه لأضحك العقلاء على عقله ولأطبقوا على تكذيبه ، وكل ماشهدت بداهة العقول وصرائحها ببطلانه كان الاستدلال على ثبوته استدلالا على صحة وجود المحال . وبالله التوفيق .

فصـــل

فان قيل قد ذكرتم الأدلة الدالة على جسميتها وتحيزها فما جوابكم عن أدلة المنازعين لكم فى ذلك ؟ فانهم استدلوا بوجوه .

(أحدها) اتفاق العقلاء على قولهم الروح والجسم والنفس والجسم فيجعلونها شيئا غير الجسم فلو كانت جسما لم يكن لهذا القول معنى .

(الثانى) وهو أقوى مايحتجون به أنه من المعلوم أن فى الموجودات ماهو غير قابل للقسمة كالنقطة والجوهر الفرد بل ذات واجب الوجود فوجب أن يكون العلم بذلك غير قابل للقسمة ؛ فوجب أن يكون الموصوف بذلك العلم وهو محله غير قابل للقسمة وهو النفس فلو كانت جسما لكانت قابلة للقسمة . ويقرر هذا الدليل على وجه آخر وهو أن محل العلوم الكلية لو كان جسما أو جسمانياً لانقسمت تلك العلوم لأن الحال فى المنقسم [1] ، وانقسام تلك العلوم مستحيل .

(الثالث) أن الصور العقلية الكلية مجردة بلاشك وتجردها إما أن يكون بسبب المأخوذ عنه أو بسبب الأخذ ، والأول باطل لأن هذه الصور إنما أخذت عن الأشخاص الموصوفة بالمقادير المختلفة والأوضاع المعينة ، فثبت أن تجردها إنما هو بسبب الأخذ لها والقوة العقلية المسماه بالنفس .

(الرابع) أن القوة العاقلة تقوى على أفعال غير متناهية ، فانها تقوى على إدراكات لا تتناهى والقوة الجسمانية لا تقوى على أفعال غير متناهية لأن القوة الجسمانية تنقسم بانقسام محلها فالذى يقوى عليه بعضها يجب أن يكون أقل من الذى يقوى عليه الكل ، فالذى يقوى عليه الكل يزيد على الذى يقوى عليه البعض أضعافا متناهية والزائد على المتناهى بمتناه متناه .

(الخامس) أن القوة العاقلة لو كانت حالة فى آلة جسمانية لوجب أن تكون القوة العاقلة دائمة الإدراك لتلك الآلة أو ممتنعة الادراك لها بالكلية وكلاهما باطل . لأن إدراك القوة العاقلة لتلك الآلة إن كان عين وجودها فهو محال ، وان كان صورة مساويه لوجودها وهى حالة فى القوة العقلية الحالة فى تلك الآلة لزم اجتماع صورتين متماثلتين وهو محال ، وإذا بطل هذا ثبت أن القوة العاقلة لو أدركت آلتها لكان إدراكها عبارة عن نفس حصول تلك الآلة عند القوة العاقلة فيجب حصول الادراك دائماً إن كفى هذا القدر فى حصول

---

[1] كذا ولعله سقط منقسم .

الادراك وإن لم يكف امتنع حصول الادراك فى وقت من الأوقات إذ لو حصل فى وقت دون وقت لكان بسبب أمر زائد على مجرد حضور صورة الآلة .

(السادس) أن كل أحد يدرك نفسه وإدراك الشيء عبارة عن حضور ماهية المعلوم عند العالم فاذا علمنا أنفسنا فهو إما أن يكون لأجل حضور ذواتنا لذواتنا أولأجل حضور صورة مساوية لذواتنا فى ذواتنا ، والقسم الثانى باطل وإلا لزم اجتماع المثلين فثبت انه لامعنى لعلمنا بذاتنا الاحضورذاتنا عند ذاتنا وهذا انما يكون اذا كانت ذاتا قائمة بالنفس غنية عن المحل لأنها لوكانت حالة فى محل كانت حاضرة عند ذلك المحل فثبت ان هذا المعنى إنما يحصل إذا كانت النفس قائمة بنفسها غنية عن محل تحل فيه .

(السابع) مااحتج به أبو البركات البغدادى وأبطل ما سواه فقال لانشك أن الواحد منا يمكنه أن يتخيل بحرا من زئبق وجبلا من ياقوت وشموساً وأقمارا فهـــذه الصور الخيالية لا تكون معدومة لأن قوة المتخيل تشير إلى تلك الصور وتميز بين كل صورة وغيرها وقد يقوى ذلك المتخيل إلى أن يصير كالمشاهد المحسوس ، ومعلوم أن العدم المحض والنفى الصرف لايثبت ذلك ونحن نعلم بالضرورة ان هـذه الصور ليست موجودة فى الأعيان فثبت أنها موجودة فى الاذهان ، فنقول محل هـذه الصورة إما أن يكون جسما أو حالا فى الجسم أو لاجسما ولاحالا فى الجسم . والقسمان الأولان باطلان لأن صورة البحر والجبل صورة عظيمة والدماغ والقلب جسم صغير وانطباع العظيم فى الصغير محال فثبت أن محل هذه الصورة الخيالية ليس بجسم ولاجسمانى .

(والثامن) لوكانت القوة العقلية جسدانية لضعفت فى زمان الشيخوخة دائما وليس كذلك .

(التاسع) ان القوة العقلية غنية فى أفعالها عن الجسم وما كان غنيا فى فعله عن الجسم وجب أن يكون غنيا فى ذاته عن الجسم . بيان الأول أن القوه العقليـة تدرك نفسها ومن المحال أن يحصل بينها وبين نفسها آلة متوسطة أيضا ، وتدرك إدراكها لنفسها وليس هـذا الإدراك بآلة . وأيضاً فانها تدرك الجسم الذى هو آلتها وليس بينهاوبين آلتها آلة أخرى ، وبيان الثانى من وجهين :

(أحدهما) أن القوى الجسمانية كالناظرة والسامعة والخيال والوهم لما كانت جسمانية يقدر عليها إدراك ذواتها وإدراكها لكونها مدركة لذواتها وإدراكها لتلك الأجسام الحاملة لها ، فلو كانت القوة العاقلة جسمانية لتعذر عليها هذه الأمور الثلاثة .

(الثانى) أن مصدر الفعل هو النفس فلو كانت النفس متعلقة فى قوامها ووجودها بالجسم لم تحصل تلك الأفعال إلا بشركة من الجسم ، ولما ثبت أنه ليس كذلك ثبت أن القوة العقلية غنية عن الجسم .

(العاشر) أن القوة الجسمانية تكل بكثرة الأفعال ولا تقوى على القوى بعد الضعف وسببه ظاهر فان القوى الجسمانية بسبب مزاولة الافعال تتعرض موادها للتحلل والذبول وهو يوجب الضعف ، وأما القوة العقلية فانها لا تضعف بسبب كثرة الافعال وتقوى على القوى بعد الضعف فوجب أن لا تكون جسمانية .

(الحادى عشر) أنا إذا حكمنا بأن السواد مضاد للبياض وجب أن يحصل فى الذهن ماهية السواد والبياض والبداهة حاكمة بأن اجتماع السواد والبياض والحرارة والبرودة فى الاجسام محال فلما حصل هذا الاجتماع فى القوة العقلية وجب أن لا تكون قوة جسمانية .

(الثانى عشر) أنه لو كان محل الإدراكات جسما وكل جسم منقسم لا محالة لم يمنع أن يقوم ببعض أجزاء الجسم علم بالشىء وبالبعض الآخر منه جهل وحينئذ فيكون الانسان فى الحال الواحد عالما بالشىء وجاهلا به .

(الثالث عشر) أن المادة الجسمانية إذا حصلت فيها نقوش مخصوصة فان وجود تلك النقوش فيها يمنع من حصول نقوش غيرها ، وأما النقوش العقلية فبالضد من ذلك لأن الأنفس إذا كانت خالية من جميع العلوم والإدراكات فانه يصعب عليها التعلم فاذا تعلمت شيئا صار حصول تلك العلوم معيناً على سهولة غيرها ، فالنقوش الجسمانية متغايرة متنافية والنقوش العقلية متعاونة متعاضدة .

(الرابع عشر) ان النفس لو كانت جسما لكان بين إرادة العبد تحريك رجله وبين تحريكها زمان على قدر حركة الجسم وثقله ، فان النفس هى المحركة للجسد والممهد لحركته فلو كان المحرك للرجل جسما فإما أن يكون حاصلا فى هذه الأعضاء أو جائيا اليها ، فان كان جائيا إليها احتاج إلى مدة ولابد ، وإن كان حاصلا فيها فنحن إذا قطعنا تلك العضلة التى تكون بها الحركة لم يبق منها فى العضو المتحرك شىء فلو كان ذلك المتحرك حاصلا فيه لبقى منه شىء فى ذلك العضو .

(الخامس عشر) لو كانت النفس جسما لكانت منقسمة ولصح عليها أن يعلم بعضها كما يعلم كلها فيكون الانسان عالما ببعض نفسه جاهلا بالبعض الآخر وذلك محال .

(السادس عشر) لو كانت النفس جسما لوجب أن يثقل البدن بدخولها فيه لأن شأن

الجسم الفارغ إذا ملأه غيره أن يثقل به كالزق الفارغ والأمر بالعكس فأخف مايكون البدن إذا كانت فيه النفس وأثقل مايكون إذا فارقته .

(السابع عشر) لوكانت النفس جسما لكانت على صفات سائر الأجسام التى لايخلوشيء منهامن الخفة والثقل والحرارة والبرودة والنعومة والخشونة والسواد والبياض وغير ذلك من صفات الأجسام وكيفياتها . ومعلوم أن الكيفيات النفسانية إنما هى الفضائل والرذائل لاتلك الكيفيات الجسمانية فالنفس ليست جسما .

(الثامن عشر) انها لوكانت جسما لوجب أن يقع تحت جميع الحواس أوتحت حاسة منها أوحاستين أوأكثر ، فانانرى الاجسام كذلك منهامايدرك بجميع الحواس ومنهامايدرك بأكثرها ومنها مايدرك بحاستين منها أو واحدة . والنفس بريئة من ذلك كله . وهذه الحجة التى احتج بها جهم على طائفة من الملاحدة حين أنكروا الخالق سبحانه وقالوا لوكان موجودا لوجب أن يدرك بحاسة من الحواس فعارضهم بالنفس وأنى تتم المعارضة إذا كانت جسما وإلا لوكانت جسما لجاز إدراكها ببعض الحواس .

(التاسع عشر) لوكانت جسما لكانت ذات طول وعرض وعمق وسطح وشكل وهذه المقادير والابعاد لاتقوم إلا بمادة ومحل . فان كانت مادتها ومحلها نفسا لزم اجتماع نفسين ، وإن كان غير نفس كانت النفس مركبة من بدن وصورة وهى فى جسد مركب من بدن وصورة فيكون الانسان انسانين .

(العشرون) ان من خاصة الجسم أن يقبل التجزى والجزء الصغير منه ليس كالكبير ولوقبلت التجزى فكل جزء منها إن كان نفساً لزم أن يكون الانسان نفوس كثيرة لانفس واحدة ، وإن لم يكن نفسا لم يكن المجموع نفسا كما أن جزء الماء إن لم يكن ماء لم يكن مجموعه ماء .

(الحادى والعشرون) أن الجسم محتاج فى قوامه وحفظه وبقائه إلى النفس ولهذا يضمحل ويتلاشى لما تفارقه ، فلوكانت جسما لكانت محتاجة إلى نفس أخرى وهلم جرا ويتسلسل الأمر وهذا المحال إنما لزم من كون النفس جسما .

(الثانى والعشرون) لوكانت جسما لكان اتصالها بالجسم إن كان على سبيل المداخلة لزم تداخل الأجسام ، وإن كان على سبيل الملاصقة والمجاورة كان الانسان الواحد جسمين متلاصقين أحدهما يرى والآخر لايرى .

فهذا كل ماموهت به هذه الطائفة المبطلة من منخنقة وموقوذة ومتردية ونحن نجيبهم عن ذلك كله فصلا بفصل بحول الله وقوته ومعونته .

فصـــل

فأما قولهم ان العقلاء متفقون على قولهم الروح والجسم والنفس والجسم وهذا يدل على تغايرهما . فالجواب أن يقال ان مسمى الجسم فى اصطلاح المتفلسفة والمتكلمين أعم من مسماه فى لغة العرب وعرف أهل العرف فان الفلاسفة يطلقون الجسم على قابل الابعاد الثلاثة خفيفا كان أو ثقيلا مرئيا كان أو غير مرئى فيسمون الهواء جسما والنار جسما والماء جسما وكذلك الدخان والبخار والكوكب ، ولا يعرف فى لغة العرب تسمية شىء من ذلك جسما البتة بهذه لغتهم وأشعارهم ، وهذه النقول عنهم فى كتب اللغة ، قال الجوهرى قال أبو زيد الجسم الجسد وكذلك الجسمان والجثمان . قال الأصمعى الجسم والجسمان الجسد والجثمان الشخص وقد جسم الشىء أى عظم فهو عظيم جسيم وجسام بالضم .

ونحن اذا سمينا النفس جسما فانما هو باصطلاحهم وعرف خطابهم وإلا فليست جسما باعتبار وضع اللغة ، ومقصودنا بكونها جسما إثبات الصفات والأفعال والأحكام التى دل عليها الشرع والعقل والحس من الحركة والانتقال والصعود والنزول ومباشرة النعيم والعذاب واللذة والألم وكونها تحبس وترسل وتقبض وتدخل وتخرج ، فلذلك أطلقنا عليها إسم الجسم تحقيقا لهذه المعانى وإن لم يطلق عليها أهل اللغة إسم الجسم فالكلام مع هذه الفرقة المبطلة فى المعنى لا فى اللفظ فقول أهل التخاطب الروح والجسم هو بهذا المعنى .

فصـــل

وأما الشبهة الثانية . فهى أقوى شبههم التى بها يصلون وعليها يعولون وهى مبنية على أربع مقدمات .

(احداها) ان فى الوجود ما لا يقبل القسمة بوجه من الوجوه .

(الثانية) انه يمكن العلم به .

(الثالثة) ان العلم به غير منقسم .

(الرابعة) انه يجب أن يكون محل العلم به كذلك إذ لو كان جسما لكان منقسما .

وقد نازعهم فى ذلك جمهور العقلاء وقالوا لم تقيموا دليلا على أن فى الوجود ما لا يقبل القسمة الحسية ولا الوهمية وإنما بأيديكم دعاو لاحقيقة لها وانما أثبتموه من واجب الوجود وهو بناء على أصلكم الباطل عند جميع العقلاء من أهل الملل وغيرهم من انكار ماهية الرب

تعالى وصفاته وانه وجود مجرد لاصفة له ولا ماهية وهذاقول باينتم به العقول وجميع الكتب المنزلة من السماء وإجماع الرسل ونفيتم به علم الله وقدرته ومشيئته وسمعه وبصره وعلوه على خلقه ونفيتم به خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وسميتموه توحيدا وهو أصـــل كل تعطيل .

(قالوا) والنقطة التى استدللتم بهاهى من أظهر مايبطل دليلكم فانها غير منقسمة وهى حالة فى الجسم المنقسم فقدحل فى المنقسم ماليس بمنقسم . ثم ان مثبتى الجوهر الفرد وهم جمهور المتكلمين ينازعونكم فى هذا الأصل ويقولون الجوهر حال فى الجسم بل هو مركب منه فقد حل فى المنقسم ماليس بمنقسم ولا يمكن تتميم دليلكم إلا بنفى الجوهر الفرد ، فان قلتم النقطة عبارة عن نهاية الخط وفنائه وعدمه فهى أمر عدمى . بطل استدلالكم بها ، وإن كانت أمراً وجودياً فقد حلت فى المنقسم فبطل الدليل على التقديرين .

(قالوا) أيضاً لم لايكون العلم حالا فى محله لاعلى وجه النوع والسريان فان حلول كل شىء فى محله بحسبه فحلول الحيوان فى الدار نوع ، وحلول العرض فى الجسم نوع ، وحلول الخط فى الكتاب نوع ، وحلول الدهن فى السمسم نوع وحلول الجسم فى العرض نوع ، وحلول الروح فى البدن نوع ، وحلول العلوم والمعارف فى النفس نوع .

(قالوا) وأيضاً فالوحدة حاصلة فان كانت جوهرا فقدثبت الجوهر الفرد وبطل دليلكم فانه لايتم إلا بنفيه ، وإن كان عرضاً وجب أن يكون لها محل ، فمحلها إن كان منقسما فقدجاز قيام غير المنقسم بالمنقسم فهو الجوهر وبطل الدليل . فان قلتم الوحدة أمر عدمى لا وجود له فى الخارج فكذلك أثبتم به وجود مالا ينقسم كلها أمور عدمية لاوجود لها فى الخارج فان واجب الوجود الذى أثبتموه أمر عدمى بل مستحيل الوجود .

(قالوا) وأيضا فالاضافات عارضة لا أقسام مثل الفوقية والتحتية والمالكية والمملوكية فلو انقسم الحال بانقسام محله لزم انقسام هذه الاضافات فكان يكون لحقيقة الفوقية والتحتية ربع وثمن وهذا لايقبله العقل .

(قالوا) وأن القوة الوهمية والفكرية جسمانية عند زعيمكم ابن سينا فيلزم أن يحصل لها أجزاء وأبعاض وذلك محال لأنها لو انقسمت لكان كل واحد من أبعاضها إن كان مثلها كان الجزء مساويا للكل وإن لم يكن مثلها لم تكن تلك الأجزاء كذلك .

وأيضاً فإن الوهم لا معنى له إلا كون هذا صديقاً وهذا عدوا وذلك لايقبل القسمة .

(قالوا) وأن الوجود أمر زائد على الماهيات عندكم فلو لزم انقسام الحال لانقسام محله

لزم انقسام ذلك الوجود بانقسام محله . وهـــذا الوجه لايلزم من جعل وجود الشيء غير ماهيته .

(قالوا) وأيضاً فطبائع الأعداد ماهيات مختلفة ، فالمفهوم من كون العشرة عشرة مفهوم واحد وماهية واحدة ، فتلك الماهية اما أن تكون عارضة لكل واحد من تلك الآحاد وهو محال ، واما أن تنقسم بانقسام تلك الآحاد وهو محال ، لأن المفهوم من كون العشرة عشرة لايقبل القسمة . نعم العشرة تقبل القسمة لاعشريتها . قالوا فقد قدم مالاينقسم بالمنقسم .

(قالوا) وأيضاً فالكيفيات المختصات بالكميات كالاستدارة والتقوس ونحوهما عند الفلاسفة أعراض موجودة فى شبه الاستدارة ، إن كان عرضاً فاما أن يكون بتمامه قائماً . وإما أن يكون بكل واحد من الأجزاء وهو محال ، واما أن ينقسم ذلك العرض بانقسام الأجزاء ويقوم بكل جزء من أجزاء الخط جزء من أجزاء ذلك العرض وهو محال ، لأن جزأه إن كان استدارة لزم أن يكون جزء الدائرة دائرة ، وإن لم يكن استدارة فعند اجتماع الأجزاء إن لم يحدث أمر زائد وجب أن لاتحصل الاستدارة وإن حدث أمر زائد فان كان منقسما عاد التقسيم وإن لم ينقسم كان الحال غير منقسم ومحله منقسما .

(قلت) وهذا لايلزمهم فان لهم أن يقولوا ينقسم بانقسام محله تبعاً له كسائر الأعراض القائمة بمحالها من البياض والسواد ، وأما مالاينقسم كالطول فشرط حصوله اجتماع الأجزاء والمعلق على الشرط منتف بانتفائه .

(قالوا) وإن هذه الأجسام ممكنة بذواتها وذلك صفة عرضية لها خارجة عن ماهيتها فان لم تنقسم بانقسام محلها بطل الدليل ، وإن انقسمت عاد المحذور المذكور من مساواة الجزء للكل والتسلسل .

(قلت) وهذه أيضا لا يلزمهم لأن الامكان ليس أمرا يدل على قبول الممكن للوجود والعدم وذلك القبول من لوازم ذاته ليس صفة عارضة له ولكن الذهن يجرد هذا القبول عن القابل فيكون عروضه للماهية بتجريد الذهن ، وأما قضية مشاركة الجزء للكل فلا امتناع فى ذلك كسائر الماهيات البسيطة ، فان جزأها مساو لكلها فى الحد والحقيقة كالماء والتراب والهواء وانما الممتنع ان يساوى الجزء للكل فى الكم لا فى نفس الحقيقة .

والمعول فى ابطال هذه الشبهة على أن العلم ليس بصورة حالة فى النفس وانما هو نسبة واضافة بين العلم والمعلوم كما نقول فى الابصار أنه ليس بانطباع صورة مساوية للمبصر فى القوة الباصرة وانما هو نسبة واضافة بين القوة الباصرة والمبصر وعامة شبههم التى أوردوها

فى هذا الفصل مبنية على انطباع صورة المعلوم فى القوة العالمـــة ثم بنوا على ذلك أن انقسام مالاينقسم فى المنقسم محال .

وقولهم محل العلوم الكلية لو كان جسما أو جسمانيا لانقسمت تلك العلوم لأن الحال فى المنقسم منقسم لم يذكروا جسمه هذه المقدمة دليلا ولاشبهة وإنمـــا بأيديهم مجرد الدعوى وليست بديهية حتى تستغنى عن الدليل وهى مبنية على أن العلم بالشىء عن حصول صورة مساوية لماهية المعلوم فى نفس العالم وهذا من أبطل الباطل للوجوه التى نذكرها هناك .

وأيضاً فلو سلمنا لكم ذلك كان من أظهر الأدلة على بطلان قولكم فان هـذه الصورة إذا كانت حالة فى جوهر النفس الناطقة فهى صورة جزئية حالة فى نفس جزئيـــة تقارنها سائر الأعراض الحالة فى تلك النفس الجزئية فاذا اعتبرنا تلك الصورة مع جملة هذه اللواحق لم تكن صورة مجردة بل مقرونة بلواحق وعوارض وذلك يمنع كليتها .

(فان قلتم) المراد بكونها كلية انا إذا حذفنا عنها تلك اللواحق واعتبرناها من حيث هى هى كانت كلية قلنا لكم فاذا جاز هذا فلم لايجوز أن يقال هذه الصورة حالة فى مادة جسمانيـة مخصوصة بمقدار معين وبكل معين إلا أنا إذا حذفنا عنها ذلك واعتبرناها من حيث هى هى كانت بمنزلة تلك الصورة التى فعلنا بها ذلك فالمعين فى مقابلة المعين المطلق المأخوذ من حيث هو هو فى مقابلة محله المطلق ، وهذا هو المعقول الذى شهدت به العقول الصحيحة والميزان الصحيح ، فظهر أن هذه الشبهة من أفسد الشبه وأبطلها ، وإنما أتى القوم من الكليات فإنها هى التى خربت دورهم وأفسدت نظرهم ومناظرهم فإنهم جردوا أموراً كلية لاوجود لها فى الخارج ثم حكموا عليها بأحكام الموجودات وجعلوها ميزانا وأصلا للموجودات .

فاذا جردوا صور المعلومات وجعلوها كلية جردنا نحن محلها وجعلناه كليا . وان أخذوا جزئية معينة فمحلها كذلك ؛ فالكلى فى مقابلة الكلى والجزئى فى مقابلة الجزئى .

على أنا نقول ليس فى الذهن كلى وانما فى الذهن صورة معينه مشخصة منطبعة على سائر أفرادها ، فان سميت كلية بهذا الاعتبار فلامشاحة فى الألفاظ وهى كلية وجزئية باعتبارين.

فصـــل

قولكم فى الوجه الثالث أن الصور العقلية الكلية مجردة وتجردها انما هو بسبب الآخذ لها وهو القوة العقلية . جوابه أن يقال ماالذى تريدون بهذه الصـورة العقلية الكلية ؟ أتريدون به أن المعلوم حصل فى ذات العالم أو أن العلم به حصل فى ذات العالم ، فالأول ظاهر الاحالة

والثانى حق الا أنه لايفيدكم شيئاً لأن الأمر الكلى المشترك بين الأشخاص الإنسانية هو الإنسانية لا العلم بها والإنسانية لاوجود لها فى الخارج كلية والوجود فى الخارج للمعينات فقط والعلم تابع للمعلوم فكما أن المعلوم معين فالعلم به معين لكنه صورة منطبقة على أفراد كثيرة ، فليس فى الذهن ولا فى الخارج صورة غير منقسمة البتة ، وكم قد غلط فى هذا الموضع طوائف من العقلاء لايحصيهم إلا الله تعالى ، فالصورة الكلية التى يثبتونها ويزعمون أنها حالة فى النفس فهى صورة شخصية موصوفة بعوارض شخصية ، فهب أن هذه الصورة العقلية حالة فى جوهر ليس بجسم ولا جسمانى فانها غير مجردة عن العوارض (فان قلتم) مرادنا بكونها مجردة النظر اليها من حيث هى هى مع قطع النظر عن تلك العوارض .

قيل لكم فلم لايجوز أن تكون الصورة الحالة فى المحل الجسمانى منقسمة وإنما تكون مجردة إذا نظرنا اليها من حيث هى هى بقطع النظر عن عوارضها .

فصل

قولكم فى الرابع أن العقلية تقوى على أفعال غير متناهية ولاشىء من القوى الجسمانية كذلك . فجوابه انا لانسلم أنها تقوى على أفعال غير متناهية .

وقولكم أنها تقوى على إدراكات لاتتناهى هى والإدراكات أفعال . مقدمتان كاذبتان فإن إدراكاتها ولو بلغت ما بلغت فهى متناهية فلو كان لها بكل نفس ألف ألف إدراك لتناهت إدراكاتها فهى قطعاً تنتهى فى الإدراكات والمعارف إلى حد لايمكنها أن تزيد عليه شيئاً كما قال تعالى (وفوق كل ذى علم عليم) إلى أن ينتهى العلم إلى من هو بكل شىء عليم ، فهو الله الذى لا إله إلا هو وحده ، وذلك من خصائصه التى لايشاركه فيها سواه .

(فان قلتم) لو انتهى إدراكها إلى حد لايمكنها المزيد عليه لزم انقلاب الشىء من الإمكان الذاتى ، قلنا فهذا بعينه لو صح دل على أن القوة الجسمانية تقوى على أفعال غير متناهية ، وذلك يوجب سقوط الشبهة وبطلانها .

وأيضاً فإن قوة التخيل والتفكر والتذكر تقوى على استحضار المخيلات والمذكرات إلى غير نهاية مع أنها عندكم قوة جسمانية .

(فإن قلتم) لا نسلم أنها تقوى على مالا يتناهى قيل لكم هكذا يقول خصومكم فى القوة العاقلة سواء .

وأما كذب المقدمة الثانية فإن الإدراك ليس بفعل فلايلزم من تناهى فعلها تناهى إدراكها وقد صرحتم بأن الجوهر العقلى قابل لصورة المعلوم لا أنها فاعل لها ، والشىء الواحد لا يكون

فاعلا وقابلا عندكم ، وقد صرحتم بأن الأجسام يمتنع عليها أفعال لانهاية لها ولايمتنع عليها مجهولات وانفعالات لاتتناهى ، وقد أورد ابن سينا على هذه الشبهة سؤالا فقال أليس النفس الفلكية المباشرة لتحريك الفلك قوة جسمانية مع أن الحركات الفلكية غير متناهية ؟ وأجاب عنه بأنها وإن كانت قوة جسمانية إلاأنها تستمد الكمال من العقل المفارق فلهذا السبب قدرت على أفعال غير متناهية .

فنقول فإذا كان الأمر عندك كذلك فلم لا يجوز أن يقال النفس الناطقة تستمد الكمال والقوة من فاطرها ومنشئها الذى له القوة جميعاً فلا جرم تقوى مع كونها جسمانية على مالا يتناها فإذا قلت بذلك وافقت الرسل والعقل ودخلت مع زمرة المسلمين وفارقت العصبة المبطلين .

فصل

(قولكم فى الخامس) لو كانت القوة العاقلة حالة فى آلة جسمانية لوجب أن تكون دائمة الإدراك لتلك الآلة أو ممتنعة الإدراك لها فهو مبنى على أصلكم الفاسد أن الإدراك عبارة عن حصول صورة مساوية المدرك فى القوة المدركة ، ثم لو سلمنا لكم ذلك الأصل لم يفدكم شيئاً فان حصول تلك الصورة يكون شرطاً لحصول الإدراك ، فأما أن يقول أو يقال أن الإدراك عين حصول تلك الصورة فهذا لايقوله عاقل ، فلم لايجوز أن يقال للقوة العقلية حالة فى جسم مخصوص ، ثم أن القوة الناطقة قد تحصل لها حالة إضافية تسمى بالشعور والإدراك فحينئذ تصير القوة العاقلة مدركة لتلك الآلة ، وقد لاتوجد تلك الحالة الإضافية فتصير غافلة عنها ، وإذا كان هذا ممكناً سقطت تلك الشبهة رأساً . ثم نقول أتدعون أنا إذا عقلنا شيئاً فإن الصورة الحاضرة فى العقل مساوية لذلك المعقول من جميع الوجوه والاعتبارات أولايجب حصول هذه المساواة من جميع الوجوه ؟ فالأول لايقوله عاقل وهو أظهر من أن يحتج لفساده وإذا علم أنه لاتجب المساواة من جميع الوجوه لم يلزم من حدوث صورة أخرى فى القلب أو الدماغ اجتماع المثلين .

وأيضاً فالقوة العاقلة حالة فى جوهر القلب أو الدماغ ، والصورة الحادثة حالة فى القوة العاقلة ، فاحدى الصورتين محل للقوة العاقلة[1] وأيضاً فنحن إذا رأينا المسافة الطويلة والبعد الممتد هل يتوقف هذا الابصار على ارتسام صورة المرئى فى عين الرائى أو لايتوقف ؟ فإن توقف لزم اجتماع المثلين لأن القوة الباصرة عندكم جسمانية فهى فى محل له حجم ومقدار فإذا حصل

---

[1] كذا .

فيه حجم المرئى ومقداره لزم اجتماع المثلين ، وإذا جاز هناك فلم لا يجوز مثله فى مسئلتنا ؟ وإن كان إدراك الشيء لايتوقف على حصول صورة المرئى فى الرائى بطل قولكم أن إدراك القلب والدماغ يتوقف على حصول صورة القلب والدماغ فى القوة العاقلة .

وأيضاً فقولكم لو كانت القوة العقلية حالة فى جسم لوجب أن تكون دائمة الإدراك لذلك الجسم لكن إدراكنا لقلبنا ودماغنا غير دائم فهذا إنما يلزم من يقول أنها حالة فى القلب أو الدماغ وأما من يقول أنها حالة فى جسم مخصوص وهو النفس وهى مشابكة للبدن فهذا الالزام غير وارد عليه فانه يقول النفس جسم مخصوص والإنسان أبداً عالم بأنه جسم مخصوص ولايزول ذلك عن عقله إلا إذا عرضت له الغفلة فسقطت الشبهة التى عولتم عليها على كل تقدير .

فصـــل

(قولكم فى السادس) أن كل أحد يدرك نفسه ، والإدراك عبارة عن حصول ماهية المعلوم عند العالم وهذا إنما يصح إذا كانت النفس غنية عن المحل إلى آخره .

جوابه أن ذلك مبنى على الأصل المتقدم وهو أن العلم عبارة عن حصول صورة مساوية للمعلوم فى نفس العالم ، وهذا باطل من وجوه كثيرة مذكورة فى مسألة العلم ، حتى لو سلم ذلك فالصورة المذكورة شرطاً فى حصول العلم لا أنها نفس العلم .

وأيضاً فهذه الشبهة مع ركاكة ألفاظها وفساد مقدماتها منقوضة فانا إذا أخذنا حجراً أو خشبة قلنا هذا جوهر قائم بنفسه ، فذاته حاضرة عند ذاته فيجب فى هذه الجمادات أن تكون عالمة بذواتها .

وأيضاً فجميع الحيوانات مدركة لذواتها فلو كان كون الشيء مدركا لذاته تقتضى كون ذاته جوهراً مجرداً لزم كون نفوس الحيوانات بأسرها جواهر مجردة وأنتم لاتقولون بذلك .

فصـــل

(قولكم فى السابع) الواحد منا يتخيـــل بحراً من زئبق وجبلا من ياقوت إلى آخره وهو شبهة أبو البركات البغدادى ، فشبهة داحضة جداً فانها مبنية على أن تلك المتخيلات أمور موجودة وأنها منطبعة فى النفس الناطقة انطباع النقش فى محله ومعلوم قطعاً أن هذه المتخيلات لاحقيقة لها فى ذاتها وإنما الذهن يفرضها تقديراً وليست منطبعة فى النفس فإن العلوم الخارجية لايتطبع صورها فى النفس فكيف بالخيالات المعدومة ؟ فهذه مندحضة ولايمنع من وقوع

التميز بين الاعدام المضافة فإن العقل يميز بين عدم السمع وعدم البصر وعدم الشم وغير ذلك ولا يلزم من هذا التميز كون هذه الاعدام موجودة ، بل يميز بين أنواع المستحيلات التى لا يمكن وجودها البتة . ثم نقول إذا عقل حلول الأشكال والمقادير فيما كان مجرداً عن الحجمية والمقدار من كل الوجوه أفلا يعقل حلول العلم بالشكل العظيم والمقدار العظيم فى الجسم الصغير ؟ وأيضاً فإذا كان عدم الانطباق من جميع الوجوه لا يمنع من حلول الصورة والشكل فى الجوهر المجرد فعدم انطباق العظيم على الصغير أولى أن لا يمنع من حلول الصورة العظيمة فى المحل الصغير .

وأيضاً فان سلفكم من الأوائل أقاموا الدليل على أن انطباع الصورة الحالة فى الجوهر المجرد محال وذكروا له وجوها .

فصـــل

(قولكم فى الثامن) لو كانت القوة العقلية جسدانية لضعفت فى زمن الشيخوخة وليس كذلك جوابه من وجوه :

(الوجه الأول) لم يجوز أن يقال القدر المحتاج إليه من صحة البدن فى كمال القوة العقلية مقدار معين ، وأما كمال حال البدن فى الصحة فانه غير معتبر فى كمال حال القوة العقلية ، وإذا احتمل ذلك لم يبعد أن يقال ذلك القدر المحتاج إليه باق إلى آخر الشيخوخة فبقى العقل إلى آخرها .

(الوجه الثانى) أن الشيخ لعله إنما يمكنه أن يستمر فى الإدراكات العقلية على الصحة أن عقله يبقى ببعض الأعضاء التى يتأخر الفساد والاستحالة اليها فاذا انتهى اليها الفساد والاستحالة فسد عقله وإدراكه .

(الوجه الثالث) أنه لا يمتنع أن يكون بعض الأمزجة أوفق لبعض القوى ، فلعل مزاج الشيخ أوفق للقوة العقلية فلهذا السبب تقوى فيه القوة العاقلة .

(الوجه الرابع) أن المزاج إذا كان فى غاية القوة والشدة كانت سائر القوى قوية فتكون القوة الشهوانية والغضبية قوية جداً وقوة هذه القوى تمنع العقل من الاستكمال ، فإذا حصلت الشيخوخة وحصل الضعف حصل بسبب الضعف ضعف فى هذه القوى المانعة للعقل من الاستكمال وحصل فى العقل أيضاً ضعف ولكن بعد ما حصل فى العقل من الضعف حصل ذلك فى أضداده فينجبر النقصان من أحد الجانبين بالنقصان من الجانب الآخر فيقع الاعتدال .

(الوجه الخامس) أن الشيخ حفظ العلوم والتجارب الكثيرة ومارس الأمور ودربها

وكثرت تجاربه ، وهذه الأحوال تعينه على وجوه الفكر وقوة النظر فقام[1] النقصان الحاصل بسبب ضعف البدن والقوى .

(الوجه السادس) أن كثرة الأفعال بسبب حصول الملكات الراسخة فصارت الزيادة الحاصلة بهذا الطريق جابراً للنقصان الحاصل بسبب اختلال البدن .

(الوجه السابع) أنه قد ثبت فى الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال يهرم ابن آدم وتشب فيه خصلتان الحرص وطول الأمل . والواقع شاهد لهذا الحديث مع أن الحرص والأمل من القوى الجسمانية والصفات الخيالية ثم أن ضعف البدن لم يوجب ضعف هاتين الصفتين فعلم أنه لا يلزم من اختلال البدن وضعفه ضعف الصفات البدنية .

(الوجه الثامن) أنا نرى كثيراً من الشيوخ يصيرون إلى الخرف وضعف العقل بل هذا هو الأغلب ويدل عليه قوله تعالى (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا) فالشيخ فى أرذل عمره يصير كالطفل أو أسوأ حالا منه وأما من لم يحصل له ذلك فانه لا يرد إلى أرذل العمر .

(الوجه التاسع) أنه لا تلازم بين قوة البدن وقوة النفس ولا بين ضعفه وضعفها فقد يكون الرجل قوى البدن ضعيف النفس جباناً خواراً وقد يكون ضعيف البدن قوى النفس فيكون شجاعا مقداما على ضعف بدنه .

(الوجه العاشر) أنه لو سلم لكم ماذكرتم لم يدل على كون النفس جوهراً مجرداً لا داخل العالم ولا خارجه ولا هى فى البدن ولا خارجة عنه لأنها إذا كانت جسما صافياً مشرقا سماوياً مخالفاً للأجسام الأرضية لم تقبل الانحلال والذبول والتبدل كما تقبله الأجسام المتحللة الأرضية فلا يلزم من حصول الانحلال والذبول فى هذا البدن حصولها فى جوهر النفس .

فصل

(قولكم فى التاسع) أن القوة العقلية غنية فى أفعالها عن الجسم وما كان غنياً عن الجسم فى أفعاله كان غنياً عنه فى ذاته إلى آخره . جوابه أن يقال لا يلزم من ثبوت حكم فى قوة جسمانية ثبوت مثل ذلك الحكم فى جميع القوى الجسمانية وليس معكم غير الدعوى المجردة والقياس الفاسد .

---

[1] كذا ولعله فقام مقام .

وأيضاً فالصور والأعراض محتاجة إلى محلها وليس احتياجها إلى تلك المحال إلا لمجرد ذواتها ولايلزم من استقلالها بهذا الحكم استغناؤها فى ذواتها عن تلك المحال فلا يلزم من كون الشيء مستقلا باقتضاء حكم من الأحكام أن يكون مستغنيا فى ذاته عن المحال والله أعلم .

فصـــل

(قولكم فى العاشر) أن القوة الجسمانية تكل بكثرة الأفعال ولاتقوى على القوى بعد الضعف إلى آخره جوابه أن القوة الخيالية جسمانية ثم إنها تقوى على تخيل الأشياء العظيمة مع تخيلها الأشياء الحقيرة فإنها يمكنها أن تتخيل الشعلة الصغيرة حال ما تخيل الشمس والقمر.

وأيضاً فإن الابصار القوية القاهرة تمنع ابصار الأشياء الضعيفة ، فكذلك نقول العقول العظيمة العالية تمنع تعقـــل المعقولات الضعيفة فان المستغرق فى معرفة جلال رب الأرض والسموات وأسمائه وصفاته يمتنع عليه فى تلك الحال الفكر فى ثبوت الجوهر الفرد وحقيقته .

فصـــل

(قولكم فى الحادى عشر) انا إذا حكمنا بأن السواد مضاد للبياض وجب أن يحصل فى الذهن ماهية السواد والبياض معاً والبداهة حاكمة بأن اجتماعهما فى الجسم محال . جوابه أن هذا مبنى على أن من أدرك شيئاً فقد حصل فى ذات المدرك صورة مساوية للمدرك ، وهـذا باطل واستدلالكم على صحته بانطباع الصورة فى المرآة باطل فان المرآة لم ينطبع فيها شيء البتة كما يقوله جمهور العقلاء من الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم والقول بالانطباع باطل من وجوه كثيرة ثم نقول إذا كنتم قد قلتم ان المتطبع فى النفس عند إدراك السواد والبياض رسومهما ومثالها لاحقيقتهما فلم لايجوز حصول رسوم هذه الأشياء فى المادة الجسمانية ؟

فصـــل

(قولكم فى الثانى عشر) أنه لو كان محل الإدراكات جسما وكل جسم منقسم لم يمنع أن يقوم ببعض أجزاء الجسم علم بالشيء ، وبالجزء الآخر منه جهل به فيكون الإنسان عالما بالشيء جاهلا به فى وقت واحد . جوابه أن هذه الشبهة منتقضة على أصولكم فإن الشهوة والغضب والتخيل من الأحوال الجسمانية عندكم ومحلها منقسم فلزمكم أن تجوزوا قيام الشهوة والغضب بأحد الجزأين وضدهما بالجزء الآخر فيكون مشتهياً للشيء نافراً عنه غضبان عليه غير غضبان فى وقت واحد .

فصـــل

(قولكم فى الثالث عشر) ان المادة الجسمانية إذا حصلت فيها نقوش مخصوصة امتنع فيها حصول مثلها والنفوس البشرية بضد ذلك . إلى آخره .

(جوابه) ان غاية هذا أن يكون قياسا ممتازا بغير جامع وذلك لايفيد الظن فضلا عن اليقين فان النقوش العقلية هى العلوم والادراكات والنقوش الجسمانية هى الاشكال والصور ولاريب أن العلوم مخالفة بحقائقها للصور والأشكال ولايلزم من ثبوت حكم فى نوع من أنواع الماهيات ثبوته فيما يخالف ذلك النوع .

فصـــل

(قولكم فى الرابع عشر) لوكانت النفس جسما لكان بين تحريك المحرك رجله وبين إرادته للحركة زمان . إلى آخره .

(جوابه) ان النفس مع الجسد لاتخلو من ثلاثة أحوال ، إما أن تكون لابسة لجميعه من خارج كالثوب ، أو تكون فى موضع واحد كالقلب والدماغ أو تكون سارية فى جميع أجزاء الجسد . وعلى كل تقدير من هذه التقادير فتحريكها لما تريد تحريكه يكون مع إرادتها لذلك بلا زمان كادراك البصر لما يلاقيه وإدراك السمع والشم والذوق ، وإذا قطع العضو لم ينقطع ما كان من جسم النفس متجللا لذلك العضو سواء كانت لابسة له من داخل أو من خارج بل تفارق العضو الذى بطل حسه فى الوقت وتتقلص عنه بلا زمان ويكون مفارقتها لذلك العضو كمفارقة الهواء للاناء اذا ملىء ماء . وأما إن كانت النفس ساكنة فى موضع واحد من البدن لم يلزم أن تبين مع العضو المقطوع . وأما إن كانت لابسة للبدن من خارج لم يلزم أن يكون بين إرادتها لتحريكه ونفس التحريك زمان بل يكون فعلها حينئذ فى تحريك الأعضاء كفعل المغناطيس فى الحديد وإن لم يلاصقه .

ثم نقول هذا الهذيان الذى شغلتم به الزمان وارد عليكم بعينه فانها عندكم غير متصلة بالبدن ولا منفصلة عنه ولا داخلة فيه ولا خارجة عنه فيلزمكم مثل ذلك .

فصـــل

(قولكم فى الخامس عشر) لو كانت جسما لكانت منقسمة ولصح عليها أن تعلم بعضها وتجهل بعضها فيكون الانسان عالما ببعض نفسه جاهلا بالبعض الآخر .

(جوابه) أن هذه الشبهة مركبة من مقدمتين تلازمية واستثنائية والمنع واقع فى كلا المقدمتين أو إحداهما فلا نسلم أنها لو كانت جسما لصح أن تعلم بعضها وتجهل بعضها فان النفس بسيطة غير مركبة من هذه العناصر ولا من الأجزاء المختلفة فتى شعرت بذاتها شعرت بجملها . فهذا منع المقدمة التلازمية .

وأما الاستثنائية فلا نسلم أنها لا يصح أن تعلم بعضها حال غفلتها عن البعض الآخر ولم تذكروا على بطلان ذلك شبهة فضلا عن دليل ، ومن المعلوم أن الإنسان قد يشعر بنفسه من بعض الوجوه دون كلها ويتفاوت الناس فى ذلك فمنهم من يكون شعوره بنفسه أتم من غيره بدرجات كثيرة وقد قال تعالى (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) فهؤلاء نسوا نفوسهم لا من جميع الوجوه بل من الوجه الذى به مصالحها وكمالها وسعادتها وإن لم ينسوها من الوجه الذى منه شهوتها وحظها وإرادتها فأنساهم مصالح نفوسهم أن يفعلوها ويطلبوها ، وحبوبها ونقائصها أن يزيلوها ويجتنبوها وكمالها الذى خلقت له أن يعرفوه ويطلبوه ، فهم جاهلون بحقائق أنفسهم من هذه الوجوه وإن كانوا عالمين بها من وجوه أخر .

فصل

(قولكم فى السادس عشر) لو كانت النفس جسما لوجب ثقل البدن بدخولها فيه لأن من شأن الجسم إذا زدت عليه جسما آخر أن يثقل به .

فهذه شبهة فى غاية الثقالة والمحتج بها أثقل وليس كل جسم زيد عليه جسم آخر ثقله فهذه الخشبة تكون ثقيلة فاذا زيد عليها جسم النار خفت جدا . وهذا الظرف يكون ثقيلا فاذا دخله جسم الهواء خف . وهذا إنما يكون فى الأجسام الثقال التى تطلب المركز والوسط بطبعها وهى تتحرك بالطبع اليه ، وأما الأجسام التى تتحرك بطبعها إلى العلو فلا يعرض لها ذلك بل الأمر فيها بالضد من تلك الأجسام الثقال بل إذا أضيفت إلى جسم ثقيل أكسبته الخفة وقد أخذ هذا المعنى بعضهم فقال :

ثقلت زجاجات أتتنا فرغا ... حتى إذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بماحوت ... وكذا الجسوم تخف بالأرواح

فصل

(قولكم فى السابع عشر) لو كانت النفس جسما لكانت على صفات سائر الأجسام التى لا تخلو منها من الخفة والثقل والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والنعومة والخشونة

إلى آخره . شبهة فاسدة وحجة داحضة فانه لايجب اشتراك الأجسام فى جميع الكيفيات والصفات وقد فاوت الله سبحانه بين صفاتها وكيفياتها وطبائعها منها مايرى بالبصر ويلمس باليد ، ومنها مالايرى ولايلمس ، ومنها ماله لون ومنها مالا لون له ، ومنها مالا يقبل الحرارة والبرودة ، ومنها مايقبله ، على أن للنفس من الكيفيات المختصة بها مالا يشاركها فيها البدن ولها خفة وثقل وحرارة وبرودة ويبس ولين بحسبها وأنت تجد الانسان فى غاية الثقالة وبدنه نحيل جداً وتجده فى غاية الخفة وبدنه ثقيل وتجد نفساً لينة وادعة ونفساً يابسة قاسية ، ومن له حس سليم يشم رائحة بعض النفوس كالجيفة المنتنة ورائحة بعضها أطيب من ريح المسك ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا مر فى طريق بقى أثر رائحته فى الطريق ويعرف أنه مر بها وتلك رائحة نفسه وقلبه ، وكانت رائحة عرقه من أطيب شىء وذلك تابع لطيب نفسه وبدنه وأخبر وهو أصدق البشر أن الروح عند المفارقة يوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض . ولولا الزكام الغالب لشم الحاضرون ذلك على أن كثيراً من الناس يجد ذلك وقد أخبر به غير واحد ويكفى فيه خبر الصادق المصدوق ، وكذلك أخبر بأن أرواح المؤمنين مشرقة وأرواح الكفار سود .

وبالجملة فكيفيات النفوس أظهر من أن ينكرها إلا من هو من أجهل الناس بها .

فصل

(قولكم فى الثامن عشر) لو كانت النفس جسما لوجب أن تقع تحت جميع الحواس أو تحت حاسة منها . إلى آخره .

فجوابه منع اللزوم فانكم لم تذكروا عليه شبهة فضلا عن دليل ، ومنع انتفاء اللازم فان الروح تدرك بالحواس فتلمس وترى وتشم لها الرائحة الطيبة والخبيثة كما تقدم فى النفوس المستفيضة ولكن لانشاهد نحن ذلك ، وهذا الدليل لا يمكن ممن يصدق الرسل أن يحتج به فان الملك جسم ولايقع تحت حاسة من حواسنا ، وكذلك الجن والشياطين أجسام لطاف لاتقع تحت حاسة من حواسنا ، والأجسام متفاوتة فى ذلك تفاوتاً كثيراً ، فمنها مايدرك بأكثر الحواس ، ومنها مالا يدرك بأكثرها ، ومنها مايدرك بحاسة واحدة ، ومنها مالا ندركه نحن فى الغالب وإن أدرك فى بعض الأحوال لكونه لم يخلق لنا إدراكه أو لمانع يمنع من إدراكه أو للطفه عن إدراك حواسنا ، فما عدم اللون من الأجسام لم يدرك بالبصر كالهواء والنار فى عنصرها ، وما عدم الرائحة لم يدرك بالشم كالنار والحصا والزجاج ، وما عدم المجسة لم يدرك باللمس كالهواء الساكن .

وأيضاً فالروح هى المدركة لمدارك هذه الحواس بواسطة آلاتها فالنفس هى الحاسة المدركة وإن لم تكن محسوسة فالأجسام والأعراض محسوسة والنفس محسة بها ، وهى القابلة لأعراضها المتعاقبة عليها من الفضائل والرذائل كقبول الاجرام لأعراضها المتعاقبة عليها ، وهى المتحركة باختيارها المحركة للبدن قسراً وقهراً . وهى مؤثرة فى البدن متأثرة به تألم وتلذ وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتنعم وتبأس وتحب وتكره وتذكر وتنسى وتصعد وتنزل وتعرف وتنكر ، وآثارها من أدل الدلائل على وجودها كما أن آثار الخالق سبحانه دالة على وجوده وعلى كماله فان دلالة الأثر على مؤثره ضرورية .

وتأثيرات النفوس بعضها فى بعض أمر لاينكره ذو حس سليم ولاعقل مستقيم ولاسيما عند تجردها نوع تجرد عن العلائق والعوائق البدنية فإن قواها تتضاعف وتتزايد بحسب ذلك ولاسيما عند مخالفة هواها وحملها على الأخلاق العالية من العفة والشجاعة والعدل والسخاء وتجنبها سفساف الأخلاق ورذائلها وسافلها فان تأثيرها فى العالم يقوى جداً تأثيراً يعجز عنه البدن وأعراضه أن تنظر[1] إلى حجر عظيم فتشقه أو حيوان كبير فتتلفه أو إلى نعمة فتزيلها وهذا أمر قد شاهدته الأمم على اختلاف أجناسها وأديانها وهو الذى سمى اصابة العين فيضيفون الأثر إلى العين وليس لها فى الحقيقة وإنما هو النفس المتكيفة بكيفية ردية سميت ، وقد تكون بواسطة نظر العين وقد لاتكون بل يوصف له الشىء من بعيد فتتكيف عليه نفسه بتلك الكيفية فتفسده وأنت ترى تأثير النفس فى الأجسام صفرة وحمرة وارتعاشاً بمجرد مقابلتها لها وقوتها وهذه وأضعافها آثار خارجة عن تأثير البدن وأعراضه فالبدن لايؤثر إلا فيما لاقاه وماسه تأثيرا مخصوصاً ولم تزل الأمم تشهد تأثير الهمم الفعالة فى العالم وتستعين بها وتحذر أثرها وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يغسل العائن مغابنه ومواضع القذر منه ثم يصب ذلك الماء على المعين فانه يزيل عنه تأثير نفسه فيه وذلك بسبب أمر طبعى اقتضته حكمة الله سبحانه فان النفس الأمارة لها بهذه المواضع تعلق والف والأرواح الخبيثة الخارجية تساعدها وتألف هذه المواضع غالباً للمناسبة بينها وبينها فاذا غسلت بالماء طفئت تلك النارية منها كما يطفأ الحديد المحمى بالماء فإذا صب ذلك الماء على المصاب طفأ عنه تلك النارية التى وصلت إليه من العائن وقد وصف الأطباء الماء الذى يطفأ فيه الحديد لآلام وأوجاع معروفة وقد جرب الناس من تأثير الأرواح بعضها فى بعض عند تجردها فى المنام عجائب تفوت الحصر وقد نبهنا على بعضها فيما مضى فعالم الأرواح عالم آخر أعظم من عالم الأبدان وأحكامه وآثاره

---

[1] لعله كأن تنظر إذ العبارة لاتستقيم بلفظ ان .

أعجب من آثار الأبدان بل كل مافى العالم من الآثار الانسانية فانما هى من تأثير النفوس بواسطة البـــدن فالنفوس والأبدان يتعاونان على التأثير تعاون المشتركين فى الفعل وتنفرد النفس بآثار لايشاركها فيها البدن ولا يكون للبدن تأثير لاتشاركه فيه النفس .

فصـــل

(قولكم فى التاسع عشر) لو كانت النفس جسما لكانت ذات طول وعرض وعمق وشكل وسطح وهذه المقادير لاتقوم إلا بمادة . إلى آخره .

(جوابه) أنا نقول قولكم هذه المقادير لاتقوم إلا بمادة قلنا وكان ماذا والنفس لها مادة خلقت منها وجعلت على شكل معين وصورة معينة .

(قولكم) مادتها ان كانت نفسا لزم اجتماع نفسين وإن كانت غير نفس كانت مركبة من بدن وصورة .

(قلنا) مادتها ليست نفساً كما أن مادة الإنسان ليست إنسانا ومادة الجن ليست جناً ومادة الحيوان ليست حيوانا .

(قولكم) يلزم كون النفس مركبة من بدن وصورة . مقدمة كاذبة وإنما يلزم كون النفس مخلوقة من مادة ولها صورة معينة وهكذا نقول سواء ولم تذكروا على بطلان هذا شبهة فضلا عن حجة ظنية أو قطعية .

فصـــل

(قولكم فى الوجه العشرين) أن خاصة الجسم أن يقبل التجزى وأن الجزء الصغير منه ليس كالكبير فلو قبلت التجزى فكل جزء منها ان كان نفساً لزم أن يكون للانسان نفوس كثيرة وإن لم يكن نفساً لم يكن المجموع نفساً .

(جوابه) إن أردتم أن كل جسم يقبل التجزى فى الخارج فكذب ظاهر فان الشمس والقمر والكواكب لاتقبل ذلك ولايلزم أن كل جسم يصح عليـــه التجزى والتبعيض فى الخارج ، أما على قول نفاة الجوهر الفرد فظاهر وأما على قول مثبتيه فانه عندهم جوهر متحيز لايصح عليه قبول الانقسام ، سلمنا أنها تقبل الانقسام فأى شىء يلزم من ذلك ؟

(قولكم) إن كان كل جزء من تلك الأجزاء نفساً لزم اجتماع نفوس كثيرة فى الإنسان .

(قلنا) إنما يلزم ذلك لو انقسمت النفس بالفعل إلى نفوس كثيرة وهذا محال .

(قولكم) وإن لم يكن كل جزء نفسا لم يكن المجموع نفساً . مقدمة كاذبة منتقضة فكم ماهية ثبت لها حكم عند اجتماع أجزائها فإن ذلك الحكم كماهية البيت والإنسان والعشرة وغيرها .

فصـــل

(قولكم فى الوجه الحادى والعشرين) أن الجسم يحتاج فى قوامه وبقائه وحفظه إلى نفس أخرى ويلزم التسلسل .

(جوابه) أنه يلزم من افتقار البدن إلى نفس تحفظه افتقار النفس إلى نفس تحفظها وهل ذلك إلا بمجرد دعوة كاذبة مستندة إلى قياس قد تبين بطلانه فان كل جسم لا يصير إلى نفس تحفظه كأجسام المعادن وجسم الهواء والماء والنار والتراب وأجسام سائر الجمادات .

(فان قلتم) ان هـذه ليست أحياء ناطقة بخلاف النفس فانها حية ناطقة .

(قلنا) فحينئذ يبقى الدليل هكذا أى كل جسم حى ناطق يحتاج فى حفظه وقيامه إلى نفس تقوم به ، وهذه دعوى مجردة وهى كاذبة فان الجن والملائكة أحياء ناطقون وليسوا مفتقرين فى قيامهم إلى أرواح أخر تقوم بهم .

(فان قلتم) وكلامنا معكم فى الجن والملائكة فانهم ليسوا بأجسام متحيزة .

(قلنا) الكلام مع من يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . وأما من كفر بذلك فالكلام معه فى النفس ضائع ، وقد كفر بفاطر النفس ومبدعها وملائكته وماجاءت به رسله وكان تاركا مادل عليه العيان مع دليل الإيمان فان الآثار المشهودة فى العالم من تأثيرات الملائكة والجن باذن ربهم لا يمكن إنكارها ، وهى موجودة بنفسها ، ولا تقدر عليها القوى البشرية .

فصـــل

(قولكم فى الثانى والعشرين) لو كانت جسما لكان اتصالها بالبدن إن كان على سبيل المداخلة لزم تداخل الأجسام وإن كان على سبيل الملاصقة والمجاورة كان للانسان الواحد جسمان متلاصقان أحدهما يرى والآخر لا يرى .

جوابه من وجوه :

(أحدها) أن تتداخل الأجسام . المحال أن يتداخل جسمان كثيفان أحـــدهما فى الآخر بحيث يكون حيزهما واحداً وأما أن يدخل جسم لطيف فى كثيف يسرى فيه فهذا ليس بمحال .

(الثانى) أن هذا باطل بصور كثيرة منها دخول الماء فى العود والسحاب ودخول النار فى الحديد ودخول الغذاء فى جميع أجزاء البدن ودخول الجن فى المصروع فالروح للطافتها لا يمتنع عليها مشابكة البدن والدخول فى جميع أجزائه .

(الثالث) أن حيز النفس البدن وحيزه مكانه المنفصل عنه وهذا ليس بتداخل ممتنع فإذا فارقته صار لها حيز آخر غير حيزه وحينئذ فلا يتداخلان بل يصير لكل منهما حيز يخصه، وبالجملة فدخول الروح فى البدن الطف من دخول الماء فى الثرى والدهن فى البدن، فهذه الشبهة الفاسدة لا يعارض بها ما دل عليها نصوص الوحى والأدلة العقلية . وبالله التوفيق .

المسألة العشرون

وهى هل النفس والروح شىء واحد أو شيئان متغايران ؟ فاختلف الناس فى ذلك .

(فمن قائل) ان مسماهما واحد وهم الجمهور .

(ومن قائل) انهما متغايران . ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته فنقول النفس تطلق على أمور :

(أحدها) الروح قال الجوهرى النفس الروح يقال خرجت نفسه قال أبو خراش :

نجا سالما والنفس منه بشدقه ولم ينج إلا جفن سيف ومئزر

أى بجفن سيف ومئزر (والنفس والدم) يقال سالت نفسه وفى الحديث مالا نفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه (والنفس الجسد) .

قال الشاعر :

نبئت أن بنى تميم أدخلوا أبناءهم تامور نفس المنذر

والتامور الدم (والنفس العين) يقال أصابت فلانا أى عين .

(قلت) ليس كما قال بل النفس هاهنا الروح ونسبة الإضافة الى العين توسع لأنها تكون بواسطة النظر المصيب والذى أصابه انما هو نفس العائن كما تقدم .

(قلت) والنفس فى القرآن تطلق على الذات بجملتها كقوله تعالى (فسلموا على أنفسكم) وقوله تعالى (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) وقوله تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة) وتطلق على الروح وحدها كقوله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة) وقوله تعالى (أخرجوا أنفسكم) وقوله تعالى (ونهى النفس عن الهوى) وقوله تعالى (إن النفس لأمارة بالسوء).

وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس ، وتطلق الروح على القرآن الذى أوحاه الله تعالى إلى رسوله قال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) .

وعلى الوحى الذى يوحيه إلى أنبيائه ورسله قال تعالى (يلقى الروح من أمره على من

يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) وقال تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) وسمى ذلك روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة فان الحياة بدونه لا تنفع صاحبها البتة بل حياة الحيوان البهيم خير منها وأسلم عاقبة .

وسميت الروح روحاً لأن بها حياة البدن وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة وهي من ذوات الواو ولهذا تجمع على أرواح قال الشاعر :

إذا ذهبت الأرواح من نحو أرضكم وجـــدت لمسرها على كبدي بردا

ومنها الروح والريحان والاستراحة . فسميت النفس روحاً لحصول الحياة بها ، سميت نفساً إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تنفس الشيء إذا خرج فلكثرة خروجها ودخولها في البدن سميت نفساً ، ومنه النفس بالتحريك ، فان العبد كلما نام خرجت منه فإذا استيقظ رجعت إليه فاذا مات خرجت خروجا كلياً فاذا دفن عادت إليه فاذا سئل خرجت فاذا بعث رجعت إليه .

فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات ، وإنما سمي الدم نفسا لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس وان الحياة لا تتم إلا به كما لا تتم إلا بالنفس فلهذا قال :

تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

ويقال فاضت نفسه وخرجت نفسه وفارقت نفسه كما يقال خرجت روحه وفارقت ولكن الفيض الاندفاع وهلة واحدة ومنه الإفاضة وهي الاندفاع بكثرة وسرعة لكن أفاض إذا دفع باختياره وإرادته وفاض إذا اندفع قسراً وقهراً فالله سبحانه هو الذي يفيضها عند الموت فتفيض هي .

فصـــل

(وقالت) فرقة أخرى من أهل الحديث والفقه والتصوف الروح غـــير النفس ، قال مقاتل بن سليمان للانسان حياة وروح ونفس فاذا نام خرجت نفسه التي يعقل بها الأشياء ولم تفارق الجسد بل تخرج كحبل ممتد له شعاع فيرى الرؤيا بالنفس التي خرجت منه وتبقى الحياة والروح في الجسد فبه يتقلب ويتنفس فاذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين فاذا أراد الله عز وجل أن يميته في المنام امسك تلك النفس التي خرجت ، وقال أيضاً إذا نام خرجت نفسه فصعدت إلى فوق فاذا رأت الرؤيا رجعت فأخبرت الروح ويخبر الروح فيصبح يعلم أنه قد رأى كيت وكيت .

(قال) أبو عبد الله بن منده ثم اختلفوا فى معرفة الروح والنفس فقال بعضهم النفس طينية نارية والروح نورية روحانية .

(وقال) بعضهم الروح لاهوتية والنفس ناسوتية وان الخلق بها ابتلى .

(وقالت طائفة) وهم أهل الأثر أن الروح غير النفس والنفس غير الروح وقوام النفس بالروح ، والنفس صورة العبد ، والهوى والشهوة والبلاء معجون فيها ولا عدو أعدى لابن آدم من نفسه . فالنفس لا ترید إلا الدنيا ولا تحب إلا إياها . والروح تدعو إلى الآخرة وتؤثرها ، وجعل الهوى تبعاً للنفس ، والشيطان تبع النفس والهوى ، والملك مع العقل والروح ، والله تعالى يمدهما بالهامه وتوفيقه .

(وقال بعضهم) الأرواح من أمر الله أخفى حقيقتها وعلمها على الخلق .

(وقال بعضهم) الأرواح نور من نور الله وحياة من حياة الله .

ثم اختلفوا فى الأرواح هل تموت بموت الأبدان والأنفس أو لا تموت ؟

(فقالت طائفة) الأرواح لا تموت ولا تبلى .

(وقالت جماعة) الأرواح على صور الخلق لها أيد وأرجل وأعين وسمع وبصر ولسان .

(وقالت طائفة) للمؤمن ثلاثة أرواح ، وللمنافق والكافر روح واحدة .

(وقال بعضهم) للأنبياء والصديقين خمس أرواح .

(وقال بعضهم) الأرواح روحانية خلقت من الملكوت ، فإذا صفت رجعت إلى الملكوت .

(قلت) أما الروح التى تتوفى وتقبض فهى روح واحدة ، وهى النفس .

وأما ما يؤيد الله به أولياءه من الروح فهى روح أخرى غير هذه الروح كما قال تعالى (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) وكذلك الروح الذى أيد بها روحه المسيح ابن مريم كما قال تعالى (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس) وكذلك الروح التى يلقيها على من يشاء من عباده هى غير الروح التى فى البدن .

وأما القوى التى فى البدن فانها تسمى أيضاً أرواحا فيقال الروح الباصر والروح السامع والروح الشام ، فهذه الأرواح قوى مودعة فى البدن تموت بموت الأبدان ، وهى غير الروح التى لا تموت بموت البدن ولا تبلى كما يبلى ، ويطلق الروح على أخص من هذا كله وهو قوة

المعرفة بالله والإنابة اليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته . ونسبة هذه الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن ، فاذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه ، وهى الروح التى يؤيدبها أهل ولايته وطاعته ، ولهذا يقول الناس فلان فيه روح ، وفلان مافيه روح وهو بو وهو قصبة فارغة ونحو ذلك .

فللعلم روح ، وللاحسان روح ، وللاخلاص روح ، وللمحبة والإنابة روح ، وللتوكل والصدق روح ، والناس متفاوتون فى هذه الأرواح أعظم تفاوت فمنهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانياً ، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضياً بهيمياً . والله المستعان.

المسألة الحادية والعشرون

وهى هل النفس واحدة أم ثلاث ؟

فقد وقع فى كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس ، نفس مطمئنة ، ونفس لوامة ، ونفس أمارة ، وأن منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه الأخرى ، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة) وبقوله تعالى (لاأقسم بيوم القيامة ولاأقسم بالنفس اللوامة) وبقوله تعالى (إن النفس لأمارة بالسوء) والتحقيق أنها نفس واحدة ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة اليه والتوكل عليه والرضا به والسكون اليه ، فان سمة محبته وخوفه ورجائه منها قطع النظر عن محبة غيره وخوفه ورجائه ، فيستغنى بمحبته عن حب ماسواه وبذكره عن ذكر ماسواه وبالشوق اليه وإلى لقائه عن الشوق إلى ماسواه ، فالطمأنينة إلى الله سبحانه حقيقة ترد منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه ، وترد قلبه الشارد إليه حتى كأنه جالس بين يديه يسمع به ويبصر به ويتحرك به ويبطش به ، فتسرى تلك الطمأنينة فى نفسه وقلبه ومفاصله وقواه الظاهرة والباطنة تجذب روحه إلى الله ، ويلين جلده وقلبه ومفاصله إلى خدمته والتقرب إليه ، ولا يمكن حصول الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره وهو كلامه الذى أنزله على رسوله كما قال تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فان طمأنينة القلب سكونه واستقراره بزوال القلق والانزعاج والاضطراب عنه ، وهذا لايتأتى بشىء سوى الله تعالى وذكره البتة ، وأما ماعداه فالطمأنينة إليه غرور والثقة به عجز قضى الله سبحانه وتعالى قضاء لا مرد له أن من اطمأن إلى شىء سواه أتاه القلق

والانزعاج والاضطراب من جهته كائنا من كان ، بل لو اطمأن العبد إلى علمه وحاله وعمله سلبه وزايله ، وقد جعل سبحانه نفوس المطمئنين إلى سواه أغراضها بسهام البلاء ليعلم عباده وأولياؤه أن المتعلق بغيره مقطوع والمطمئن إلى سواه عن مصالحه ومقاصده مصدود وممنوع .

وحقيقة الطمأنينة التى تصير بها النفس مطمئنة أن تطمئن فى باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله إلى خبره الذى أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنـــه رسله فتتلقاه بالقبول ، والتسليم ، والاذعان ، وانشراح الصدر له ، وفرح القلب به ؛ فإنه معرف من معرفات الرب سبحانه إلى عبده على لسان رسوله ، فلا يزل القلب فى أعظم القلق والاضطراب فى هذا الباب حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه ، وتكلمه بالوحى بشاشة قلبه ، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش ، فيطمئن إليه ، ويسكن إليه ، ويفرح به ويلين له قلبه ومفاصله حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل ، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس فى الظهيرة لعينه فلو خالفه فى ذلك من بين شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلى خلافهم وقال إذا استوحش من الغربة قد كان الصديق الأكبر مطمئنا بالإيمان وحده وجميع أهل الأرض يخالفه وما نقص ذلك من طمأنينته شيئاً فهذا أول درجات الطمأنينة ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه وهذا أمر لانهاية له فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التى قام عليه بناؤه ، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عيانا وهذا حقيقة اليقين الذى وصف به سبحانه وتعالى أهل الإيمان حيث قال (وبالآخرة هم يوقنون) فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر الله سبحانه به عنها طمأنينة إلى الأمور التى لا يشك فيها ولا يرتاب ، فهذا هو المؤمن حقا باليوم الآخر كما فى حديث حارثة أصبحت مؤمنا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال عزفت نفسى عن الدنيا وأهلها وكأنى انظر إلى عرش ربى بارزا وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها وأهل النار يعذبون فيها ، فقال : عبد نور الله قلبه .

فصـــل

والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجبه من آثار العبودية ، مثاله الطمأنينة إلى القدر وإثباته والإيمان به يقتضى الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التى لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها فيسلم

لها ويرضى بها ولايسخط ولايشكو ولايضطرب إيمانه فلايأسى على مافاته ولايفرح بما أتاه لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق كما قال تعالى (ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم) وقال تعالى (ماأصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال غير واحد من السلف هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم انها من عند الله فيرضى ويسلم ، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها فى العالم وهى قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها ، وكذلك سائر الصفات وآثارها ومتعلقاتها كالسمع والبصر والعلم والرضا والغضب والمحبة فهذه طمأنينة الإيمان .

وأما طمأنينة الاحسان فهى الطمأنينة إلى أمره امتثالا وإخلاصا ونصحا فلا يقدم على أمره إرادة ولاهوى ولاتقليدا فلا يساكن شبهة تعارض خبره ولاشهوة تعارض أمره بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس التى لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب اليه من أن يحدها ، فهذا كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم صريح الإيمان ، وعلامة هذه الطمأنينة أن يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها وفرحتها ويسهل عليه ذلك بأن يعلم أن اللذة والحلاوة والفرحة فى الظفر بالتوبة ، وهذا أمر لايعرفه إلا من ذاق الأمرين وباشر قلبه آثارهما فللتوبة طمأنينة تقابل مافى المعصية من الانزعاج والقلق ولوفتش العاصى عن قلبه لوجد حشوه المخاوف والانزعاج والقلق والاضطراب وإنما يوارى عنه شهود ذلك سكر الغفلة والشهوة فإن لكل شهوة سكراً يزيد على سكر الخمر ، وكذلك الغضب له سكر أعظم من سكر الشراب ولهذا ترى العاشق والغضبان يفعل مالا يفعله شارب الخمر ، وكذلك يطمئن من قلق الغفلة والاعراض إلى سكون الاقبال على الله وحلاوة ذكره وتعلق الروح بحبه ومعرفته فلا طمأنينة للروح بدون هذا أبداً ولو أنصفت نفسها لرأتها إذا فقدت ذلك فى غاية الانزعاج والقلق والاضطراب ولكن يواريها السكر فإذا كشف الغطاء تبين له حقيقة ما كان فيه .

فصـــل

وهاهنا سر لطيف يجب التنبيه عليه والتنبه له والتوفيق له بيد من أزمة التوفيق بيده وهو أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الانسان كمالا إن لم يحصل له فهو فى قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذى جعل له مثاله كمال العين بالأبصار ، وكمال الأذن بالسمع ، وكمال اللسان بالنطق ، فإذا عدمت هذه الأعضاء القوى التى بها كمالها حصل الألم والنقص بحسب فوات ذلك ، وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته وابتهاجه فى معرفته سبحانه وإرادته ومحبته والانابة

اليه والاقبال عليه والشوق اليه والانس به ، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذابا واضطرابا من العين التى فقدت النور والباصر ومن اللسان الذى فقد قوة الكلام والذوق ، ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال الا بان يكون الله وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده وغاية مطلوبه وان يكون هو وحده مستعانه على تحصيل ذلك ، فحقيقة الأمر أنه لا طمأنينة له بدون التحقق بإياك نعبد وإياك نستعين ، وأقوال المفسرين فى الطمأنينة ترجع إلى ذلك ، قال ابن عباس رضى الله عنهما المطمئنة المصدقة ، وقال قتادة هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد الله ، وقال الحسن المصدقة بما قال الله تعالى وقال مجاهد هى النفس التى أيقنت بأن الله ربها المسلمة لأمر فيما هو فاعل بها وروى منصور عنه قال النفس التى أيقنت ان الله ربها وخربت [1] جاشا لأمره وطاعته وقال ابن أبى نجيح عنه النفس المطمئنة المخبتة إلى الله ، وقال أيضاً هى التى أيقنت بلقاء الله فكلام السلف فى المطمئنة يدور على هذين الأصلين طمأنينة العلم والإيمان وطمأنينة الإرادة والعمل .

فصـــل

فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين ومن الجهل إلى العلم ومن الغفلة إلى الذكر ومن الخيانة إلى التوبة ومن الرئاء إلى الاخلاص ومن الكذب إلى الصدق ومن العجز إلى الكيس ومن صولة العجب إلى ذلة الانابات ومن التيه إلى التواضع ومن الفتور إلى العمل فقد باشرت روح الطمأنينة ، وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة فهى أول مفاتيح الخير فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم بل أسوأ حالا منه ؟ فان العاقل يعلم وعد الله ووعيده وما تقتضاه أوامر الرب تعالى ونواهيه وأحكامه من الحقوق لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك ويقعده عن الاستدراك سنة القلب وهى غفلته التى رقد فيها فطال رقوده ، وركد وأخلد الى نوازع الشهوات فاشتد اخلاده وركوده ، وانغمس فى غمار الشهوات ، واستولت عليه العادات ومخالطة أهل البطالات ، ورضى بالتشبه بأهل اضاعة الأوقات ، فهو فى رقاده مع النائمين ، وفى سكرته مع المخمورين ، فمتى انكشف عن قلبه سنة هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق فى قلبه استجاب فيها لواعظ الله فى قلب عبده المؤمن ، أو همة عليه أثارها معول الفكر فى المحل القابل فضرب بمعول فكره وكبر تكبيرة اضاءت له منها قصور الجنة فقال :

الا يانفس ويحك ساعدينى ... بسعى منك فى ظلم الليالى
لعلك فى القيامة أن تفوزى ... بطيب العيش فى تلك العلالى

---

[1] هكذا ولعله سكنت أو بردت .

فاثارت تلك الفكرة نورا رأى فى ضوئه ماخلق له وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار ، ورأى سرعة انقضاء الدنيا وعدم وفائها لمنيها وقتلها لعشاقها وفعلها بهم أنواع المثلات فنهض فى ذلك الضوء على ساق عزمه قائلا (ياحسرتى على مافرطت فى جنب الله) فاستقبل بقية عمره التى لاقيمة لها مستدركا بهامافات ، محييا بهاما أمات ، مستقبلا بها ماتقدم له من العثرات ، منتهزا فرصة الامكان التى ان فاتت فاته جميع الخيرات .

ثم يلحظ فى نور تلك اليقظة وفور نعمة ربه عليه من حين استقر فى الرحم إلى وقته وهو يتقلب فيها ظاهرا وباطنا ليلا ونهارا ويقظة ومناما سرا وعلانية فلو اجتهد فى احصاء أنواعها لما قدر ، ويكفى أن أدناها نعمة النفس ولله عليه فى كل يوم أربعة وعشرون الف نعمة فما ظنك بغيرها .

ثم يرى فى ضوء ذلك النور أنه آيس من حصرها وإحصائها عاجز عن أداء حقها وان المنعم بها ان طالبه بحقوقها استوعب جميع أعماله حق نعمة واحدة منها فيتيقن حينئذ أنه لامطمع له فى النجاة إلا بعفو الله ورحمته وفضله .

ثم يرى فى ضوء تلك اليقظة أنه لو عمل أعمال الثقلين من البر لاحتقرها بالنسبة إلى حسب عظمة الرب تعالى وما يستحقه بجلال وجهه وعظم سلطانه هذا لو كانت أعماله منه فكيف وهى مجرد فضل الله ومنته وإحسانه حيث يسرها له وأعانه عليها وهيأها وشاءها منه وكونها، ولو لم يفعل ذلك لم يكن له سبيل إليها ،فحينئذ لايرى أعماله منه ، وان الله سبحانه لن يقبل عملا يراه صاحبه من نفسه حتى يرى عين توفيق الله له وفضله عليه ومنته وأنه من الله لامن نفسه وأنه ليس له من نفسه إلا الشر وأسبابه ، وما به من نعمة فمن الله وحده صدقة تصدق بها عليه وفضلا منه ساقه اليه من غير أن يستحقه بسبب ويستأهله بوسيلة ، فيرى ربه ووليه ومعبوده أهلا لكل خير ويرى نفسه أهلا لكل شر ، وهذا أساس جميع الأعمال الصالحة والظاهرة والباطنة وهو الذى يرفعها ويجعلها فى ديوان أصحاب اليمين .

ثم يبرق له فى نور اليقظة بارقة أخرى يرى فى ضوئها عيوب نفسه وآفات عمله وماتقدم له من الجنايات والاساءات وهتك الحرمات والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات فإذا انضم ذلك إلى شهود نعم الله عليه وأياديه لديه رأى ان حق المنعم عليه فى نعمه وأوامره لم يبق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه فيطمئن قلبه وانكسرت نفسه وخشعت جوارحه وسار إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه ومطالعة جناياته وعيوب نفسه وآفات عمله قائلا أبوء لك بنعمتك على وأبوء لك بذنبى فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فلا يرى لنفسه حسنة ولا يراها أهلا لخير فيوجب له أمرين عظيمين .

(أحدهما) استكثار مامن الله عليه .

(والثانى) استقلال مامنه من الطاعة كائنة ما كانت . ثم تبرق له بارقة أخرى يرى فى ضوئها عزة وقته وخطره وشرفه وأنه رأس مال سعادته فيبخل به أن يضيعه فيما يقربه إلى ربه فان فى إضاعته الخسران والحسرة والندامة وفى حفظه وعمارته الربح والسعادة فيشح بأنفاسه أن يضيعها فيما لاينفعه يوم معاده .

فصـــل

ثم يلحظ فى ضوء تلك البارقة ماتقتضيه يقظته من سنة غفلته من التوبة والمحاسبة والمراقبة والغيرة لربه أن يؤثر عليه غيره وعلى حظه من رضاه وقربه وكرامته ببيعه بثمن بخس فى دار سريعة الزوال وعلى نفسه أن يملك رقها لمعشوق أو فكر فى منتهى حسنه ورأى آخره بعين بصيرة لانف لها من محبته .

فهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها وهى أول منازل النفس المطمئنة التى نشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة .

فصـــل

وأما النفس اللوامة وهى التى أقسم بها سبحانه فى قوله : (ولاأقسم بالنفس اللوامة) فاختلف فيها فقالت طائفة هى التى لاتثبت على حال واحدة . أخذوا اللفظة من التلوم وهو التردد فهى كثيرة التقلب والتلون وهى من أعظم آيات الله فانها مخلوق من مخلوقاته تتقلب وتتلون فى الساعة الواحدة فضلا عن اليوم والشهر والعام والعمر ألوانا متلونة فتذكر وتغفل وتقبل وتعرض وتلطف وتكشف وتتيب وتجفو وتحب وتبغض وتفرح وتحزن وترضى وتغضب وتطيع وتتقى وتفجر . إلى أضعاف أضعاف ذلك من حالاتها وتلونها فهى تتلون كل وقت ألواناً كثيرة فهذا قول .

(وقالت) طائفة اللفظة مأخوذة من اللوم ثم اختلفوا فقالت فرقة هى نفس المؤمن وهذا من صفاتها المجردة ، قال الحسن البصرى أن المؤمن لاتراه إلا يلوم نفسه دائماً يقول ما أردت بهذا ؟ لم فعلت هذا ؟ كان غير هذا أولى أو نحو هذا من الكلام .

(وقال) غيره هى نفس المؤمن توقعه فى الذنب ثم تلومه عليه فهذا اللوم من الإيمان بخلاف الشقى فانه لايلوم نفسه على ذنب بل يلومها إن تلومه على فواته

(وقالت) طائفة بل هذا اللوم للنوعين فان كل أحد يلوم نفسه براً كان أو فاجراً فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته والشقى لايلومها إلا على فوات حظها وهواها .

(وقالت) فرقة أخرى هذا اللوم يوم القيامة فان كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئاً على إساءته وإن كان محسناً على تقصيره .

وهذه الأقوال كلها حق ، ولا تنافى بينها ، فان النفس موصوفة بهذا كله وباعتباره سميت لوامة ، ولكن اللوامة نوعان :

لوامة ملومة ، وهى النفس الجاهلة الظالمة التى يلومها الله وملائكته .

ولوامة غير ملومة ، وهى التى لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره فى طاعة الله مع بذله جهده فهذه غير ملومة ؛ وأشرف النفوس من لامت نفسها فى طاعة الله واحتملت ملام اللائمين فى مرضاته فلا تأخذها فيه لومة لائم فهذه قد تخلصت من لوم الله ، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل فى الله ملام اللوام ، فهى التى يلومها الله عز وجل .

فصـــل

وأما النفس الأمارة بهى المذمومة فانها التى تأمر بكل سوء وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها ، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له كما قال تعالى حاكيا عن امرأة العزيز (وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ان ربى غفور رحيم) وقال تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا) وقال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا) وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم خطبة الحاجة « الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادى له » فالشر كامن فى النفس وهو يوجب سيئات الأعمال فان خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال ، وان وفقه وأعانه نجاه من ذلك كله فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين الأمارة واللوامة كما أكرمه بالمطمئنة فهى نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة مطمئنة وهى غاية كمالها وصلاحها وأيد المطمئنة بجنود عديدة فجعل الملك قرينها وصاحبها الذى يليها ويسددها ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه ويريها حسن صورته ويزجرها عن الباطل ويزهدها فيه ويريها قبح صورته ، وأمدها بما علمها من القرآن والاذكار وأعمال البر وجعل وفود الخيرات ومداد التوفيق تنتابها وتصل إليها من كل ناحية وكلما تلقتها بالقبول والشكر والحمد لله ورؤية أوليته فى ذلك كله ازداد مددها فتقوى على محاربة الامارة ، فمن جندها وهو سلطان عساكرها وملكها الإيمان واليقين

فالجيوش الإسلامية كلها تحت لوائه ناظرة إليه إن ثبت ثبتت وإن انهزم ولت على أدبارها ، ثم أمراء هذا الجيش ومقدمو عساكره شعب الإيمان المتعلقة بالجوارح على اختلاف أنواعها كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونصيحة الخلق والإحسان اليهم بأنواع الإحســـان ، وشعبه الباطنة المتعلقة بالقلب كالإخلاص والتوكل والإنابة والتوبة والمراقبة والصبر والحلم والتواضع والمسكنة وامتلاء القلب من محبة الله ورسوله وتعظيم أوامر الله وحقوقه والغيرة لله وفى الله والشجاعة والعفة والصدق والشفقة والرحمة ، وملاك ذلك كله الإخلاص والصدق فلا يتعب الصادق المخلص فقد أقيم على الصراط المستقيم فيسار به وهو راقد ، ولا يتعب من حرم الصدق والإخلاص فقد قطعت عليه الطريق واستهوته الشياطين فى الأرض حيران فان شاء فليعمل وإن شاء فليترك فلا يزيده عمله من الله إلا بعداً ، وبالجملة فما كان لله وبالله فهو من جند النفس المطمئنة .

وأما النفس الأمارة فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذى يليها فهو يعدها ويمنيها ويقذف فيها الباطل ويأمرها بالسوء ويزينه لهـــا ويطيل فى الأمل ويريها الباطل فى صورة تقبلها وتستحسنها ويمدها بأنواع الامداد الباطل من الأمانى الكاذبة والشهوات المهلكة ويستعين عليها بهواها وإرادتها فمنه يدخل عليها كل مكروه فما استعان على النفوس بشىء هو أبلغ من هواها وإرادتها اليه وقد علم ذلك اخوانه من شياطين الإنس فلا يستعينون على الصور الممنوعة منهم بشىء أبلغ من هواهم وإرادتهم [1] فاذا أعيتهم صورة طلبوا بجهدهم ما تحبه وتهواه ثم طلبوا بجهدهم تحصيله فاصطادوا تلك الصورة فاذا فتحت لهم النفس باب الهوى دخلوا منه فجاسوا خلال الديار فعاثوا وأفسدوا وفتكوا وسبوا وفعلوا ما يفعله العدو ببلاد عدوه إذا تحكم فيها فهدموا معالم الإيمان والقرآن والذكر والصلاة وخربوا المساجد وعمروا البيع والكنائس والحانات والمواخير وقصدوا إلى الملك فأسروه وسلبوه ملكه ونقلوه من عبادة الرحمن إلى عبادة البغايا والأوثان ومن عز الطاعة إلى ذل المعصية ، ومن السماع الرحمانى إلى السماع الشيطانى ومن الاستعداد للقاء رب العالمين إلى الاستعداد للقاء إخوان الشياطين فبينا هو يراعى حقوق الله وما أمره به إذ صار يرعى الخنازير ، وبينا هو منتصب لخدمة العزيز الرحيم إذ صار منتصباً لخدمة كل شيطان رجيم .

والمقصود أن الملك قرين النفس المطمئنة ، والشيطان قرين الأمارة ، وقد روى أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه

---

[1] كذا ، والظاهر من هواها وإرادتها ، أى الصور . تدبر .

وآله وسلم أن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة . فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق . فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله ، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم الفحشاء) وقد رواه عمرو عن عطاء بن السائب وزاد فيه عمرو قال سمعنا في هذا الحديث أنه كان يقال إذا أحس أحدكم من لمة الملك شيئاً فليحمد الله وليسأله من فضله وإذا أحس من لمة الشيطان شيئاً فليستغفر الله وليتعوذ من الشيطان .

فصل

فالنفس المطمئنة والملك وجنده من الإيمان يقتضيان من النفس المطمئنة التوحيد والإحسان والبر والتقوى والصبر والتوكل والتوبة والإنابة والإقبال على الله وقصر الأمل والاستعداد للموت وما بعده ، والشيطان وجنده من الكفر يقتضيان من النفس الأمارة ضد ذلك وقد سلط الله سبحانه الشيطان على كل ماليس له ولم يرد به وجهه ولاهو طاعة له وجعل ذلك إقطاعه فهو يستنيب النفس الأمارة على هذا العمل والإقطاع ويتقاضى أن تأخذ الأعمال من النفس المطمئنة فتجعلها قوة لها فهي أحرص شيء على تخليص الأعمال كلها وأن تصير من حظوظها ، فأصعب شيء على النفس المطمئنة تخليص الأعمال من الشيطان ومن الأمارة لله فلو وصل منها عمل واحد كما ينبغي لنجابه العبد ولكن ابت الأمارة والشيطان أن يدعا لها عملا واحداً يصل إلى الله كما قال بعض العارفين بالله وبنفسه والله لو أعلم أن لي عملا واحداً وصل إلى الله لكنت أفرح بالموت من الغائب يقدم على أهله ، وقال عبد الله بن عمر لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لم يكن غائب أحب إلي من الموت (إنما يتقبل الله من المتقين) .

فصل

وقد انتصبت الأمارة في مقابلة المطمئنة فكلما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تفسده عليها فاذا جاءت بالإيمان والتوحيد جاءت هذه بما يقدح في الإيمان من الشك والنفاق وما يقدح في التوحيد من الشرك ومحبة غير الله وخوفه ورجائه ولا ترضى حتى تقدم محبة غيره وخوفه ورجائه على محبته سبحانه وخوفه ورجائه فيكون ماله عندها هو المؤخر وما للخلق هو المقدم ، وهذا حال أكثر هذا الخلق ، وإذا جاءت تلك بتجريد المتابعة للرسول جاءت هذه بتحكيم آراء الرجال وأقوالهم على الوحي وأتت من الشبه المضلة بما يمنعها من كمال المتابعة وتحكيم السنة وعدم الالتفات إلى آراء الرجال

فتقوم الحرب بين هاتين النفسين والمنصور من نصره الله ، وإذا جاءت تلك بالاخلاص والصدق والتوكل والانابة والمراقبة جاءت هذه باضدادها وأخرجتها فى عدة قوالب وتقسم بالله مامرادها الا الاحسان والتوفيق والله يعلم أنها كاذبة وما مرادها إلا مجرد حظها واتباع هواها والتفلت من سجن المتابعة والتحكيم المحض للسنة إلى فضاء إرادتها وشهوتها وحظوظها ولعمرو الله ما تخلصت إلا من فضاء المتابعة والتسليم إلى سجن الهوى والإرادة وضيقه وظلمته ووحشته فهى مسجونة فى هذا العالم وفى البرزخ فى أضيق منه ويوم الميعاد الثانى فى أضيق منهما .

ومن أعجب أمرها أنها تسحر العقل والقلب فتأتى إلى أشرف الاشياء وأفضلها وأجلها فتخرجه فى صورة مذمومة وأكثر الخلق صبيان العقول أطفال الاحلام لم يصلوا إلى حد الفطام الأول عن العوائد والمألوفات فضلا عن البلوغ الذى يميز به العاقل البالغ بين خير الخيرين فيؤثره وشر الشرين فيجتنبه فتريه صورة تجريد التوحيد التى هى أبهى من صورة الشمس والقمر فى صورة التنقيص المذموم وهضم العظماء منازلهم وحطهم منها إلى مرتبة العبودية المحضة والمسكنة والذل والفقر المحض الذى لاملكة لهم معه ولا إرادة ولا شفاعة إلا من بعد إذن الله فتريهم النفس السحارة هذا القدر غاية تنقيصهم وهضمهم ونزول أقدارهم وعدم تمييزهم عن المساكين الفقراء فتنفر نفوسهم من تجريد التوحيد أشد النفار ويقولون (أجعل الآلهة إلهاً واحدا إن هذا لشيء عجاب) وتريهم تجريد المتابعة للرسول وماجاء به وتقديمه على آراء الرجال فى صورة تنقيص العلماء والرغبة عن أقوالهم وما فهموه عن الله ورسوله وان هذا إساءة أدب عليهم وتقدم بين أيديهم وهو مفض إلى إساءة الظن بهم وانهم قد فاتهم الصواب وكيف لنا قوة أن نرد عليهم ونفوز ونحظى بالصواب دونهم ، فتنفر من ذلك أشد النفار وتجعل كلامهم هو المحكم الواجب الاتباع وكلام الرسول هو المتشابه الذى يعرض على أقوالهم فما وافقها قبلناه وما خالفها رددناه أو أولناه أو فوضناه وتقسم النفس السحارة بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم .

فصل

وتريه صورة الاخلاص فى صورة ينفر منها وهى الخروج عن حكم العقل المعيشى والمداراة والمداهنة التى بها اندراج حال صاحبها ومشيه بين الناس فمتى أخلص أعماله ولم يعمل لاحد شيئاً تجنبوه وتجنبوه وأبغضوه وعاداه وعادوه وسار على جادة فينفر من ذلك أشد النفار وغايته أن يخلص فى القدر اليسير من أعماله التى لاتتعلق بهم وسائر أعماله لغير الله .

فصـــل

وتربه صورة للصدق مع الله وجهاد من خرج عن دينه وأمره فى قالب الانتصاب لعداوة الخلق وأذاهم وحربهم وأنه يعرض نفسه من البلاء لما لايطيق وانه يصير غرضاً لسهام الطاعنين ، وأمثال ذلك من الشبه التى تقيمها النفس السحارة والخيالات التى تخيلها ، وتربه حقيقة الجهاد فى صورة تقتل فيها النفس وتنكح المرأة ويصير الأولاد يتامى ويقسم المال ، وتربه حقيقة الزكاة والصدقة فى صورة مفارقة المال ونقصه وخلو اليد منه واحتياجه إلى الناس ومساواته للفقير وعوده بمنزلته وتربه حقيقة إثبات صفات الكمال لله فى صورة التشبيه والتمثيل فينفر من التصديق بها وينفر غيره ، وتربه حقيقة التعطيل والالحاد فيها فى صورة التنزيه والتعظيم .

وأعجب من ذلك انها تضاهى مايحبه الله ورسوله من الصفات والأخلاق والأفعال بما يبغضه منها ، وتلبس على العبد أحد الأمرين بالآخر ، ولا يخلص من هـذا إلا أرباب البصائر ، فان الأفعال تصـــدر عن الإرادات وتظهر على الأركان من النفسين الأمارة والمطمئنة فيتباين الفعلان فى البطلان [1] ويشتبهان فى الظاهر ، ولذلك أمثلة كثيرة منها المداراة والمداهنة فالأول من المطمئنة والثانى من الأمارة ، وخشوع الايمان وخشوع النفاق ، وشرف النفس والتيه والحمية والجفاء . والتواضع والمهانة ، والقوة فى أمر الله والعلو فى الارض والحمية لله والغضب له ، والحمية للنفس والغضب لها ، والجود والسرف ، والمهابة والكبر ، والصيانة والتكبر ، والشجاعة والجرأة ، والحزم والجبن ، والاقتصاد والشح ، والاحتراز وسوء الظن ، والفراسة والظن والنصيحة والغيبة ، والهدية والرشوة ، والصبر والقسوة ، والعفو والذل ، وسلامة القلب والبله والغفلة ، والثقة ، والغرة والرجاء والتمنى ، والتحدث بنعم الله والفخر بها ، وفرح القلب وفرح النفس . ورقة القلب والجزع ، والموجدة والحقد ، والمنافسة والحسد ، وحب الرياسة وحب الامامة والدعوة إلى الله . والحب لله والحب مع الله . والتوكل والعجز والاحتياط الوسوسة . وإلهام الملك ، وإلهام الشيطان ، والاناة والتسويف ، والاقتصاد والتقصير . والاجتهاد والغلو ، والنصيحة والتأنيب ، والمبادرة والعجلة ، والاخبار بالحال عند الحاجة والشكوى .

فالشىء الواحد تكون صورته واحدة وهو منقسم إلى محمود ومذموم كالفرح والحزن . والأسف والغضب . والغيرة والخيلاء . والطمع والتجمل . والخشوع والحسد والغبطة والجرأة

---

[1] كذا ولعله فى الباطن .

والتحسر والحرص، والتنافس وإظهار النعمة، والحلف والمسكنة، والصمت والزهد، والورع والتخلي، والعزلة والأنفة، والحمية والغيبة، وفي الحديث أن من الغيرة ما يحبها الله ومنها ما يكرهه فالغيرة التي يحبها الله الغيرة في ريبة، والتي يكرهها الغيرة في غير ريبة، وأن من الخيلاء ما يحبه الله ومنها ما يكرهه، فالتي يحب الخيلاء في الحرب. وفي الصحيح أيضا لا حسد الا في اثنتين رجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها. وفي الصحيح أيضا أن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف. وفيه أيضا من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير فالرفق شيء والتواني والكسل شيء فان التواني يتثاقل عن مصلحته بعد امكانها فيتقاعد عنها والرفيق يتلطف في تحصيلها بحسب الامكان مع المطاوعة. وكذلك المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به ليقره على باطله ويتركه على هواه فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لاهل النفاق، وقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة قد آلمته فجاءه الطبيب المداوي الرفيق فتعرف حالها ثم أخذ في تليينها حتى اذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة، حتى أخرج مافيها ثم وضع على مكانها من الدواء والمرهم ما يمنع فساده ويقطع مادته ثم تابع عليها بالمراهم التي تنبت اللحم ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ماينشف رطوبتها ثم يشد عليها الرباط ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت، والمداهن قال لصاحبها لا بأس عليك منها وهذه لاشيء فاسترها عن العيوب بخرقة ثم اله عنها فلا تزال مدتها تقوى وتستحكم حتى عظم فسادها، وهذا المثل أيضا مطابق كل المطابقة لحال النفس الامارة مع المطمئنة فتأمله، فاذا كانت هذه حال قرحة بقدر الحمصة فكيف بسقم هاج من نفس أمارة بالسوء، هي معدن الشهوات ومأوى كل فسق وقد قارنها شيطان في غاية المكر والخداع يعدها ويمنيها ويسحرها بجميع أنواع السحر حتى يخيل اليها النافع ضارا والضار نافعا والحسن قبيحا والقبيح جميلا وهذا لعمرو الله من أعظم أنواع السحر ولهذا يقول سبحانه (فانى تسحرون) والذي نسبوا اليه الرسل من كونهم مسحورين هو الذي أصابهم بعينه وهم أهله لا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كما أنهم نسبوهم الى الضلال والفساد في الأرض والجنون والسفه وما استعاذت [1] الأنبياء والرسل وأمراء الأمم بالاستعاذة من شر النفس الأمارة وصاحبها وقرينها الشيطان الا لأنهما أصل كل شر وقاعدته ومنبعه وهما متساعدان عليه متعاونان:

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما ... بأسحم داج عوض لا نتفرق

---

[1] كذا والظاهر. وما أمرت.

قال الله تعالى (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) وقال (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) وقال (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) وقال تعالى (قل أعوذ برب الفلق من شر ماخلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسد إذا حسد) فهذا استعاذة من شر النفس وقال (قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) فهذا استعاذة من قرينها وصاحبها وبئس القرين والصاحب ، فأمر الله سبحانه نبيه وأتباعه بالاستعاذة بربوبيته التامة الكاملة من هذين الخلقين العظيم شأنهما فى الشر والفساد ، والقلب بين هذين العدوين لايزال شرهما يطرقه وينتابه وأول مايدب فيه السقم من النفس الأمارة من الشهوة ومايتبعها من الحب والحرص والطلب والغضب ويتبعه من الكبر والحسد والظلم والتسلط فيعلم الطبيب الغاش الخائن بمرضه فيعوده ويصف له أنواع السموم والمؤذيات ويخيل اليه بسحره أن شفاءه فيها ويتفق ضعف القلب بالمرض وقوة النفس الأمارة والشيطان وتتابع إمدادهما وأنه نقد حاضر ولذة عاجلة والداعى اليه يدعو من كل ناحية والهوى ينفذ والشهوة تهون والتأسى بالأكثر والتشبه بهم والرضا بأن يصيبه ما أصابهم فكيف يستجيب مع هذه القواطع وأضعافها لداعى الإيمان ومنادى الجنة إلا من أمده الله بامداد التوفيق وأيده برحمته وتولى حفظه وحمايته وفتح بصيرة قلبه فرأى سرعة انقطاع الدنيا وزوالها وتقلبها بأهلها وفعلها بهم وأنها فى الحياة الدائمة كغمس أصبع فى البحر بالنسبة إليه .

فصل

والفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء وشهود نعم الله وجناياته هو فيخشع القلب لامحالة فيتبعه خشوع الجوارح . وأما خشوع النفاق فيبدو على الجوارح تصنعاً وتكلفاً والقلب غير خاشع ، وكان بعض الصحابة يقول أعوذ بالله من خشوع النفاق قيل له وماخشوع النفاق ؟ قال أن يرى الجسد خاشعاً والقلب غير خاشع . فالخاشع لله عبد قد خمدت نيران شهوته وسكن دخانها عن صدره فانجلى الصدر وأشرق فيه نور العظمة فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذى حشى به وخمدت الجوارح وتوقر القلب واطمأن إلى الله وذكره بالسكينة التى نزلت عليه من ربه فصار خبتاً له والخبت المطمئن فان الخبت من الأرض ما اطمأن فاستنقع فيه الماء ، فكذلك القلب الخبت قد خشع واطمأن كالبقعة المطمئنة من الأرض التى يجرى إليها الماء فيستقر فيها وعلامته

أن يسجد بين يدى ربه إجلالا له وذلا وانكساراً بين يديه سجدة لا يرفع رأسه عنها حتى يلقاه . وأما القلب المتكبر فإنه قد اهتز بتكبره وربا فهو كبقعة رابية من الأرض لا يستقر عليها الماء فهذا خشوع الإيمان .

وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعاً ومراءاة ونفسه فى الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات فهو يتخشع فى الظاهر وحية الوادى وأ · الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة .

فصـــل

وأما شرف النفس فهو صيانتها عن الدنايا والرذائل والمطامع التى تقطع أعناق الرجال فيربأ بنفسه عن أن يلقيها فى ذلك ، بخلاف التيه فإنه خلق متولد بين أمرين إعجابه بنفسه وازدرائه بغيره فيتولد من بين هذين التيه والأول يتولد من بين خلقين كريمين إعزاز النفس وإكرامها وتعظيم مالكها وسيدها أن يكون عبده دنيا وضيعاً خسيساً فيتولد من بين هذين الخلقين شرف النفس وصيانتها ، وأصل هذا كله استعداد النفس وتهيؤها وامداد وليها ومولاها لها فإذا فقد الاستعداد والإمداد فقد الخير كله .

فصـــل

وكذلك الفرق بين الحمية والجفاء فالحمية فطام النفس عن رضاع اللوم من ثدى هو مصب الخبائث والرذائل والدنايا ولو غرر لبنه وتهالك الناس عليه فان لهم فطاماً تنقطع معه الأكباد حسرات فلابد من الفطام . فإن شئت عجل وأنت محمود مشكور وإن شئت آخر وأنت غير مأجور . بخلاف الجفاء فانه غلظة فى النفس وقساوة فى القلب وكثافة فى الطبع يتولد عنها خلق يسمى الجفاء .

فصـــل

والفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله ، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها ، فيتولد من بين ذلك كله خلق هو التواضع وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة بعباده فلا يرى له على أحد فضلا ولا يرى له عند أحد حقاً بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله ، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه .

(وأما المهانة) فهى الدناءة والخسة وبذل النفس وابتذالها فى نيل حظوظها وشهواتها كتواضع السفل فى نيل شهواتهم وتواضع المفعول به للفاعل وتواضع طالب كل حظ لمن يرجو نيل حظه منه فهذا كله ضعة لا تواضع والله سبحانه يحب التواضع ويبغض الضعة والمهانة . وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وآله وسلم وأوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد والتواضع المحمود على نوعين .

(النوع الأول) تواضع العبد عند أمر الله امتثالا وعند نهيه اجتنابا فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ فى أمره فيبدو منها نوع إباء وشراد هرباً من العبودية وتثبت عند نهيه طلباً للظفر بما منع منه فاذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية .

(والنوع الثانى) تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب تعالى وتفرده بذلك وغضبه الشديد على من نازعه ذلك فتواضعت إليه نفسه وانكسر لعظمة الله قلبه واطمأن لهيبته وأخبت لسلطانه ، فهذا غاية التواضع وهو يستلزم الأول من غير عكس والمتواضع حقيقة من رزق الأمرين والله المستعان .

فصـــل

وكذلك القوة فى أمر الله هى من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتى يقيمها الله والعلو فى الأرض هو من تعظيم نفسه وطلب تفردها بالرياسة ونفاذ الكلمة سواء عز أمر الله أو هان بل إذا عارضه أمر الله وحقوقه ومرضاته فى طلب علوه لم يلتفت إلى ذلك وأهدره وأماته فى تحصيل علوه .

وكذلك الحمية لله والحمية للنفس فالأولى يثيرها تعظيم الأمر والآمر والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها فالحمية لله أن يحمى قلبه له من تعظيم حقوقه وهى حال عبد قد أشرق على قلبه نور سلطان الله فامتلأ قلبه بذلك النور فاذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذى ألقى على قلبه وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا غضب احمرت وجنتاه وبدا بين عينيه عرق يدره الغضب ولم يقم لغضبه شىء حتى ينتقم لله ، وروى زيد بن أسلم عن أبيه أن موسى بن عمران صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا غضب اشتعلت قلنسوته ناراً وهذا بخلاف الحمية للنفس فإنها حرارة تهيج من نفسه لفوات حظها أو طلبه فان الفتنة فى النفس والفتنة هى الحريق والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب فانما هما حرارتان تظهران على الأركان حرارة من قبل النفس المطمئنة أثارها تعظيم حق الله وحرارة من قبل النفس الأمارة أثارها استشعار فوت الحظ .

فصـــل

والفرق بين الجود والسرف أن الجواد حكيم يضع العطاء مواضعه والمسرف مبذر وقد يصادف عطاؤه موضعه وكثيراً لايصادفه وإيضاح ذلك أن الله سبحانه بحكمته جعل فى المال حقوقا وهى نوعان حقوق موظفة وحقوق ثانيـــة (فالحقوق الموظفة) كالزكاة والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته .

والثانية كحق الضيف ومكافأة المهدى وماوقى به عرضه ونحو ذلك فالجواد يتوخى بماله أداء هذه الحقوق على وجه الكمال طيبة بذلك نفسه راضية مؤملة للخلف فى الدنيا والثواب فى العقبى فهو يخرج ذلك بسماحة قلب وسخاوة نفس وانشراح صدر بخلاف المبذر فانه يبسط يده فى ماله بحكم هواه وشهوته جزافا لا على تقدير ولامراعاة مصلحة وإن اتفقت له فالاول بمنزلة من بذر حبة فى الأرض تنبت وتوخى ببذره مواضع المغل والإنبات فهذا لايعد مبذراً ولاسفيها والثانى بمنزلة من بذر حبة فى سباخ وعزاز من الأرض وإن اتفق بذره فى محل النبات بذر بذراً متراكما بعضه على بعض ، فذلك المكان البذر فيه ضائع معطل وهذا المكان بذر بذراً متراكما بعضه على بعض ، فلذلك يحتاج أن يقلع بعض زرعه ليصلح الباقى ولئلا تضعف الأرض عن تربيته . والله سبحانه هو الجواد على الاطلاق بل كل جود فى العالم العلوى والسفلى بالنسبة إلى جوده أقل من قطرة فى بحار الدنيا وهى من جوده ومع هذا فانما ينزل بقدر مايشاء وجوده لايناقض حكمته ويضع عطاءه مواضعه وإن خفى على أكثر الناس أن تلك مواضعه فالله يعلم حيث يضع فضله وأى المحال أولى به .

فصـــل

والفرق بين المهابة والكبر (أن المهابة) أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله فاذا امتلأ القلب بذلك حل فيه النور ونزلت عليه السكينة وألبس رداء الهيبـــة فاكتسى وجهه الحلاوة والمهابة فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة فحنت اليه الأفئدة وقرت به العيون وأنست به القلوب فكلامه نور ومدخله نور ومخرجه نور وعمله نور وإن سكت علاه الوقار وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع .

(وأما الكبر) فأثر من آثار العجب والبغى من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم ترحلت منه العبودية ونزل عليه المقت فنظره إلى الناس شزر ومشيه بينهم تبختر ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف ذاهب بنفسه تيهاً لايبدأ من لقيه بالسلام وإن رد عليه

رأى أنه قد بالغ فى الانعام عليه لاينطلق لهم وجهه ولايسمهم خلقه ولايرى لأحد عليه حقاً ويرى حقوقه على الناس ولايرى فضلهم عليه ويرى فضله عليهم لايزداد من الله إلا بعداً ومن الناس إلا صغاراً أو بغضاً .

فصـــل

والفرق بين الصيانة والتكبر أن الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوباً جديداً نقى البياض ذا ثمن فهو يدخل به على الملوك فمن دونهم فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع وأنواع الآثار إبقاء على بياضه ونقائه فتراه صاحب تحرز وهروب من المواضع التى يخشى منها عليه التلوث فلا يسمح بأثر ولاطبع ولا لوث يعلو ثوبه وإن أصابه شىء من ذلك على غرة بادر إلى قلعه وإزالته ومحو أثره وهكذا الصائن لقلبه ودينه تراه يجتنب طبوع الذنوب وآثارها فان لها فى القلب طبوعاً وآثاراً أعظم من الطبوع الفاحشة فى الثوب النقى البياض ولكن على العيون غشاوة أن تدرك تلك الطبوع ، فتراه يهرب من مظان التلوث ويحترس من الخلق ويتباعد من تخالطهم مخافة أن يحصل لقلبه مايحصل للثوب الذى يخالط الدباغين والذباحين والطباخين ونحوهم .

بخلاف صاحب العلو فانه وإن شابه هذا فى تحرزه وتجنبه فهو يقصد أن يعلو رقابهم ويحطهم تحت قدمه ، فهذا لون وذاك لون .

فصـــل

والفرق بين الشجاعة والجرأة (أن الشجاعة) من القلب وهى ثباته واستقراره عند المخاوف وهو خلق يتولد من الصبر وحسن الظن فانه متى ظن الظفر وساعده الصبر ثبت ، كما أن الجبن يتولد من سوء الظن وعدم الصبر فلايظن الظفر ولايساعده الصبر وأصل الجبن من سوء الظن ووسوسة النفس بالسوء وهو ينشأ من الرئة فاذا ساء الظن ووسوست النفس بالسوء انتفخت الرئة فراحت القلب فى مكانه وضيقت عليه حتى أزعجته عن مستقره فأصابه الزلازل والاضطراب لإزعاج الرئة له وتضييقها عليه ولهذا جاء فى حديث عمرو بن العاص الذى رواه أحمد وغيره عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم شر مافى المرء جبن خالع وشح هالع فسمى الجبن خالعاً لأنه يخلع القلب عن مكانه لانتفاخ السحر وهو الرئة كما قال أبو جهل لعتبة بن ربيعة يوم بدر انتفخ سحرك ، فاذا زال القلب عن مكانه ضاع تدبير العقل فظهر الفساد على الجوارح فوضعت الأمور على غير مواضعها فالشجاعة حرارة القلب وغضبه وقيامه وانتصابه وثباته فاذا رأته الأعضاء كذلك أعانته فانها خدم له وجنود كما أنه إذا ولى ولت سائر جنوده .

وأما الجراة فهى إقدام سببه قلة المبالاة وعدم النظر فى العاقبة بل تقدم النفس فى موضع الإقدام معرضة عن ملاحظة العارض فإما عليها وإما لها .

فصـــل

وأما الفرق بين الحزم والجبن فالحازم هو الذى قد جمع عليه همه وإرادته وعقله ووزن الأمور بعضها ببعض فأعد لكل منها قرنه ، ولفظة الحزم تدل على القوة والإجماع ومنه حزمة الحطب فحازم الرأى هو الذى اجتمعت له شئون رأيه وعرف منها خير الخيرين وشر الشرين فأحجم فى موضع الاحجام رأيا وعقلا لاجبنا ولاضعفاً :

العاجز الرأى مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا [1]

فصـــل

وأما الفرق بين الاقتصاد والشح أن الاقتصاد خلق محمود يتولد من خلقين عدل وحكمة فبالعدل يعتدل فى المنع والبذل وبالحكمة يضع كل واحد منهما موضعه الذى يليق به فيتولد من بينهما الاقتصاد وهو وسط بين طرفين مذمومين كما قال تعالى (ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً) وقال تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) وقال تعالى (كلوا واشربوا ولاتسرفوا) .

وأما الشح فهو خلق ذميم يتولد من سوء الظن وضعف النفس ويمده وعد الشيطان حتى يصير هلعاً والهلع شدة الحرص على الشىء والشره به فتولد عنه المنع لبذله والجزع لفقده كما قال تعالى (إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) .

فصـــل

والفرق بين الاحتراز وسوء الظن أن المحترز بمنزلة رجل قد خرج بماله ومركوبه مسافرا فهو يحترز بجهده من كل قاطع للطريق وكل مكان يتوقع منه الشر وكذلك يكون مع التأهب والاستعداد وأخذ الأسباب التى بها ينجو من المكروه ، فالمحترز كالمتسلح المتدوع الذى قد تأهب للقاء عدوه وأعد له عدته فهمه فى تهيئة أسباب النجاة ومحاربة عدوه قد أشغلته عن سوء الظن به وكلما ساء به الظن أخذ فى أنواع العدة والتأهب .

---

[1] لم يذكر تفسير الجبن كأنه اكتفى بما تقدم فى الفصل الذى قبل هذا .

وأما سوء الظن فهو امتلاء قلبه بالظنون السيئة بالناس حتى يطفح على لسانه وجوارحه ، فهم معه ابدا فى الهمز واللمز والطعن والعيب والبغض يبغضهم ويبغضونه ، ويلعنهم ويلعنونه ويحذرهم ويحذرون منه ، فالأول يخالطهم ويحترز منهم ، والثانى يتجنبهم ويلحقه أذاهم ، الأول داخل فيهم بالنصيحة والاحسان مع الاحتراز والثانى خارج منهم مع الغش والدغل والبغض.

فصـــل

والفرق بين الفراسة والظن أن الظن يخطىء ويصيب وهو يكون مع ظلمة القلب ونوره وطهارته ونجاسته ولهذا أمر تعالى باجتناب كثير منه وأخبر أن بعضه اثم .

وأما الفراسة فأثنى على أهلها ومدحهم فى قوله تعالى (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره أى المتفرسين وقال تعالى (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم) وقال تعالى (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول) فالفراسة الصادقة لقلب قد تطهر وتصفى وتنزه من الأدناس وقرب من الله فهو ينظر بنور الله الذى جعله فى قلبه وفى الترمذى وغيره من حديث أبى سعيد قال قال رسول الله صـــلى الله عليه وآله وسلم اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله . وهذه الفراسة نشأت له من قربه من الله فان القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه وكان تلقيه من مشكاة قريبة من الله بحسب قربه منه وأضاء له النور بقدر قربه فرأى فى ذلك النور مالم يره البعيد والمحجوب كما ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال ما تقرب إلى عبدى بمثل ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى فأخبر سبحانه أن تقرب عبده منه يفيده محبته له فإذا أحبـــه قرب من سمعه وبصره ويده ورجله فسمع به وأبصر به وبطش به ومشى به فصار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ماهى عليه فلا تكاد تخطىء له فراسة فان العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر على ماهو عليه فاذا سمع بالله سمعه على ماهو عليه ، وليس هذا من علم الغيب بل علام الغيوب قذف الحق فى قلب قريب مستبشر بنوره غير مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس التى تمنعه من حصول صور الحقائق فيه وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان وبادر من القلب إلى العين فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرى أصحابه فى الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه ، ورأى بيت المقدس عيانا وهو

بمكة ورأى قصور الشام وأبواب صنعاء ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق ، ورأى امرأه بمؤتة وقد أصيبوا وهو بالمدينة ، ورأى النجاشي بالحبشة لما مات وهو بالمدينة فخرج إلى المصل فصلى عليه . ورأى عمر ساربة بنهاوند من أرض فارس [1] هو وعساكر المسلمين وهم يقاتلون عدوهم فناداه ياسارية الجبل ، ودخل عليه نفر من مذحج فيهم الأشتر النخعي فصعد فيه البصر وصوبه وقال أيهم هذا ؟ قالوا مالك بن الحارث فقال ماله قاتله الله إني لأرى للمسلمين منه يوما عصيبا .

ودخل عمرو بن عبيد على الحسن فقال هذا سيد الفتيان إن لم يحدث . وقيل أن الشافعي ومحمد بن الحسن جلسا في المسجد الحرام فدخل رجل فقال محمد أتفرس أنه نجار ، فقال الشافعي أتفرس أنه حداد ، فسألاه فقال كنت حداداً وأنا اليوم أنجر ودخل أبو الحسن البوشنجي والحسن الحداد على أبي القاسم المناوي يعودانه فاشتريا في طريقهما بنصف درهم تفاحا نسيئة فلما دخلا عليه قال ماهذه الظلة ؟ فخرجا وقالا ماعلمنا لعل هذا من قبل ممن التفاح فأعطيا الثمن ثم عادا اليه ووقع بصره عليهما فقال يمكن الانسان أن يخرج من الظلة بهذه السرعة ؟ أخبراني عن شأنكما فأخبراه بالقصة فقال نعم كان كل واحد منكما يعتمد على صاحبه في إعطاء الثمن والرجل مستح منكما في التقاضي . وكان بين أبي زكريا النخشبي وبين امرأة سبب قبل توبته فكان يوما واقفا على رأس أبي عثمان الحيري فتفكر في شأنها فرفع أبو عثمان إليه رأسه وقال ألا تستحي . وكان شاه الكرماني جيد الفراسة لا تخطىء فراسته وكان يقول من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة وتعود أكل الحلال لم تخطىء فراسته . وكان شاب يصحب الجنيد يتكلم على الخواطر فذكر للجنيد فقال إيش هذا الذي ذكر لي عنك ؟ فقال له اعتقد شيئاً ، فقال له الجنيد اعتقدت فقال الشاب اعتقدت كذا وكذا فقال الجنيد لا ، فقال فاعتقد ثانياً قال اعتقدت فقال الشاب اعتقدت كذا وكذا فقال الجنيد لا ، قال فاعتقد ثالثاً قال اعتقدت قال الشاب هو كذا وكذا قال لا ، فقال الشاب هذا عجب وأنت صدوق وأنا أعرف قلبي . فقال الجنيد صدقت في الأولى والثانية والثالثة لكن أردت أن أمتحنك هل يتغير قلبك ؛ وقال أبو سعيد الخراز دخلت المسجد الحرام فدخل فقير عليه خرقتان يسأل شيئاً فقلت في نفسي مثل هذا كل على الناس ، فنظر إلي وقال (اعلموا أن الله يعلم مافي أنفسكم فاحذروه) قال فاستغفرت في سري فنادني وقال (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) وقال إبراهيم الخواص كنت في الجامع فأقبل شاب طيب الرائحة حسن الوجه حسن

---

[1] وكان عمر رضي الله عنه إذ ذاك بالمدينة المشرفة .

الحرمة فقلت لأصحابنا يقع لى أنه يهودى ! فكلهم كره ذلك فخرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم فقال إيش قال الشيخ فى ؟ فاحتشموه فألح عليهم فقالوا قال إنك يهودى فجاء فأكب على يدى فأسلم فقلت ما السبب ؟ فقال نجد فى كتابنا أن الصديق لا تخطىء فراسته فقلت امتحن المسلمين فتأملتهم فقلت إن كان فيهم صديق ففى هذه الطائفة فلبست عليكم فلما اطلع هذا الشيخ على وتفرسنى علمت أنه صديق . وهذا عثمان بن عفان دخل عليه رجل من الصحابة وقد رأى امرأة فى الطريق فتأمل محاسنها فقال له عثمان يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه فقلت أوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال لا ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة .

فهذا شأن الفراسة وهى نور يقذفه الله فى القلب فيخطر له الشىء فيكون كما خطر له وينفذ إلى العين فيرى مالا يراه غيرها .

فصـــل

والفرق بين النصيحة والغيبة أن النصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع أو فتان أو غاش أو مفسد فتذكر مافيه إذا استشارك فى صحبته ومعاملته والتعلق به كما قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة بنت قيس وقد استشارته فى نكاح معاوية وأبى جهم فقال : أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه ، وقال بعض أصحابه لمن سافر معـــه إذا هبطت عن بلاد قومه فاحذره .

فاذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين فهى قربة إلى الله من جملة الحسنات ، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفكه بلحمه والغض منه لتضع منزلته من قلوب الناس فهى الداء العضال ونار الحسنات التى تأكلها كما تأكل النار الحطب .

فصـــل

والفرق بين الهدية والرشوة وإن اشتبها فى الصورة القصد فان الراشى قصده بالرشوة التوصل إلى إبطال حق أو تحقيق باطل فهذا الراشى الملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فان رشا لدفع الظلم عن نفسه اختص المرتشى وحده باللعنة .

وأما المهدى فقصده استجلاب المودة والمعرفة والإحسان فان قصد المكافأة فهو معاوض وإن قصد الربح فهو مستكثر .

فصـــل

والفرق بين الصبر والقسوة أن الصبر خلق كسبى يتخلق به العبد وهو حبس النفس عن الجزع والهلع والتشكى فيحبس النفس عن التسخط واللسان عن الشكوى والجوارح عما لاينبغى فعله وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية .

وأما القسوة فيبس فى القلب يمنعه من الانفعال وغلظة تمنعه من التأثر بالنوازل فلا يتأثر لغلظته وقساوته لا لصبره واحتماله .

وتحقيق هذا أن القلوب ثلاثة :

(قلب قاس) غليظ بمنزلة اليد اليابسة . (وقلب مائع) رقيق جداً .

(فالأول) لاينفعل بمنزلة الحجر . والثانى بمنزلة الماء وكلاهما ناقص وأصح القلوب (القلب الرقيق) الصافى الصلب فهو يرى الحق من الباطل بصفائه ويقبله[1] ويؤثره برقته ويحفظه ويحارب عدوه بصلابته . وفى الأثر « القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها » وهذا القلب الزجاجى فإن الزجاجة جمعت الأوصاف الثلاثة ، وأبغض القلوب إلى الله القلب القاسى قال تعالى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) وقال تعالى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة) وقال تعالى (ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم) فذكر القلبين المنحرفين عن الاعتدال هـــذا بمرضه وهذا بقسوته وجعل إلقاء الشيطان فتنة لأصحاب هذين القلبين ورحمة لأصحاب القلب الثالث وهو القلب الصافى الذى ميز بين القاء الشيطان والقاء الملك بصفائه وقبل الحق بإخباته ورقته وحارب النفوس المبطلة بصلابته وقوته فقال تعالى عقيب ذلك (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهـــادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم)

فصـــل

والفرق بين العفو والذل ان العفو اسقاط حقك جودا وكرما واحسانا مع قدرتك على الانتقام فتؤثر الترك رغبة فى الاحسان ومكارم الأخلاق بخلاف الذل فإن صاحبه يترك

---

[1] أى الحق ، كما يأتى .

الانتقام عجزا وخوفاً ومهانة نفس ، فهذا مذموم غير محمود ولعل المنتقم بالحق أحسن حالا منه قال تعالى (والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون) .

فمدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء مالهم عليه ندبهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح فقال (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين) فذكر المقامات الثلاثة العدل وأباحه ، والفضل وندب إليه ، والظلم وحرمه .

(فإن قيل) فكيف مدحهم على الانتصار والعفو وهما متنافيان .

(قيل) لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام وإنما مدحهم على الانتصار وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم فلما قدروا ندبهم إلى العفو قال بعض السلف فى هذه الآية كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا ، فمدحهم على عفو بعد قدرة لا على عفو ذل وعجز ومهانة وهذا هو الكمال الذى مدح سبحانه به نفسه فى قوله (وكان الله عفوا قديرا) (والله غفور رحيم) وفى أثر معروف: حملة العرش أربعة إثنان يقولان سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك . واثنان يقولان سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ، ولهذا قال المسيح صلوات الله وسلامه عليه (إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) أى ان غفرت لهم غفرت عن عزة وهى كمال القدرة، وحكمة وهى كمال العلم فغفرت بعد أن علمت ما عملوا وأحاطت بهم قدرتك إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام وجهله بحقيقة ماصدر من المسىء والعفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل وباطنه عز ومهانة وانتقام ظاهره عز وباطنه ذل فما زاد الله بعفو إلا عزا لا انتقم أحد لنفسه إلا ذل ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو ولهذا ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه قط ، وتأمل قوله سبحانه (وهم ينتصرون) كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم لا أن غيرهم هو الذى ينصرهم ، ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالباً بل لابد من المجاوزة شرع فيه سبحانه المماثلة والمساواة وحرم الزيادة وندب إلى العفو .

والمقصود أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة والذل من أخلاق الامارة ونكتة المسألة أن الانتقام شىء والانتصار شىء فالانتصار أن ينتصر لحق الله ومن أجله ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذل حظه ورق هواه فإنه حينئذ ينال حظا من العز الذى قسم الله المؤمنين فاذا بغى عليه انتصر من الباغى من أجل عز الله الذى أعزه به غيرة على ذلك العز

أن يستضام ويقهر وحمية للعبد المنسوب إلى العزيز الحميد أن يستذل ، فهو يقول للباغي عليه أنا مملوك من لايذل مملوكه ولا يحب أن يذله أحـــد ، وإذا كانت نفسه الأمارة قائمة على أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظها وظفرها بالباغي تشفيا فيه وإذلالا له وأما النفس التي خرجت من ذل حظها ورق هواها إلى عز توحيدها وانابتها إلى ربها فاذا نالها البغي قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذي أعزها الله به ونالته منه وهو في الحقيقة حمية لربها ومولاها وقد ضرب لذلك مثلا بعبدين من عبيد الغلة حراثين ضرب أحدهما صاحبه فنفذ المضروب عن الضارب نصحا منه لسيده وشفقة على الضارب أن يعاقبه السيد فلم يحشم سيده خلقه [1] عقوبته وافساده بالضرب فشكر العافي على عفوه ووقع منه بموقع . وعبد آخر قد أقامه بين يديه وجمله وألبسه ثيابا يقف بها بين يديه فعمد بعض سواس الدواب وأضرابهم ولطخ تلك الثياب بالعـــذرة أو مزقها فلو عفا عمن فعـل به ذلك لم يوافق عفوه رأي سيده ولا محبته وكان الانتصار أحب إليه ووافق لمرضاته كأنه يقول إنما فعل هذا بك جرأة على واستخفافا بسلطاني فاذا أمكنه من عقوبته فاذله وقهره ولم يبق إلا أن يبطش به فذل وانكسر قلبه فإن سيده يحب منه أن لايعاقبه لحظة وأن يأخذ منه حق السيد فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سيده لا لنفسه كما روى عن علي رضي الله عنه أنه مر برجل فاستغاث به وقال هذا منعني حقي ولم يعطني إياه فقال أعطه حقه فلما جاوزهما لج الظالم ولطم صاحب الحق فاستغاث بعلي فرجع وقال أتاك الغوث فقـــال له استقدمته فقال قد عفوت يا أمير المؤمنين فضربه على تسع درر وقال قد عفا عنك من لطمته وهذا حق السلطان فعاقبه على لما اجترأ على سلطان الله ولم يدعه ويشبه هذا قصة الرجل الذي جاء إلى أبي بكر رضي الله عنه فقـال احملني فوالله لأنا أفرس منك ومن ابنك [1] وعنده المغيرة بن شعبة فحسر عن ذراعه وصك بها أنف الرجل فسال الدم فجاء قومه إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا أقدنا من المغيرة ، فقال أنا أقيدكم من وزعة الله ؟ لا أقيدكم منه فرأى أبو بكر أن ذلك انتصار من المغير وحمية لله وللعز الذي أعز به خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليتمكن بذلك العزم حسن خلافته وإقامة دينه فترك قوده لاجترائه على عز الله وسلطانه الذي أعز به رسوله ودينه وخليفته فهذا لون والضرب حمية للنفس الأمارة لون .

فصـــل

والفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل ان سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر

---

[1] كذا .

بعد معرفته فيسلم قلبه من إرادته وقصده لامن معرفته والعلم به ، وهذا بخلاف البله والغفلة فانها جهل وقلة معرفة وهذا لايحمد إذ هو نقص وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه . والكمال أن يكون القلب عارفا بتفاصيل الشر سليما من إرادته قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لست بخب ولا يخدعنى الخب وكان عمر أعقل من أن يخدع وأورع من أن يخدع وقال تعالى (يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم) . فهذا هو السليم من الآفات التى تعترى القلوب المريضة من مرض الشبهة التى توجب اتباع الظن ومرض الشهوة التى توجب اتباع ماتهوى الأنفس فالقلب السليم الذى سلم من هذا وهذا .

فصـــل

والفرق بين الثقة والغرة أن الثقة سكون يستند إلى أدلة وأمارات يسكن القلب إليها فكلما قويت تلك الامارات قويت الثقة واستحكمت ولا سيما على كثرة التجارب وصدق الفراسة واللفظة كأنها والله أعلم من الوثاق وهو الرباط فالقلب قد ارتبط بمن وثق به توكلا عليه وحسن ظن به فصار فى وثاق محبته ومعاملته والاستناد إليه والاعتماد عليه فهو فى وثاقه بقلبه وروحه وبدنه فإذا صار القلب إلى الله وانقطع إليه تقيد بحبه وصار فى وثاق العبودية فلم يبق له مفزع فى النوائب ولا ملجأ غيره ويصير عدته وشدته وذخيرته فى نوائبه وملجأه فى نوازله ومستعانه فى حوائجه وضروراته .

وأما الغرة فهى حال المغتر الذى غرته نفسه وشيطانه وهواه وأمله الخائب الكاذب به حتى أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى ، والغرور ثقتك بمن لا يوثق به وسكونك إلى من لايسكن إليه ورجاؤك النفع من المحل الذى لايأتى بخير كحال المغتر بالسراب قال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءا حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) وقال تعالى فى وصف المغترين (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضـــل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا على شىء (وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون) وفى أثر معروف إذا رأيت الله سبحانه يزيدك من نعمه وأنت مقيم على معصيته فاحذره فانما هو استدراج يستدرجك به . وشاهد هذا فى القرآن فى قوله تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون) وهذا من أعظم الغرة أن تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على مايكره فالشيطان وكل بالغرور ، وطبع النفس الأمارة الاغترار فاذا اجتمع الرأى والبغى والرأى

المحتاج [1] والشيطان الغرور والنفس المغترة لم يقع هناك خلاف . فالشياطين غروا المغترين بالله وأطمعوهم مع إقامتهم على مايسخط الله ويغضبه فى عفوه وتجاوزه وحدثوهم بالتوبة لتسكن قلوبهم ثم دافعوهم بالتسويف حتى هجم الاجل فأخذوا على أسوأ أحوالهم وقال تعالى (وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) وقال تعالى (يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحيوة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) وأعظم الناس غروراً بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل (قال هذا لى) أى أنا أهله وجدير به ومستحق له ثم قال (وماأظن الساعة قائمة) فظن انه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله ثم زاد فى غروره فقال (ولئن رجعت إلى ربى ان لى عنده للحسنى) يعنى الجنة والكرامة وهكذا تكون الغرة بالله فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه فلايزال كذلك حتى يتردى فى آبار الهلاك .

فصـــل

والفرق بين الرجاء والتمنى أن (الرجاء) يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة فى الإتيان بأسباب الظفر والفوز (والتمنى) حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه قال تعالى (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) فطوى سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء وقال المغترون إن الذين ضيعوا أوامره وارتكبوا نواهيه واتبعوا ماأسخطه وتجنبوا ما يرضيه أولئك يرجون رحمته ، وليس هذا ببدع من غرور النفس والشيطان لهم فالرجاء لعبد قد امتلأ قلبه من الإيمان بالله واليوم الآخر فمثل بين عينيه ماوعده الله تعالى من كرامته وجنته امتد القلب مائلا إلى ذلك شوقا إليه وحرصاً عليه فهو شبيه بالماد عنقه إلى مطلوب قد صار نصب عينيه . وعلامة الرجاء الصحيح أن الراجى يخاف فوت الجنة وذهاب حظه منها بترك مايخاف أن يحول بينه وبين دخولها فمثله مثل رجل خطب امرأة كريمة فى منصب وشرف إلى أهلها فلما آن وقت العقد واجتماع الأشراف والأكابر وإتيان الرجل إلى الحضور علم عشية ذلك اليوم ليتأهب للحضور فتراه المرأة وأكابر الناس فأخذ فى التأهب والتزين والتجميل فأخذ من فضول شعره وتنظف وتطيب ولبس أجمل ثيابه وأتى إلى تلك الدار متقيا فى طريقه كل وسخ ودنس وأثر يصيبه أشد تقوى حتى الغبار والدخان وماهو دون ذلك فلما وصل إلى الباب رحب به وربها ومكن له فى صدر الدار على الفرش والوسائد ورمقته العيون وقصد بالكرامة من كل ناحية فلو أنه ذهب بعد أخذ

---

[1] لعله المحرج .

هذه الزينة فجلس فى المزابل وتمرغ عليها وتمعك بها وتلطخ فى بدنه وثيابه بما عليها من عذرة وقذر ودخل ذلك فى شعره وبشره وثيابه فجاء على ذلك الحال إلى تلك الدار وقصد دخولها للوعد الذى سبق له لقام إليه البواب بالضرب والطرد والصياح عليه والإبعاد له من بابها وطريقها فرجع متحيراً خاسئاً . فالأول حال الراجى وهذا حال المتمنى ، وإن شئت مثلت حال الرجلين بملك هو من أغير الناس وأعظمهم أمانة وأحسنهم معاملة لايضيع لديه حق أحد وهو يعامل الناس من وراء ستر لايراه أحد وبضائعه وأمواله وتجاراته وعبيده وإماؤه ظاهر بارز فى داره للمعاملين فدخل عليه رجلان فكان أحدهما يعامله بالصدق والأمانة والنصيحة لم يجرب عليه غشا ولا خيانة ولا مكراً فباعه بضائعه كلها واعتمد مع مماليكه وجواريه مايجب أن يعتمد معهم فكان إذا دخل إليه ببضاعة تخيرله أحسن البضائع وأحبها إليه وإن صنعها بيده بذل جهده فى تحسينها وتنميقها وجعل ماخفى منها أحسن مماظهر ويستلم المؤنة ممن أمره أن يستلمها منه وامتثل ماأمره به السفير بينه وبينه فى مقدار ما يعمله ، صفته وهيئته وشكله ورقته وسائر شئونه ، وكان الآخر إذا دخل دخل بأخس بضاعة يجدها لم يخلصها من الغش ولا نصح فيها ولا اعتمد فى أمرها ماقاله المترجم عن الملك والسفير بينه وبين الصناع والنجار بل كان يعملها على مايهواه ومع ذلك فكان يخون الملك فى داره إذ هو غائب عن عينه فلا يلوح له طمع إلا خانه ولاحرمة للملك إلا مد بصره إليها وحرص على إفسادها ولا شىء يسخط الملك إلا ارتكبه إذا قدر عليه فمضيا على ذلك مدة ثم قيل إن الملك يبرز اليوم لمعامليه حتى يحاسبهم ويعطيهم حقوقهم فوقف الرجلان بين يديه فعامل كل واحد منهما بمايستحقه . فتأمل هذين المثلين فإن الواقع مطابق لهما فالراجى على الحقيقة لما صارت الجنة نصب عينه ورجاءه وأمله امتد إليها قلبه وسعى لها سعيها فان الرجاء هو امتداد القلب وميله ، وحقق رجاءه كمال التأهب وخوف الفوت والأخذ بالحذر . وأصله من النحى ورجا البئر ناحيته وإرجاء السماء نواحيها وامتداد القلب إلى المحبوب منقطعاً عما يقطعه عنه هو تنح عن النفس الأمارة وأسبابها وما تدعو إليه وهذا الامتداد والميل والخوف من شأن النفس المطمئنة فان القلب إذا انفتحت بصيرته فرأى الآخرة وما أعد الله فيها لأهل طاعته وأهل معصيته خاف وخف مرتحلا إلى الله والدار الآخرة وكان قبل ذلك مطمئنا إلى النفس ، والنفس إلى الشهوات والدنيا فلما انكشف عنه غطاء النفس خف وارتحل عن جوارها طالباً جوار العزيز الرحيم فى جنات النعيم ، ومن هنا صار كل خائف راجيا وكل راج خائفاً فأطلق اسم أحدهما على الآخر فان الراجى قلبه قريب الصفة من قلب الخائف هذا الراجى قد نحى قلبه عن مجاورة النفس والشيطان مرتحلا إلى الله قد رفع له من الجنة علم فشمر اليه وله مادا إليه قلبه كله ، وهذا الخائف فار من

جوارهما ملتجىء إلى الله من حبسه فى سجنها فى الدنيا فيحبس معها بعد الموت ويوم القيامة فإن المرء مع قرينه فى الدنيا والآخرة فلما سمع الوعيد ارتحل من مجاورة جار السوء فى الدارين فأعطى اسم الخائف ، ولما سمع الوعد امتد واستطار شوقا إليه وفرحا بالظفر به فأعطى اسم الراجى وحالاه متلازمان لاينفك عنهافكل راج خائف من فوات مايرجوه كما أن كل خائف راج أمنه مما يخاف ، فلذلك تداول الاسمان عليه قال تعالى (مالكم لاترجون لله وقارا) قالوا فى تفسيرها لاتخافون لله عظمة . وقد تقدم أن سبحانه طوى الرجاء إلا عن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا وقد فسر النبى صلى الله عليه وآله وسلم الإيمان بأنه ذو شعب وأعمال ظاهرة وباطنة وفسر الهجرة بأنها هجر مانهى الله عنه ، والجهاد بأنه جهاد النفس فى ذات الله فقال المهاجر من هجر مانهى الله عنه والمجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله والمقصود أن الله سبحانه جعل أهل الرجاء من آمن وهاجر وجاهد وأخرج من سواهم من هذه الأمم .

وأما الأمانى فإنها رءوس أموال المفاليس أخرجوها فى قالب الرجاء وتلك أمانيهم وهى تصدر من قلب تزاحمت عليه وساوس النفس فأظلم من دخانها فهو يستعمل قلبه فى شهواتها وكلما فعل ذلك منته حسن العاقبة والنجاة واحالته على العفو والمغفرة والفضل وان الكريم لايستوفى حقه ولاتضره الذنوب ولاتنقصه المغفرة ويسمى ذلك رجاء وإنما هو وسواس وأمانى باطلة تقذف بها النفس إلى القلب الجاهل فيستريح إليها قال تعالى (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزبه ولايجد له من دون الله ولياً ولانصيراً) فإذا ترك العبد ولاية الحق ونصرته ترك الله ولايته ونصرته ولم يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ، وإذا ترك ولايته ونصرته تولته نفسه والشيطان فصارا وليين له ووكل إلى نفسه فصار انتصاره لها بدلا من نصرة الله ورسوله فاستبدل بولاية الله ولاية نفسه وشيطانه وبنصرته نصرة نفسه وهواه فلم يدع للرجاء موضعاً . فاذا قالت لك النفس أنا فى مقام الرجاء فطالبها بالبرهان وقل هذه أمنية فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، فالكيس يعمل أعمال البر على الطمع والرجاء والأحمق العاجز يعطل أعمال البر ويتكل على الأمانى التى يسميها رجاء . والله الموفق .

فصل

والفرق بين التحدث بنعم الله والفخر بها أن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات ولها ومحض جوده وإحسانه فهو مثن عليه باظهارها والتحدث بها شاكراً له ناشراً لجميع ماأولاه مقصوده بذلك إظهار صفات الله ومدحه والثناء وبعث النفس على الطلب منه دون غيره وعلى محبته ورجائه فيكون راغباً إلى الله باظهار نعمه ونشرها والتحدث بها .

وأما الفخر بالنعم فهو أن يستطيل بها على الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر ، فيركب أعناقهم ويستعبد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة قال النعمان بن بشير إن الشيطان مصالى[1] ونخوخاً وإن من مصاليه ونخوخه البطش بنعم الله والكبر على عباد الله والفخر بعطية الله والهون فى غير ذات الله .

فصـــل

والفرق بين فرح القلب وفرح النفس ظاهر فان الفرح بالله ومعرفته ومحبته وكلامه من القلب قال تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) فاذا كان أهل الكتاب يفرحون بالوحى فأولياء الله وأتباع رسوله أحق بالفرح به وقال تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون) وقال تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) قال أبو سعيد الخدرى فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله وقال هلال بن يساف فضل الله ورحمته الإسلام الذى هداكم إليه والقرآن الذى علكم هو خير من الذهب والفضة الذى تجمعون . وقال ابن عباس والحسن وقتادة وجمهور المفسرين فضل الله الإسلام ورحمته القرآن ، فهذا فرح القلب وهو من الإيمان ويثاب عليه العبد فان فرحه به يدل على رضاه به بل هو فوق الرضا فالفرح بذلك على قدر محبته فإن الفرح إنما يكون بالظفر بالمحبوب وعلى قدر محبته يفرح بحصوله له فالفرح بالله وأسمائه وصفاته ورسوله وسنته وكلامه محض الإيمان وصفوته ولبه وله عبودية عجيبة وأثر فى القلب لا يعبر عنه فابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه أفضل مايعطاه بل هو جل عطاياه ، والفرح فى الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبته فى الدنيا ، فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها ، فهذا شأن فرح القلب ، وله فرح آخر وهو فرحه بما من الله به عليه من معاملته والإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه به وكلما تمكن فى ذلك قوى فرحه وابتهاجه ، وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن وهى الفرحة التى تحصل له بالتوبة فإن لها فرحة عجيبة لانسبة لفرحة المعصية إليها البتة ، فلو علم العاصى أن لذة التوبة وفرحتها يزيد على لذة المعصية[2] وفرحتها أضعافا مضاعفة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية .

---

[1] جمع مصلاه أى شرك «بفتحتين» كما فى النهاية .

[2] هذه هى لذة النفس التى تقابل لذة القلب .

وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يقدر ، ولقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلا ليس فى أنواع الفرح فى الدنيا أعظم منه وهو فرح رجل قد خرج براحلته التى عليها طعامه وشرابه فى سفر ففقدها فى أرض دوية مهلكة فاجتهد فى طلبها فلم يجدها فيئس منها فجلس ينتظر الموت حتى إذا طلع البدر رأى فى ضوئه راحلته وقد تعلق زمامها بشجرة فقال من شدة فرحه اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته .

فلا ينكر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة ولكن هاهنا أمر يجب التنبية عليه وهو أن لا يصل إلى ذلك إلا بعد ترحات ومضض ومحن لا تثبت لها الجبال فإن صبر لها ظفر بلذة الفرح وإن ضعف عن حملها ولم يصبر لها لم يظفر بشىء وآخر أمره فوات ما آثره من فرحة المعصية ولذتها فيفوته الأمران ويحصل على ضد اللذة من الألم المركب من وجود المؤذى وفوت المحبوب فالحكم لله العلى الكبير .

فصـــل

وهاهنا فرحة أعظم من هذا كله وهى فرحته عند مفارقته الدنيا إلى الله إذا أرسل إليه الملائكة فبشروه بلقائه وقال له ملك الموت أخرجى أيتها الروح الطيبة كانت فى الجسد الطيب أبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان ، اخرجى راضية مرضيا عنك (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) فلو لم يكن بين يدى التائب إلا هذه الفرحة وحـــدها لكان العقل يأمر بإيثارها فكيف ومن بعدها أنواع من الفرح منها الملائكة الذين بين السماء والأرض على روحه ، ومنها فتح ابواب السماء لها وصلاة ملائكة السماء عليها وتشييع مقربيها لها إلى السماء الثانية فتفتح ويصلى عليها أهلها ويشيعها مقربوها هكذا إلى السماء السابعة فكيف يقدر فرحها وقد استؤذن لها على ربها ووليها وحبيبها فوقفت بين يديه واذن لها بالسجود فسجدت ثم سمعته سبحانه يقول اكتبوا كتابه فى علبين ثم يذهب به فيرى الجنة ومقعده فيها وما أعد الله له ويلقى أصحابه وأهله فيستبشرون به ويفرحون به ويفرح بهم فرح الغائب يقدم على أهله فيجدهم على أحسن حال ويقدم عليهم بخير ما قدم به مسافر هذا كله قبل الفرج الأكبر يوم حشر الأجساد بجلوسه فى ظل العرش وشربه من الحوض وأخذه كتابه بيمينه وثقل ميزانه وبياض وجهه واعطائه النور التام والناس فى الظلمة وقطعه جسر جهنم بلا تعويق وانتهائه إلى باب الجنة وقد أزلفت له فى الموقف وتلقى خزنتها له بالترحيب والسلام والبشارة وقدومه على منـــازله وقصوره وأزواجه وسراريه .

وبعد ذلك فرح آخر لايقدر قدره ولا يعبر عنه تتلاشى هذه الأفراح كلها عنده وإنما يكون هذا لاهل السنة المصدقين برؤية وجه ربهم تبارك وتعالى من فوقهم وسلامه عليهم وتكليمه اياهم ومحاضرته لهم :

وليست هذه الفرحات الا ... لذى الترحات فى دار الرزايا
فشمر ما استطعت الساق واجهد ... لعلك أن تفوز بذى العطايا
وصم عن لذة حشيت بلاء ... المذات خلصن من البلايا
ودع أمنية إن لم تنلها ... تعذب أو تنل كانت منايا
ولا تستبطئ وعدا من رسول ... أتى بالحق من رب البرايا
فهذا الوعـــد أدنى من نعيم ... مضى بالأمس لو وفقت رايا

فصـــل

والفرق بين رقة القلب والجزع أن الجزع ضعف فى النفس وخوف فى القلب يمده شدة الطمع والحرص ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر وإلا فمتى علم أن المقدر كائن ولا بد كان الجزع عناء محضا ومصيبة ثانية قال تعالى (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم) فمتى آمن العبد بالقدر وعلم أن المصيبة مقدرة فى الحاضر والغائب لم يجزع ولم يفرح.

ولا ينافى هذا رقة القلب فانها ناشئة من صفة الرحمة التى هى كمال والله سبحانه إنما يرحم من عباده الرحماء وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرق الناس قلبا وأبعدهم من الجزع ، فرقة القلب رأفة ورحمة ، وجزعه مرض وضعف ، فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الامارة فأخذ بأنفاسه وضيق عليه مسالك الآخرة وصار فى سجن الهوى والنفس وهو سجن ضيق الأرجاء مظلم المسلك فانحصار القلب وضيقه يجزع من أدنى مايصيبه ولايحتمله فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد وامتلأ من محبة الله واجلاله رق وصارت فيه الرأفة والرحمة فتراه رحيما رفيق القلب بكل ذى قربى ومسلم يرحم النملة فى جحرها والطير فى وكره فضلا عن بنى جنسه فهذا أقرب القلوب من الله قال أنس كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرحم الناس بالعيال . والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبداً اسكن فى قلبه الرأفة والرحمة وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة وأبدله بهما الغلظة والقسوة وفى الحديث الثابت لاتنزع الرحمة إلا من شقى ، وفيه من لايرحم لايرحم ، وفيه ارحموا من فى الأرض

يرحكم من فى السماء ، وفيه أهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق ، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال . والصديق رضى الله عنه إنما فضل الأمة بما كان فى قلبه من الرحمة العامة زيادة على الصديقية ولهذا أظهر أثرها فى جميع مقدماته حتى فى الأسارى يوم بدر واستقر الأمر على ما أشار به وضرب له صلى الله عليه وآله وسلم مثلا بعيسى وإبراهيم ، والرب تعالى هو الرءوف الرحيم وأقرب الخلق إليه وأعظمهم رأفة ورحمة كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته وهذا باب لا يلجه إلا الأفراد فى العالم .

فصـــل

والفرق بين الموجدة والحقد أن الوجد الاحساس بالمؤلم والعلم به وتحرك النفس فى رفعه فهو كمال . وأما الحقد فهو إضمار الشر وتوقعه كل وقت فيمن وجدت عليه فلا يزايل القلب أثره .

وفرق آخر وهو أن الموجدة لما ينالك منه ، والحقد لما يناله منك ؛ فالموجدة وجود ما نالك من أذاه ، والحقد توقع وجود ما يناله من المقابلة ؛ فالموجدة سريعة الزوال والحقد بطىء الزوال ، والحقد يجىء مع ضيق القلب واستيلاء ظلمة النفس ودخانها عليه ، بخلاف الموجدة فإنها تكون مع قوته وصلابته وقوة نوره وإحساسه .

فصـــل

والفرق بين المنافسة والحسد أن المنافسة المبادرة إلى الكمال الذى تشاهد من غيرك فتنافسه فيه حتى تلحقه أو تجاوزه فهى من شرف النفس وعلو الهمة وكبر القدر قال تعالى (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) وأصلها من الشىء النفيس الذى تتعلق به النفوس طلباً ورغبة فينافس فيه كل من النفسين الأخرى وربما فرحت إذا شاركتها فيه كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتنافسون فى الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه بل يحض بعضهم بعضا عليه مع تنافسهم فيه وهى نوع من المسابقة وقد قال تعالى (فاستبقوا الخيرات) وقال تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء) وكان عمر بن الخطاب يسابق أبا بكر رضى الله عنهما فلم يظفر بسبقه أبداً فلما علم أنه قد استولى على الإمامة قال والله لا أسابقك إلى شىء أبدا وقال والله ما سبقته إلى خير إلا وجدته قد سبقنى اليه . والمتنافسان كعبدين بين يدى سيدهما يتباريان ويتنافسان فى مرضاته ويتسابقان إلى محابه ، فسيدهما يعجبه ذلك منهما ويحثهما عليه وكل منهما يحب الآخر ويحرضه على مرضاة سيده .

والحسد خلق نفس ذميمة وضيعة ساقطة ليس فيها حرص على الخير فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها وتتمنى أن لوفاته كسبها حتى يساويها فى العدم كما قال تعالى (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) وقال تعالى (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق) فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه فهو ينافس غيره أن يعلو عليه ويحب لحاقه به أو مجاوزته له فى الفضل والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه فى النقصان وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة تنتفع بالمنافسة فمن جعل نصب عينيه شخصاً من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيراً فانه يتشبه به ويطلب اللحاق به والتقدم عليه وهذا لاذمه ، وقد يطلق اسم الحسد على المنافسة المحمودة كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لاحسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، فهذا حسد منافسة وغبطة يدل على علو همة صاحبه وكبر نفسه وطلبها للتشبه بأهل الفضل .

فصل

والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعى فى حظها فان الناصح لله المعظم له المحب له يحب أن يطاع ربه فلا يعصى وأن تكون كلمته هى العليا وأن يكون الدين كله لله وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه فقد ناصح الله فى عبوديته وناصح خلقه فى الدعوة إلى الله فهو يحب الإمامة فى الدين بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين أما مايقتدى به المتقون كما اقتدى هو بالمتقين فاذا أحب هذا العبد الداعى إلى الله أن يكون فى أعينهم جليلا وفى قلوبهم مهيباً واليهم حبيبا وأن يكون فيهم مطاعا لكى يأتموا به ويقتفوا أثر الرسول على يده لم يضره ذلك بل يحمد عليه لأنه داع إلى الله يحب أن يطاع ويعبد ويوحد فهو يحب ما يكون عونا على ذلك موصلا اليه ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه وأثنى عليهم فى تنزيله وأحسن جزاءهم يوم لقائه فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ثم قال (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما) فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته فان الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة فإنما سألوه ما يعانون به المتقين على مرضاته وطاعته وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة فى الدين التى أساسها الصبر واليقين كما قال تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا

بآياتنا يوقنون) وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويعين عليهم بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهراً وباطنا التي لاتتم الإمامة إلى بها ، وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمه الرحمن جلاجلاله ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته ، وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف وهي المنازل العالية في الجنة لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية بل من أعلى مرتبة يعطاها العبد في الدين كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة .

وهذا بخلاف طلب الرياسة فان طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض وتعبد القلوب لهم وميلها إليهم ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم فترتب على هذا المطلب من المفاسد مالا يعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس دون حق الله وتعظيم من حقره الله واحتقار من أكرمه الله ولاتتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك ولاتنال إلا به وبأضعافه من المفاسد والرؤساء في عمى عن هذا فاذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه ولاسيما إذا حشروا في صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم وتحقيراً وتصغيراً كما صغروا أمر الله وحقروا عباده .

فصل

والفرق بين الحب في الله والحب مع الله وهذا من أهم الفروق وكل أحد محتاج بل مضطر إلى الفرق بين هذا وهذا ، فالحب في الله هو من كمال الإيمان والحب مع الله هو عين الشرك والفرق بينهما أن المحب في الحب تابع لمحبة الله فاذا تمكنت محبته من قلب العبد أوجبت تلك المحبة أن يحب مايحبه الله فاذا أحب ما أحبه ربه ووليه كان ذلك الحب له وفيه كما يحب رسله وأنبياءه وملائكته وأولياءه لكونه تعالى يحبهم ، ويبغض من يبغضهم لكونه تعالى يبغضهم وعلامة هذا الحب والبغض في الله أنه لاينقلب بغضه لبغيض الله حباً لاحسانه إليه وخدمته له وقضاء حوائجه ، ولاينقلب حبه لحبيب الله بغضاً إذا وصل إليه من جهته مايكرهه ويؤلمه إما خطأ وإما عمداً مطيعاً لله فيه أو متأولا أو مجتهداً أو باغياً نازعاً تائباً والدين كله يدور على أربع قواعد حب وبغض ويترتب عليهما فعل وترك فمن كان حبه وبغضه وفعله وتركه لله فقد استكمل الإيمان بحيث إذا أحب أحب لله وإذا أبغض أبغض لله وإذا فعل فعل لله وإذا ترك ترك لله ، وما نقص من أصنافه هذه الأربعة نقص من إيمانه ودينه بحسبه . وهذا بخلاف الحب مع الله فهو نوعان يقدح في أصل التوحيد وهو شرك ونوع يقدح في كماله الإخلاص ومحبة الله ولايخرج من الإسلام .

(فالأول) كمحبة المشركين لأوثانهم وأندادهم قال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم وآلهتهم مع الله كما يحبون الله فهذه محبة تأله وموالاة يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء وهذه المحبة هى محض الشرك الذى لايغفره الله . ولا يتم الإيمان إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها ومعاداتهم ومحاربتهم وبذلك أرسل الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه وفى مرضاته فكل من عبد شيئاً من لدن عرشه إلى قرار أرضه فقد اتخذ من دون الله إلها ووليا وأشرك به كائنا ذلك المعبود ما كان ولابد أن يتبرأ منه أحوج ما كان إليه .

(والنوع الثانى) محبة مازينه الله للنفوس من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث فيحبها محبة شهوة كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء فهذه المحبة ثلاثة أنواع فان أحبها لله توصلا بها اليه واستعانة على مرضاته وطاعته أثيب عليها وكانت من قسم الحب لله توصلا بها اليه ويلتذ بالتمتع بها وهذا حاله أكمل الخلق الذ حبب اليه من الدنيا النساء والطيب وكانت محبته لها عونا له على محبة الله وتبليغ رسالته والقيام بأمره، وإن أحبها لموافقة طبعه وهواه وإراءته ولم يؤثرها على ما يحبه الله ويرضاه بل نالها بحكم الميل الطبيعى كانت من قسم المباحات ولم يعاقب على ذلك ولكن ينقص من كمال محبته لله والمحبة فيه وإن كانت هى مقصوده ومراده وسعيه فى تحصيلها والظفر بها وقدمها على مايحبه الله ويرضاه منه كان ظالماً لنفسه متبعاً لهواه .

(فالأولى) محبة السابقين .

(والثانية) محبة المقتصدين .

(والثالثة) محبة الظالمين .

فتأمل هذا الموضع وما فيه من الجمع والفرق فانه معترك النفس الأمارة والمطمئنة . والمهدى من هداه الله .

فصل

والفرق بين التوكل والعجز أن التوكل عمل القلب وعبوديته اعتماداً على الله وثقة به والتجاء إليه وتفويضاً إليه ورضا بما يقضيه له لعلمه بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده فى تحصيلها فقد كان رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم أعظم المتوكلين وكان يلبس لامته ودرعه بل ظاهر يوم أحد بين درعين واختفى فى الغار ثلاثاً فكان متوكلا فى السبب لا على السبب .

وأما العجز فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما فإما أن يعطل السبب عجزاً منه ويزعم أن ذلك توكل ولعمر الله إنه لعجز وتفريط وإما أن يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه غافلا عن المسبب معرضاً عنه وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر ولم يعلق قلبه به تعلقاً تاماً بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب فهذا توكله عجز وعجزه توكل .

وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطا (فأحد الطرفين) عطل الأسباب محافظة على التوكل .

(والثانى) عطل التوكل محافظة على السبب (والوسط) علم أن حقيقة التوكل لايتم إلا بالقيام بالسبب فتوكل على الله فى نفس السبب ، وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور مخدوع متعن كمن عطل النكاح والتسرى وتوكل فى حصول الولد ، وعطل الحرث والبذر وتوكل في حصول الزرع ، وعطل الأكل والشرب وتوكل فى حصول الشبع والرى فالتوكل نظير الرجاء ، والعجز نظير التمنى فحقيقة التوكل أن يتخذ العبد ربه وكيلا له قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله العالم بكفايته نهضته ونصحه وأمانته وخبرته وحسن اختياره والرب سبحانه قد أمر عبده بالاحتيال وتوكل له أن يستخرج له من حيلته مايصلحه فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه فى ضمان ذلك كما قدره سبحانه ودبره واقتضته حكمته وأمره أن لايعلق قلبه بغيره بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه وأخبره أنه سبحانه الملى بالوكالة الوفى بالكفالة فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره وقعد كسلان طالباً للراحة مؤثراً للدعة يقول الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله وسيأتينى ما قدر لى على ضعفى ولن أنال مالم يقدر لى مع قوتى ولو أنى هربت من رزقى كما أهرب من الموت للحقنى فيقال له نعم هذا كله حق وقد علمت أن الرزق مقدر فما يدريك كيف قدر لك ، بسعيك أم بسعى غيرك ، وإذا كان بسعيك فبأى سبب ومن أى وجه ، وإذا خفى عليك هذا كله فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفوا بلاسعى ولا كد فكم من شىء سعيت فيه فقدر لغيرك وكم من شىء سعى فيه غيرك فقدر لك رزقاً ! فاذا رأيت هذا عياناً فكيف علمت أن رزقك كله بسعى غيرك ؟ وأيضاً فهذا الذى أوردته عليك النفس يجب عليك طرده فى جميع الأسباب مع مسبباتها حتى فى أسباب دخول الجنة والنجاة من النار فهل تعطلها اعتماداً على التوكل أم تقوم بها مع التوكل ؟ بل لن تخلو الأرض من متوكل صبر نفسه لله وملأ قلبه من الثقة به ورجائه وحسن الظن به فضاق قلبه مع ذلك عن مباشرة بعض الأسباب فسكن قلبه إلى الله واطمأن

إليه ووثق به وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه فلم يعطل السبب وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه فكان توكله أوثق الأسباب عنده ، فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه وتضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك أو من كماله فلم يتسع قلبه للأمرين فأعرض أحدهما إلى الآخر ولاريب أن هذا أكمل حالا ممن امتلأ قلبه بالسبب واشتغل به عن ربه وأكمل منهما من جمع الأمرين وهي حال الرسل والصحابة فقد كان زكريا نجاراً وقد أمر الله نوحاً أن يصنع السفينة ولم يكن فى الصحابة من يعطل السبب اعتماداً على التوكل بل كانوا أقوم الناس بالأمرين ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم فى محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم وقاموا فى ذلك بحقيقة التوكل وعمروا أموالهم وأصلحوها وأعدوا لأهليهم كفايتهم من القوت اقتداء بسيد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه وآله .

فصـــل

والفرق بين الاحتياط والوسوسة ان الاحتياط الاستقصاء والمبالغة فى اتباع السنة وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من غير غلو ومجاوزة ولا تقصير ولا تفريط فهذا هو الاحتياط الذى يرضاه الله ورسوله ، وأما الوسوسة فهى ابتداع مالم تأت به السنة ولم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أحد من الصحابة زاعماً أنه يصل بذلك إلى تحصيل المشروع وضبطه كمن يحتاط بزعمه ويغسل أعضاءه فى الوضوء فوق الثلاثة فيسرف فى صب الماء فى وضوئه وغسله ويصرح بالتلفظ بنية الصلاة مراراً أو مرة واحدة ويغسل ثيابه مما لا يتيقن نجاسته احتياطاً ويرغب عن الصلاة فى نعله احتياطاً إلى أضعاف أضعاف هذا مما اتخذه الموسوسون دينا وزعموا أنه احتياط وقد كان الاحتياط باتباع هدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما كان عليه أولى بهم فانه الاحتياط الذى من خرج عنه فقد فارق الاحتياط وعدل عن سواء الصراط والاحتياط كل الاحتياط الخروج عن خلاف السنة ولو خالفت أكثر أهل الأرض بل كلهم .

فصـــل

والفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه (منها) أن ما كان لله موافقا لمرضاته وماجاء به رسوله فهو من الملك وما كان لغيره غير موافق لمرضاته فهو من إلقاء الشيطان (ومنها) أن ما أثمر إقبالا على الله وإنابة اليه وذكراً له وهمة صاعدة اليه فهو من القاء الملك وما أثمر ضد ذلك فهو من القـــاء الشيطان (ومنها) أن ما أورث أنساً ونوراً فى القلب وانشراحا فى الصدر فهو من الملك وما أورث ضد ذلك فهو من الشيطان (ومنها) أن ما أورث

سكينة وطمأنينة فهو من الملك وما أورث قلقاً وانزعاجاً واضطراباً فهو من الشيطان (فالإلهام الملكى) يكثر فى القلوب الطاهرة النقية التى قد استنارت بنور الله فللملك بها اتصال وبينه وبينها مناسبة فانه طيب طاهر لايجاور إلا قلباً يناسبه فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان ، وأما القلب المظلم الذى قد اسود بدخان الشهوات والشبهات فالقاء الشيطان ولمته به أكثر من لمة الملك .

فصـــل

والفرق بين الاقتصاد والتقصير أن الاقتصاد هو التوسط بين طرفى الافراط والتفريط وله طرفان هما ضدان له تقصير ومجاوزة فالمقتصد قد أخذ بالوسط وعدل عن الطرفين قال تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) وقال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) وقال تعالى (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) والدين كله بين هذين الطرفين بل الإسلام قصد بين الملل والسنة قصد بين البدع ودين الله بين الغالى فيه والجافى عنه وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد فى موافقة الأمر ، والغلو مجاوزته وتعديه وما أمر الله بأمر إلا والشيطان فيه نزغتان فاما إلى غلو ومجاوزة وإما إلى تفريط وتقصير وهما آفتان لايخلص منهما فى الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشى خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به لا من ترك ماجاء به لاقوالهم وآرائهم وهذا أن المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بنى آدم ولهذا حذر السلف منهما أشد التحذير وخوفوا من بلى بأحدهما بالهلاك وقد يجتمعان فى الشخص الواحد كما هو حال أكثر الخلق يكون مقصراً مفرطاً فى بعض دينه غالياً متجاوزاً فى بعضه والمهدى من هداه الله .

فصـــل

والفرق بين النصيحة والتأنيب أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعليه فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه فيتلطف فى بذلها غاية التلطف ويحتمل أذى المنصوح ولائمته ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق للمريض المشرع مرضاً وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته ويتلطف فى وصول الدواء إليه بكل ممكن فهذا شأن الناصح .

وأما المؤنب فهو رجل قصده التعيير والإهانة وذم من أنبه وشتمه فى صورة النصح فهو يقول له يافاعل كذا وكذا يامستحقاً للذم والاهانه فى صورة ناصح مشفق ، وعلامة هذا أنه

لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هـــذا أو شر منه لم يعرض له ولم يقل له شيئا ويطلب له وجوه المعاذير فإن غلب قال وإنى ضمنت له العصمة والإنسان عرضة للخطأ ومحاسنه أكثر من مساويه والله غفور رحيم ونحو ذلك فيا عجبا كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه وكيف كان حظ ذلك منك التـأنيب فى صورة النصح وحظ هـذا منك رجاء العفو والمغفرة وطلب وجوه المعاذير .

ومن الفروق بين الناصح والمؤنب أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل نصيحته وقال قد وقع أجرى على الله قبلت أو لم تقبل ويدعو لك بظهر الغيب ولا يذكر عيوبك ولا يبينها فى الناس، والمؤنب بعد ذلك .

فصـــل

والفرق بين المبادرة والعجلة أن المبادرة انتهاز الفرصة فى وقتهـا ولا يتركها حتى إذا فاتت طلبها فهو لا يطلب الأمور فى أدبارها ولا قبل وقتها بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة وقت كمال نضـــلها وإدراكها .

والعجلة طلب أخذ الشيء قبل وقته فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها فالمبادرة وسط بين خلقين مذمومين أحدهما التفريط والإضاعة والثانى الاستعجال قبل الوقت . ولهذا كانت العجلة من الشيطان فإنها خفة وطيش وحدة فى العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم وتوجب له وضع الأشياء فى غـــير مواضعها وتجلب عليه أنواعا من الشرور وتمنعه أنواعا من الخير وهى قرين الندامة فقل من استعجل إلا ندم كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة .

فصـــل

والفرق بين الاخبار بالحال وبين الشكوى وان اشتبهت صورتهما أن الاخبار بالحال يقصد المخبر به قصداً صحيحاً من علم سبب إدانته أو الاعتذار لأخيه من أمر طلبه منه أو يحذره من الوقوع فى مثل ما وقع فيه فيكون ناصحاً بإخباره له أو حمله على الصبر بالتأسى به كما يذكر عن الأحنف أنه شكا إليه رجل شكوى فقال يا ابن أخى لقد ذهب ضوء عينى من كذا وكذا سنة فما أعلمت به أحداً ففى ضمن هـــذا الاخبار من حمل الشاكى على التأسى والصبر ما يثاب عليه المخبر وصورته صورة الشكوى ولكن القصد ميز بينهما ، ولعل من هذا قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما قالت عائشة وارأساه فقال بل أنا وارأساه أى الوجع القوى بى

أنا دونك فتأسى بى فلا تشتكى ، ويلوح لى فيه معنى آخر وهو أنها كانت حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل كانت أحب النساء إليه على الاطلاق فلما اشتكت إليه رأسها أخبرها أن بمحبها من الألم مثل الذى بها وهذا غاية الموافقة من المحب ومحبوبه يتألم بتألمه ويسر بسروره حتى إذا آلمه عضو من أعضائه آلم المحب ذلك العضو بعينه وهذا من صدق المحبة وصفاء المودة فالمعنى الأول يفهم انك لا تشتكى واصبرى فبى من الوجع مثل ما بك فتأسى بى فى الصبر وعدم الشكوى . والمعنى الثانى يفهم اعلامها بصدق محبته لها أى انظرى قوة محبتى لك كيف واسيتك فى ألمك ووجع رأسك فلم تكونى متوجعة وأنا سليم من الوجع بل يؤلمنى ما يؤلمك كما يسرنى ما يسرك كما قيل :

وان أولى البرايا أن تواسيه عند السرور الذى واساك فى الحزن

وأما الشكوى فالاخبار العارى عن القصد الصحيح بل يكون مصدره السخط وشكاية المبتلى إلى غيره فان شكا إليه سبحانه وتعالى لم يكن ذلك شكوى بل استعطاف وتملق واسترحام له كقول أيوب (ربى أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) وقول يعقوب (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) وقول موسى : اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك ، وقول سيد ولد آدم اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى غير أن عافيتك أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك أو ينزل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك فالشكوى إلى الله سبحانه لا تنافى الصبر بوجه فإن الله تعالى قال عن أيوب (إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) مع اخباره عنه بالشكوى اليه فى قوله (مسنى الضر) وأخبر عن نبيه يعقوب أنه وعد من نفسه بالصبر الجميل والنبى إذا قال وفى مع قوله (إنما اشكو بثى وحزنى إلى الله) ولم يجعل ذلك نقصا لصبره . ولا يلتفت إلى غير هذا من ترهات القوم كما قال بعضهم لما قال (مسنى الضر) قال تعالى (إنا وجدناه صابراً) ولم يقل صبوراً حيث قال مسنى الضر ، وقال بعضهم لم يقل ارحمنى وإنما قال أنت أرحم الراحمين فلم يزد على الاخبار بحاله ووصف ربه ، وقال بعضهم إنما شكا مس الضر حين ضعف لسانه عن الذكر فشكا مس ضر ضعف الذكر لا ضر المرض والألم ، وقال بعضهم استخرج منه هذا القول ليكون قدوة للضعفاء من هذه الأمة ، وكأن هذا القائل رأى أن الشكوى إلى الله تنافى الصبر وغلط أقبح الغلط فالمنافى للصبر شكواه لا الشكوى اليه فالله يبتلى عبده ليسمع تضرعه ودعاءه والشكوى اليه ولا يحب التجلد عليه

وأحب ما اليه انكسار قلب عبده بين يديه وتذلله له واظهار ضعفه وفاقته وعجزه وقلة صبره فاحذر كل الحذر من إظهار التجلد عليه وعليك بالتضرع والتمسكن وإبداء العجز والفاقة والذل والضعف فرحمته أقرب إلى هذا القلب من اليد للفم .

فصـــل

وهذا باب من الفروق مطول ولعل إن ساعد القدر أن نفرد فيه كتابا كبيراً وإنما نبهنا بما ذكرنا على أصوله واللبيب يكتفى ببعض ذلك والدين كله فرق وكتاب الله فرقان ومحمد صلى الله عليه وآله وســـلم فرق بين الناس ومن اتقى الله جعل له فرقانا (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) وسمى يوم بدر يوم الفرقان لأنه فرق بين أولياء الله وأعدائه فالهدى كله فرقان ، والضلال أصله الجمع كما جمع المشركون بين عبادة الله وعبادة الأوثان ومحبته ومحبة الأوثان وبين مايحبه ويرضاه وبين ماقدره وقضاه فجعلوا الأمر واحد واستدلوا بقضائه وقدره على محبته ورضاه وجمعوا بين الربا والبيع فقالوا (إنما البيع مثل الربا) وجمعوا بين المذكى والميتة وقالوا كيف نأكل ماقتلنا ولانأكل ماقتل الله ، وجمع المنسلخون عن الشرائع بين الحلال والحرام فقالوا هذه المرأة خلقها الله وهذه خلقها وهذا الحيوان خلقه وهذا خلقه فكيف يحل هذا ويحرم هذا ؟ وجمعوا بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وجاءت طائفة الاتحادية فطموا الوادى على القرى وجمعوا الكل فى ذات واحدة وقالوا هى الله الذى لا إله إلا هو وقال صاحب فصوصهم وواضع نصوصهم واعلم أن الأمر قرآنا لافرقانا :

ما الأمر الا نسق واحد ما فيه من مدح ولا ذم
وإنما العادة قد خصصت والطبع والشارع بالحكم

والمقصود أن أرباب البصائر هم أصحاب الفرقان فأعظم الناس فرقانا بين المشتبهات أعظم الناس بصيرة . والتشابه يقع فى الأقوال والأعمال والأحوال والأموال والرجال وإنما أتى أكثر أهل العلم من المتشابهات فى ذلك كله ولايحصل الفرقان إلا بنور يقذفه الله فى قلب من يشاء من عباده يرى فى ضوئه حقائق الأمور ويميز بين حقها وباطلها وصحيحها وسقيمها (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) ولانستطل هذا الفصل فلعله من أنفع فصول الكتاب والحاجة إليه شديدة فان رزقك الله فيه بصيرة خرجت منه إلى فرقان أعظم منه وهو الفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين والفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه أهل التعطيل ، والفرق بين إثبات الصفات والعـــلو والتكلم والتكليم حقيقة وبين التشبيه والتمثيل ، والفرق بين تحريف

التوحيد العملى الإرادى وبين هضم أرباب المراتب مراتبهم التى أنزلهم الله إياها ، والفرق بين تجريد متابعة المعصوم وبين إهدار أقوال العلماء وإلغائها وعدم الإلتفات إليها ، والفرق بين تقليد العالم وبين الاستضاءة بنور علمه والاستعانة بفهمه والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، والفرق بين الحال الإيمانى الرحمانى والحال الشيطانى الكفرى والحال النفسانى ، والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع على كل واحد والحكم المؤول الذى نهايته أن يكون جائز الإتباع عند الضرورة ولا درك على مخالفه .

فصـــل

ونحن نختم الكتاب بإشارة لطيفة إلى الفروق بين هذه الأمور إذ كل فرق منها يستدعى بسطه كتاباً كبيراً فالفرق بين توحيد المرسلين وتوحيد المعطلين أن توحيد الرسل إثبات صفات الكمال لله على وجه التفصيل وعبادته وحده لاشريك له فلا يجعل له نداً فى قصـــد ولا حب ولا خوف ولا رجاء ولا لفظ ولا حلف ولا نذر بل يرفع العبد الاندداد له من قلبه وقصده ولسانه وعبادته كما أنها معدومة فى نفس الأمر لا وجود لها البتة فلا يجعل لها وجوداً فى قلبه ولسانه .

وأما توحيد المعطلين فنفى حقائق أسمائه وصفاته وتعطيلها ومن أمكنه منهم تعطيلها من لسانه عطلها فلا يذكرها ولا يذكر آية تتضمنها ولا حديثاً يصرح بشىء منهـــا ومن لم يمكنه تعطيل ذكرها سطا عليها بالتحريف ونفى حقيقتها وجعلها اسما فارغا لامعنى له أو معناه من جنس الألغاز والاحاجى على أن من طرد تعطيله منهم على أنه يلزمه فى ماحرف اليه النص من المعنى نظير مافر منه سواء فان لزم تمثيل أو تشبيه أو حدوث فى الحقيقة لزم فى المعنى الذى حمل عليه النص وان لا يلزم فى هذا فهو أولى أن لا يلزم فى الحقيقة فلما علم هذا لم يمكنه إلا تعطيل الجميع فهذا طرد لأصل التعطيل والفرق أقرب منه ولكنه مناقض يتحكم بالباطل حيث أثبت لله بعض ما أثبته لنفسه ونفى عنه البعض الآخر واللازم الباطل فيهما واحد واللازم الحق لا يفرق بينهما .

والمقصود أنهم سموا هذا التعطيل توحيداً وإنما هو إلحاد فى أسماء الرب تعالى وصفاته وتعطيل لحقائقها .

فصـــل

والفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة أن الرسل نزهوه سبحانه عن النقائص والعيوب التى نزه نفسه عنها وهى المنافية لكماله وكمال ربوبيته وعظمته كالسنة والنوم والغفلة والموت

واللغوب والظلم وإرادته والتسمي به والشريك والصاحبة والظهير والولد والشفيع بدون إذنه وأن يترك عباده سدى هملا وأن يكون خلقهم عبثاً وأن يكون خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا لا لثواب ولا عقاب ولا أمر ولا نهي وأن يسوى بين أوليائه وأعدائه وبين الأبرار والفجار وبين الكفار والمؤمنين وأن يكون في ملكه مالا يشاء وأن يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه وأن يكون لغيره معه من الأمر شيء وأن يعرض له غفلة أو سهو أو نسيان وأن يخلف وعده أو تبدل كلماته أو يضاف إليه الشر اسما أو وصفاً أو فعلا بل أسماءه كلها حسنى وصفاته كلها كمال وأفعاله كلها خير وحكمة ومصلحة ، فهذا تنزيه الرسل لربهم .

وأما المعطلون فنزهوه عما وصف به نفسه من الكمال فنزهوه عن أن يتكلم أو يكلم أحداً ونزهوه عن استوائه على عرشه وأن ترفع إليه الأيدي وأن يصعد إليه الكلم الطيب وأن ينزل من عنده شيء أو تعرج اليه الملائكة والروح وأن يكون فوق عباده وفوق جميع مخلوقاته عالياً عليها ، ونزهوه أن يقبض السموات بيده والأرض باليد الأخرى وأن يمسك السموات على أصبع والأرض على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع ونزهوه أن يكون له وجه وأن يراه المؤمنون بأبصارهم في الجنة وأن يكلمهم ويسلم عليهم ويتجلى لهم ضاحكا وأن ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول من يستغفرني فأغفر له من يسألني فأعطيه فلا نزول عندهم ولا قول ، ونزهوه أن يفعل شيئا لشيء بل أفعاله لا لحكمة ولا لغرض مقصود ، ونزهوه أن يكون تام المشيئة نافذ الإرادة بل يشاء الشيء ويشاء عباده خلافه فيكون ما شاء العبد دون ما شاء الرب ، ولا يشاء الشيء فيكون مالا يشاء ويشاء مالا يكون ، وسموا هذا عدلا كما سموا ذلك التنزيه توحيداً ، ونزهوه عن أن يحب أو يحب ونزهوه عن الرأفة والرحمة والغضب والرضا ، ونزهه آخرون عن السمع والبصر ، وآخرون عن العلم . ونزهه آخرون عن الوجود فقالوا الذي فر إليه هؤلاء المنزهون من التشبيه والتمثيل يلزمنا في الوجود فيجب علينا أن ننزهه عنه فهذا تنزيه الملحدين والأول تنزيه المرسلين .

فصل

والفرق بين إثبات حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل ما قاله الإمام أحمد ومن وافقه من أئمة الهدى أن التشبيه والتمثيل أن تقول يد كيدي أو سمع كسمعي أو بصر كبصري ونحو ذلك ، وأما إذا قلت سمع وبصر ويد ووجه واستواء لا يماثل شيئاً من صفات المخلوقين بل بين الصفة والصفة من الفرق كما بين الموصوف والموصوف فأي تمثيل ههنا وأي تشبيه ولولا تلبيس الملحدين فمدار الحق الذي اتفقت عليه الرسل على أن يوصف الله بما وصف

به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل ، إثبات الصفات ونفى مشابهة المخلوقات فمن شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد حقائق ماوصف الله به نفسه فقد كفر ومن أثبت له حقائق الأسماء والصفات ونفى عنه مشابهة المخلوقات فقد هدى إلى صراط مستقيم .

فصـــل

والفرق بين تجريد التوحيد وبين هضم أرباب المراتب أن تجريد التوحيـــد أن لا يعطى المخلوق شيئاً من حق الخالق وخصائصه فلا يعبد ولا يصلى له ولا يسجد ولا يحلف باسمه ولا ينذر له ولا يتوكل عليه ولا يؤله ولا يقسم به على الله ولا يعبد ليقرب إلى الله زلفى ولا يساوى برب العالمين فى قول القائل ماشاء الله وشئت وهذا منك ومن الله وأنا بالله وبك وأنا متوكل على الله وعليك والله لى فى السماء وأنت فى الأرض وهذا من صـدقاتك وصدقات الله وأنا تائب إلى الله وإليك وأنا فى حسب الله وحسبك فيسجد للمخلوق كما يسجد المشركون لشيوخهم ، يحلق رأسه له ويحلف باسمه وينذر له ويسجد لقبره بعد موته ويستغيث به فى حوائجـــه ومهماته ويرضيه بسخط الله ولا يسخطه فى رضا الله ويتقرب إليه أعظم مما يتقرب إلى الله ويحبه ويخافه ويرجوه أكثر مما يحب الله ويخافه ويرجوه أو يساويه . فإذا هضم المخلوق خصائص الربوبيـة وأنزله منزلة العبد المحض الذى لا يملك لنفسه فضلا عن غيره ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا لم يكن هذا تنقصاً له ولا حطا من مرتبته ولو رغم المشركون وقد صح عن سيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه أنه قال لو تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورســـوله . وقال أيها الناس ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى ؛ وقال لا تتخذوا قبرى عيداً . وقال اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبـد وقال لا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد وقال له رجل ماشاء الله وشئت فقال أجعلتنى لله ندا ؟ وقال له رجل قد أذنب اللهم إنى أتوب اليك ولا أتوب إلى محمد ؛ فقال عرف الحق لأهله وقد قال الله له (ليس لك من الأمر شىء) وقال (قل إن الأمر كله لله) وقال (قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ماشاء الله) وقال (قل إنى لا أملك لنفسى ضراً ولا رشداً قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً) أى لن أجد من دونه من ألتجىء إليه وأعتمد عليه وقال لابنته فاطمة وعمه العباس وعمته صفية لا أملك لكم من الله شيئاً وفى لفظ فى الصحيح لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، فعظم ذلك على المشركين بشيوخهم وآلهتهم وأبوا ذلك كله وادعوا لشيوخهم ومعبوديهم خلاف هـذا كله وزعموا أن من سلبهم ذلك فقد هضمهم مراتبهم وتنقصهم ، وقد هضموا جانب الإلهية

غاية المضم وتنقصوه فلهم نصيب وافر من قوله تعالى (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) .

فصـــل

والفرق بين تجريد متابعة المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم وإهدار أقوال العلماء والغائها أن تجريد المتابعة أن لا تقدم على ماجاء به قول أحد ولا رأيه كائنا من كان بل تنظر فى صحة الحديث أولا فإذا صح لك نظرت فى معناه ثانياً فاذا تبين لك لم تعدل عنه ولو خالفك من بين المشرق المغرب ومعاذ الله أن تتفق الأمة على مخالفة ماجاء به نبيها بل لابد أن يكون فى الأمة من قال به ولو لم تعلمه فلا تجعل جهلك بالقائل به حجة على الله ورسوله بل اذهب إلى النص ولا تضعف واعلم أنه قد قال به قائل قطعاً ولكن لم يصل إليك ، هذا مع حفظ مراتب العلماء وموالاتهم واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم فى حفظ الدين وضبطه فهم دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة ولكن لا يوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها بشبهة أنه أعلم بها منك فان كان كذلك فمن ذهب إلى النص أعلم به منك فهلا وافقته إن كنت صادقا فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها وخالف منها ما خالف النص لم يهدر أقوالهم ولم يهضم جانبهم بل اقتدى بهم فانهم كلهم أمروا بذلك فتبعهم حقاً من امتثل ما أوصوا به لا من خالفهم فخلافهم فى القول الذى جاء النص بخلافه أسهل من مخالفتهم فى القاعدة الكلية التى أمروا ودعوا اليها من تقديم النص على أقوالهم ، ومن هنا يتبين الفرق بين تقليد العالم فى كل ماقال وبين الاستعانة بفهمه والاستضاءة بنور علمه، فالأول يأخذ قوله من غير نظر فيه ولا طلب لدليله من الكتاب والسنة بل يجعل ذلك كالحبل الذى يلقيه فى عنقه يقلده به ولذلك سمى تقليداً بخلاف ما استعان بفهمه واستضاء بنور علمه فى الوصول إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه فإنه يجعلهم بمنزلة الدليل إلى الدليل الأول فإذا وصل إليه استغنى بدلالته عن الاستدلال بغيره فمن استدل بالنجم على القبلة فإنه اذا شاهدها لم يبق لاستدلاله بالنجم معنى . قال الشافعى أجمع الناس على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد .

فصـــل

والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أن أولياء الرحمن (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) هم (الذين آمنوا وكانوا يتقون) وهم المذكورون فى أول سورة البقرة الى قوله (هم المفلحون) وفى وسطها فى قوله (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) الى قوله

(أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) وفى أول الأنفال إلى قوله (لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) وفى أول سورة المؤمنين إلى قوله (هم فيها خالدون) وفى آخر سورة الفرقان ، وفى قوله (إن المسلمين والمسلمات) إلى آخر الآية وفى قوله (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون) وفى قوله (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) وفى قوله (إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) إلى قوله (فى جنات مكرمون) وفى قوله (التائبون العابدون الحامدون) إلى آخر الآية .

فأولياء الرحمن هم المخلصون لربهم المحكمون لرسوله فى الحرم والحل الذين يخالفون غيره لسنته ولايخالفون سنته لغيرها فلا يبتدعون ولايدعون إلى بدعة ولايتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه ولايتخذون دينهم لهواً ولعباً ولا يستحبون سماع الشيطان على سماع القرآن ولايؤثرون صحبة الافتان على مرضاة الرحمن ولاالمعازف والمثانى على السبع المثانى :

برئنا إلى الله من معشر ... بهم مرض مورد للضنا
وكم قلت ياقوم أنتم على ... شفا جرف من سماع الغنا
فلما استهانوا بتنبيهنا ... تركنا غويا وما قد جنا
وهل يستجيب لداعى الهدى ... غوى اصار الغنا ديدنا ؟
فعشنا على ملة المصطفى ... وماتوا على تاتنا تنتنا

ولا يشتبه أولياء الرحمن بأولياء الشيطان إلا على فاقد البصيرة والإيمان وأنى يكون المعرضون عن كتابه وهدى رسوله وسنته المخالفون له إلى غيره أولياءه وقد ضربوا لمخالفته جاشا وعدلوا عن هدى نبيه وطريقته (وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لايعلمون)

فأولياء الرحمن المتلبسون بما يحبه وليهم الداعون إليه المحاربون لمن خرج عنه وأولياء الشيطان المتلبسون بما يحبه وليهم قولا وعملا يدعون إليه ويحاربون من نهاهم عنه . فإذا رأيت الرجل يحب السماع الشيطانى ومؤذن الشيطان وإخوان الشياطين ويدعو إلى مايحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور علمت أنه من أولياءه ، فإن اشتبه عليك فاكشفه فى ثلاثة مواطن فى صلاته ومحبته للسنة وأهلها ونفرته عنهم ودعوته إلى الله ورسله وتجريد التوحيد والمتابعة وتحكيم السنة فزنه بذلك لاتزنه بحال ولا كشف ولاخارق ولو مشى على الماء وطار فى الهواء .

فصـــل

وبهذا يعلم الفرق بين الحال الإيمانى والحال الشيطانى فإن الحال الإيمانى ثمرة المتابعة للرسول والإخلاص فى العمل وتجريد التوحيد ونتيجته منفعة المسلمين فى دينهم ودنياهم وهو إنما يصح بالاستقامة على السنة والوقوف مع الأمر والنهى .

والحال الشيطانى نسبته اما شرك أو فجور وهو ينشأ من قرب الشياطين والاتصال بهم ومشابهتهم وهذا الحال يكون لعباد الأصنام والصلبان والنيران والشيطان فإن صاحبه لما عبد الشيطان خلع عليه حالا يصطاد به ضعفاء العقول والإيمان ولا إله إلا الله كم هلك بهؤلاء من الخلق (ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله مافعلوه) فكل حال خرج صاحبه عن حكم الكتاب وماجاء به الرسول فهو شيطانى كائناً ما كان ، وقد سمعت بأحوال السحرة وعباد النار وعباد الصليب وكثير ممن ينتسب إلى الإسلام ظاهراً وهو برىء منه فى الباطن له نصيب من هذا الحال بحسب موالاته للشيطان ومعاداته للرحمن ، وقد يكون الرجل صادقا ولكن يكون ملبوساً عليه يجهله فيكون حاله شيطانياً مع زهد وعبادة واخلاص لكن لبس عليه الأمر لقلة علمه بأمور الشياطين والملائكة وجهله بحقائق الإيمان ، وقد حكى هؤلاء وهؤلاء من ليس منهم بل هو متشبه صاحب مخاييل ومخاريق ووقع الناس فى البلاء بسبب عدم التمييز بين هؤلاء وهؤلاء فحسبوا كل سوداء تمرة وكل بيضاء شحمة ، والفرقان أعز مافى هذا العالم وهو نور يقذفه الله فى القلب يفرق به بين الحق والباطل ويزن به حقائق الأمور خيرها وشرها وصالحها وفاسدها فمن عدم الفرقان وقع ولابد فى إشراك الشيطان فالله المستعان وعليه التكلان .

فصـــل

والفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع والحكم المؤول الذى غايته أن يكون جائز الاتباع أن الحكم المنزل هو الذى أنزله الله على رسوله وحكم به بين عباده وهو حكمه الذى لاحكم له سواه .

وأما الحكم المؤول فهو أقوال المجتهدين المختلفة التى لايجب اتباعها ولايكفر ولايفسق من خالفها فإن أصحابها لم يقولوا هذا حكم الله ورسوله بل قالوا اجتهدنا برأينا فمن شاء قبله ومن شاء لم يقبله ، ولم يلزموا به الأمة بل قال أبو حنيفة هذا رأيى فمن جاءنى بخير منه قبلناه . ولو كان هو عين حكم الله لما ساغ لأبى يوسف ومحمد وغيرهما مخالفته فيه ، وكذلك مالك استشاره الرشيد أن يحمل الناس على مافى الموطأ فمنعه من ذلك وقال قد تفرق أصحاب رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم فى البلاد وصار عند كل قوم علم غير ماعند الآخرين وهذا الشافعى ينهى أصحابه عن تقليده ويوصيهم بترك قوله إذا جاء الحديث بخلافه ، وهـذا الإمام أحمد ينكر على من كتب فتاواه ودونها ويقول لاتقلدنى ولا تقلد فلاناً ولا فلانا وخذ من حيث أخذوا ولو علموا رضى الله عنهم أن أقوالهم يجب اتباعها لحرموا على أصحابهم مخالفتهم ولما ساغ لأصحابهم أن يفتوا بخلافهم فى شىء ، ولما كان أحدهم يقول القول ثم يفتى بخلافه فيروى عنه فى المسألة القولان والثلاثة وأكثر من ذلك فالرأى والاجتهاد أحسن أحواله أن يسوغ اتباعه ، والحكم المنزل لايحل لمسلم أن يخالفه ولايخرج عنه .

وأما الحكم المبدل وهو الحكم بغير ما أنزل الله فلايحل تنفيذه ولا العمل به ولا يسوغ اتباعه وصاحبه بين الكفر والفسوق والظلم .

والمقصود التنبيه على بعض أحوال النفس المطمئنة واللوامة والأمارة وما تشترك فيه النفوس الثلاثة وما يتميز به بعضها من بعض وأفعال كل واحدة منها واختلافها ومقاصدها ونياتها وفى ذلك تنبيه على ماوراءه ، وهى نفس واحدة تكون أمارة تارة ولوامة أخرى ومطمئنة أخرى ، وأكثر الناس الغالب عليهم الأمارة ، وأما المطمئنة فهى أقل النفوس البشرية عدداً وأعظمها عند الله قدراً وهى التى يقال لها (ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) .

والله سبحانه وتعالى المسئول المرجو الإجابة أن يجعل نفوسنا مطمئنة إليه عاكفة بهمتها عليه راهبة منه راغبة فيما لديه وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا وأن لايجعلنا ممن أغفل قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا ولايجعلنا من (الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحيوة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) انه سميع الدعاء وأهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل .

تم الكتاب

تم طبع كتاب [الروح لابن القيم] وذلك فى يوم السبت ١١ من رمضان المعظم سنة ١٣٨٦ هجرية (الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦ ميلادية) ؟

مطبعة محمد على صبيح وأولاده بالأزهر

فهرس

كتاب الروح لابن القيم

الصفحة	الموضوع
٣	خطبة الكتاب
٥	المسألة الأولى فى معرفة الأموات بزيارة الأحياء وسلامهم
٦	ما يقول الطير يوم الجمعة
٩	تواطؤ رؤيا المؤمنين كتواطؤ روايتهم
٩	الميت يستأنس بالمشيعين
١٠	القراءة عند دفن الميت
١١	القراءة عند القبور عقيب الدفن
١٢	فصل فى أن الموتى يسألون عن الأحياء ويعرفون أقوالهم وأفعالهم
١٣	فصل فى الاستدلال على سماع الموتى من إجراء العمل على تلقين الميت فى القبر
١٤	أخبار الأموات بما حدث فى أهلهم بعدهم وبما يحدث
١٥	قصة وصية ثابت بن قيس رضى الله عنه بعد موته
١٥	أنفذ أبو بكر رضى الله عنه وصية ثابت بن قيس التى أوصى بها فى المنام بعد المماهد
١٧	المسألة الثانية فى أن أرواح الموتى هل تتلاقى وتتزاور وتتذاكر أم لا
١٧	ذكر الدجال ويأجوج ومأجوج
١٩	الأحاديث الدالة على تلاقى أرواح الموتى وتعارفهم
٢٠	المسألة الثالثة هل تتلاقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات أم لا
٢٢	قصة وفاة مالك بن دينار رحمه الله تعالى
٢٣	قصة رؤية رجاء بن حيوة بعد موته
٢٣	قصة رؤيا رابعة رحمها الله بعد موتها
٢٤	رؤيا بعض أهل عاصم الجحدرى بعد مماته إياه
٢٤	قصة رؤيا مره الهمدانى رحمه الله تعالى
٢٤	قصة رؤيا أويس القرنى بعد وفاته رحمه الله تعالى

الصفحة	الموضـــوع
٢٥	ذكر عرض الحسنات والسيئات كلها على الأرواح
٢٥	رؤيا عمر بن عبد العزيز رحمه الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع أصحابه الأربعة في المنام
٢٦	ذكر رؤية معاذ بن جبل رضى الله عنه وما كان عليه من النعيم
٢٨	ذكر منزلة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى فى الآخرة
٢٨	رؤية بشر الحافى رحمه الله تعالى بعد موته
٢٨	اتباع الآثار وصحبة الأخيار ينجيان من النار ويقربان من العزيز الغفار
٢٩	الدلائل العقلية على ملاقاة الأرواح
٢٩	الرؤيا على ثلاثة أنواع منها الرؤيا الصحيحة ولها أقسام
٣٠	الأسئلة الثلاثة العجيبة عن على كرم الله وجهه مع جواباتها
٣١	يعرج بروح النائم إلى العرش ويؤذن لها بالسجود إن كان طاهر
٣١	كيف تلتقى روح النائم وروح اليقظان
٣٢	ذكر الحكم والمصالح من الله تعالى للعباد فى الرؤيا
٣٣	نوادر رؤيا أبى محمد البغانشى
٣٣	جلوس العفريت على المال
٣٤	المسألة الرابعة أن الروح هل تموت أم الموت للبدن وحده
٣٤	بحث فى معنى موت النفوس
٣٥	ذكر نفخ الصور والصعق ومن هو مستثنى عنه
٣٧	بيان حديث الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق الخ
٣٧	بحث فى معنى الموت ماهو
٣٨	المسألة الخامسة أن الأرواح كيف تتميز بعد مفارقة الأبدان بعضها من بعض
٤٠	الروح ذات قائمة بنفسها على أصول أهل السنة
٤١	المسألة السادسة هل تعاد الروح فى قبره وقت السؤال أم لا
٤٣	الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق
٤٤	رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم الأنبياء ليلة الاسراء
٤٦	تحقيق سماع الموتى
٤٦	ذكر حالة النزع لروح المؤمن ولروح الكافر وما يمضى عليهما فى القبر مفصلا

الصفحة	الموضـــوع
٥١	فصل فى أن هل عذاب القبر على النفس والبدن أو على النفس دون البدن أو على البدن دون النفس وهل يشارك البدن النفس فى النعيم والعذاب أم لا
٥٢	فصل فى أن مذهب السلف أن الميت إذا مات يكون فى نعيم أو عذاب مع الروح والبدن
٥٢	فصل فى ذكر أحاديث عذاب القبر ومسألة منكر ونكير
٥٤	عذاب القبر تسمعه البهائم
٥٥	حكاية عجيبة لاستماع الدابة عذاب القبر بمرأى من الناس
٥٦	تمثل الأعمال فى القبر لوقاية صاحبها
٥٦	تتمثل الشمس فى القبر كأنها تغرب
٥٦	أحاديث ضغطة القبر
٥٧	فصل فى أن عذاب القبر حق باتفاق أهل السنة
٥٨	فصل فى أن عذاب القبر ينال من هو مستحق له قبر أو لم يقبر ولو أكلته السباع
٥٨	ذكر عذاب القبر لمن يحدث بالكذب
٥٨	ذكر عذاب الزناة وآكلى الربا
٥٩	عذاب من صلى بغير طهور أو مر على مظلوم فلم ينصره
٥٩	ذكر قصة الإسراء
٦٠	عذاب المتهاون بالصلاة
٦١	عذاب مانعى الزكاة
٦١	المسألة السابعة فى جواب الملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر ونعيمه وما يتعلق بهما
٦١	ذكر الأمور التى يعلم بها الجواب للملاحدة والزنادقة
٦٢	الأمر الأول
٦٢	الأمر الثانى
٦٣	الأمر الثالث
٦٤	توجيه لطيف فى إثبات عذاب القبر
٦٤	الأمر الرابع
٦٤	قصة سلام الملائكة على المحتضر وجوابه

الصفحة	الموضـــوع
٦٥	قصة خير النساج رحمه الله تعالى
٦٥	قصة وفاة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى
٦٦	الأمر الخامس والسادس
٦٧	ذكر الحكمة فى ستر العذاب من الناس دون البهائم
٦٧	عذاب القبر يظهر أحيانا إذا شاء الله تعالى
٦٧	عذاب تأخير الصلاة والصلاة بغير طهور
٦٧	عذاب المشى تبخترا
٧٠	عذاب سوء الأدب فى شأن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين
٧١	الأمر السابع
٧١	عدم كشف عذاب القبر رحمة للعباد
٧٢	الأمر الثامن
٧٢	تفسير آية وإن من شىء إلا يسبح بحمده الخ
٧٢	إذا وقع الشعور للأشجار والأحجار فالأجسام ذات الأرواح أولى بذلك
٧٣	الأمر التاسع
٧٣	عذاب القبر هو عذاب البرزخ
٧٤	الأمر العاشر
٧٤	ذكر القيامة الصغرى والقيامة الكبرى
٧٤	البرزخ أول دار الجزاء
٧٥	المسألة الثامنة فى أن ما الحكمة فى عدم ذكر عذاب القبر فى القرآن مع شدة الحاجة إليه
٧٥	الحكمة هى السنة بالإجماع
٧٧	المسألة التاسعة وهى قول السائل ما الأسباب التى تعذب بها أصحاب القبور
٧٩	المسألة العاشرة فى الأسباب المنجية من عذاب القبر
٧٩	ذكر محاسبة النفس عند النوم
٨٠	ذكر فضائل الشهداء
٨٠	فضيلة سورة الملك
٨١	من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة أجير من عذاب القبر

الصفحة	الموضـــوع
٨٢	ذكر مدافعة أنواع العذاب بأنواع الأعمال مفصلا
٨٣	رؤيا الأنبياء وحى
٨٣	المسألة الحادية عشرة أن السؤال فى القبر هل هو عام فى حق المسلمين والمنافقين والكفار أو يختص بالمسلم والمنافق
٨٥	اسم الفاجر يعم الكافر قطعاً فى القرآن
٨٦	المسألة الثانية عشرة فى أن سؤال منكر ونكير هل هو مختص بهذه الأمة أو يكون لها ولغيرها
٨٧	المسألة الثالثة عشرة أن الأطفال هل يمتحنون فى قبورهم
٨٩	المسألة الرابعة عشرة وهى قوله هل عذاب القبر دائم أو منقطع
٩٠	المسألة الخامسة عشرة فى أنه أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة الخ
٩٠	الأرواح على أفنية القبور سبعة أيام
٩٣	فصل فى بيان قول من قال إن الأرواح فى الجنة
٩٩	فصل فى بيان قول مجاهد إن الأرواح ليست فى الجنة
١٠٠	فصل فى بيان قول من قال إن الأرواح على أفنية قبورها
١٠١	روح النائم تصعد فتسجد بين يدى العرش
١٠٢	فصل فى أن شأن الروح يختلف بحسب حال الأرواح من القوة والضعف والكبر والصغر
١٠٤	فصل فى بيان قول من قال إن أرواح المؤمنين عند الله تعالى
١٠٥	بيان سدرة المنتهى وسجين وعليين
١٠٥	قصة قبض روح إدريس عليه السلام فى السماء الرابعة
١٠٥	وجه تسمية سدرة المنتهى
١٠٦	فصل فى بيان قول أن أرواح المؤمنين بالجابية وأرواح الكفار بحضرموت ببرهوت
١٠٧	فصل فى بيان قول أن الأرواح تجتمع فى الأرض التى قال الله فيها يرثها عبادى الصالحون
١٠٧	فصل فى بيان قول من قال مستقر أرواح المؤمنين فى عليين والكفار فى سجين

الصفحة	الموضـــوع
١٠٨	فصل فى إبطال كون الأرواح فى بئر زمزم
١٠٨	فصل فى بيان قول أن أرواح المؤمنين فى برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت وأرواح الكفار عن يساره
١٠٨	فصل فى بيان قول أن أرواح المؤمنين عن يمين آدم عليه السلام
١٠٩	فصل فى بيان قول ابن حزم أن مستقر الأرواح حيث كانت قبل خلق أجسادها
١١٠	فصل فى بيان قول من قال إن مستقر الأرواح العدم المحض
١١٢	فصل فى بيان قول من قال إن للأرواح بعد الموت أبدان أخر غير هذه الأبدان
١١٣	القول الراجح فى مستقر الأرواح
١١٦	للنفس أربع دور كل دار منها أعظم من التى قبلها
١١٧	المسألة السادسة عشرة هل تنفع أرواح الموتى من سعى الأحياء أم لا
١١٨	الدليل على انتفاع الميت بما تسبب إليه فى حياته
١١٨	فصل فى الدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه
١١٩	فصل فى إثبات وصول ثواب الصدقة إلى الميت
١٢٠	« « وصول ثواب الصوم والحج
١٢١	« « « « الحج
١٢٣	العبادات قسمان مالية وبدنية
١٢٤	دلائل المانعين من وصول ثواب العبادات إلى الأموات
١٢٤	ذكر سبع يجرى على الميت أجرهن فى قبره
١٢٦	دلائل المقتصرين على وصول ثواب العبادات التى تدخلها النيابة
١٢٨	وجوه الجواب
١٢٩	فصل فى نفى عقوبة العبد بعمل غيره
١٢٩	« « أن الاستدلال بحديث إذا مات العبد سائط
١٢٩	« « جواب قولهم الإهداء حوالة الخ
١٢٩	« « « « الإيثار بسبب الثواب مكروه
١٣٠	« « « « لو ساغ الإهداء إلى الميت لساغ إلى الحى
١٣٢	« « « « « ذلك لساغ إهداء نصف الثواب وربعه إلى الميت
١٣٢	« « « « « ذلك لساغ إهداؤه بعد أن يعمله لنفسه

الصفحة	الموضـــوع
١٣٣	فصل فى جواب قولهم لو ساغ الإهداء لساغ إهداء ثواب الواجبات التى تجب على الحى
١٣٣	« « « « أن التكاليف امتحان وابتلاء لا تقبل البذل
١٣٤	قراءة الإمام قراءة لمن خلفه
١٣٤	فصل فى جواب قولهم أنه لو نفعه عمل غيره لنفعه توبته عنه وإسلامه عنه
١٣٥	« « « « العبادات نوعان الخ
١٣٦	فصل فى الجواب عن رد حديث من مات وعليه صيام الخ
١٣٧	فصل فى جواب ما قالوا إن ابن عباس هو راوى حديث الصوم عن الميت الخ
١٣٧	فصل فى جواب ما قالوا إنه حديث اختلف فى إسناده الخ
١٣٩	« « « تغليط راوى حديث ابن عباس أنذر أم سعد كان صوما الخ
١٤٠	فصل فى ذكر أقوال أهل العلم فى الصوم عن الميت
١٤٠	فصل فى جواب من فرق بين ثواب النفقة وبين ثواب الحج
١٤١	فصل هل يشترط فى إيصال الثواب التلفظ بالإهداء أم يكفى مجرد النية
١٤١	هل يتعين فى إهداء الثواب تعليق العمل بالقبول أم لا
١٤٢	أى الأعمال أفضل فى إهداء الثواب إلى الميت
١٤٣	بيان وصول ثواب قراءة القرآن وما يتعلق به
١٤٣	إهداء ثواب الأعمال إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
١٤٤	المسألة السابعة عشرة وهى هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة
١٤٤	اختلاف الأقوال فى الروح على ما نقله الحافظ ابن منده
١٤٥	الروح تموت أم لا
١٤٦	فصل فى بيان الدلائل على خلق الأرواح
١٥١	ذكر الاختلاف فى معنى الروح فى الآية الكريمة بين السلف والخلف
١٥٢	بيان اختلاف الروايات عن ابن عباس فى تفسير آية ويسئلونك عن الروح
١٥٣	بيان أن معنى الروح فى القرآن على عدة أوجه
١٥٤	فصل فى بيان إضافات الصفات إلى الله تعالى
١٥٦	المسألة الثامنة عشرة وهى تقدم خلق الأرواح على الأجساد أو تأخر خلقها عنها
١٥٦	دلائل من يقول بتقدم خلق الأرواح على خلق الأبدان

الصفحة	الموضـــوع
١٦٠	فصل فى ذكر الدليل على أن الأرواح خلقت بعد خلق الأبدان والجواب عما استدل به القائلون بتقدم خلق الأرواح
١٦٣	تفسير آية وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم الخ
١٦٣	فصل فى القول الآخر فى تفسير الآية
١٧١	« على كل تقدير لاتدل الآية على خلق الأرواح قبل الأجساد خلقاً مستقراً
١٧٢	« فى الدليل على أن خلق الأرواح متأخر عن خلق أبدانها
١٧٥	المسألة التاسعة عشرة وهى ماحقيقة النفس
١٧٩	القول الصواب فى حقيقة الروح الذى دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل وذكر دلائله
١٨٣	فصل
١٨٣	«
١٨٤	«
١٨٥	«
١٨٨	«
١٨٩	قصة ذبح الرافضى الذى كان يسب الشيخين رضى الله عنهما فى المنام
١٨٩	قصة سواد الوجه لساب على كرم الله وجهه فى المنام
١٩٠	حكاية تسويد نصف الوجه لساب الشيخين رضى الله عنهما
١٩١	قصة ذبح ساب الشيخين رضى الله عنهما
١٩١	قصة سواد الوجه لتأخير الافطار خلاف أمره صلى الله عليه وآله وسلم
١٩٢	دعاء رد البصر
١٩٢	علاج وجع الورك
١٩٢	« وجع المعدة من روح جالينوس الحكيم
١٩٢	فصل
١٩٣	«
١٩٧	« فى بيان أدلة المنازعين فى جسمية الروح وتجهيزها
٢٠٤	« « جواب الشبهة الأولى لمنازعى جسمية الروح والنفس
٢٠١	« « « « الثانية

الصفحة	الموضـــوع
٢٠٤	فصل فى جواب الشبهة الثالثة
٢٠٥	« « « « الرابعة
٢٠٦	« « « « الخامسة
٢٠٧	« « « « السادسة
٢٠٧	« « « « السابعة
٢٠٨	« « « « الثامنة
٢٠٩	« « « « التاسعة
٢١٠	« « « « العاشرة
٢١٠	« « « « الحادية عشرة
٢١٠	« « « « الثانية عشرة
٢١١	« « « « الثالثة عشرة
٢١١	« « « « الرابعة عشرة
٢١١	« « « « الخامسة عشرة
٢١٢	« « « « السادسة عشرة
٢١٢	« « « « السابعة عشرة
٢١٣	« « « « الثامنة عشرة
٢١٤	عمل دفع ضرر العين
٢١٥	فصل فى جواب الشبهة التاسعة عشرة
٢١٥	« « « « العشرين
٢١٦	« « « « الحادية والعشرين
٢١٦	تكفير منكرى الجن والملائكة
٢١٦	فصل فى جواب الشبهة الثانية والعشرين
٢١٦	دخول الجن فى المصروع
٢١٧	المسألة العشرون وهى هل النفس والروح شىء واحد أو شيئان
٢١٧	وجه تسمية الروح والنفس والفرق بينهما
٢١٨	فصل فى قول من قال أن الروح غير النفس
١٢٠	المسألة الحادية والعشرون هل النفس واحدة أم ثلاث

الصفحة	الموضـــوع
٢٢١	فصل فى أن الطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان
٢٢٢	« « أن الله سبحانه جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالا إلخ
٢٢٣	« « مباشرة الروح الطمأنينة
٢٢٥	« « المحاسبة والمراقبة
٢٢٥	« « النفس اللوامة وأحوالها
٢٢٦	« « ذكر النفس الأمارة وأحوالها
٢٢٨	« « أن النفس الأمارة فى مقابلة النفس المطمئنة
٢٢٩	« « إرادة النفس الأمارة الاخلاص فى صورة ينفر منها
٢٣٠	« « إراءتها صورة الصدق والجهاد وغيرها فى صورة متضادة
٢٣٢	« « الفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق
٢٣٣	« « الفرق بين شرف النفس وتيهه
٢٣٣	« « « « الحمية والجفاء
٢٣٣	« « « « التواضع والمهانة
٢٣٤	« « « « القوة فى أمر الله والعلو فى الأرض وفى الحمية لله والحمية للنفس
٢٣٥	« « « « الجود والسرف
٢٣٥	« « « « المهابة والكبر
٢٣٦	« « « « الصيانة والتكبر
٢٣٦	« « « « الشجاعة والجرأة
٢٣٧	« « « « الحزم والجبن
٢٣٧	« « « « الاقتصاد والشح
٢٣٧	« « « « الاحتراز وسوء الظن
٢٣٨	« « « « الفراسة والظن
٢٣٩	حكايات تفرس أمير المؤمنين عمر وعثمان رضى الله عنهما وغيرهما من أكابر الدين
٢٤٠	فصل فى الفرق بين النصيحة والغيبة
٢٤٠	« « « الهدية والرشوة
٢٤٠	إعطاء الرشوة لدفع الظلم
٢٤١	فصل فى الفرق بين الصبر والقسوة

الصفحة	الموضـــوع
٢٤١	القلوب ثلاثة
٢٤١	فصل فى الفرق بين العفو والذل
٢٤١	تسبيح حملة العرش وهم أربعة
٢٤٢	الفرق بين الانتصار والانتقام
٢٤٣	فصل فى الفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل
٢٤٤	« « « « الثقة والغرة
٢٤٥	« « « « الرجاء والتمنى
٢٤٧	« « « « التحدث بنعم الله والفخر بها
٢٤٨	« « « « فرح القلب وفرح النفس
٢٤٩	« « بيان أعظم الفرح
٢٥٠	« « الفرق بين رقة القلب والجزع
٢٥١	« « « « الموجدة والحقد
٢٥١	« « « « المنافسة والحسد
٢٥٢	« « « « حب الرياسة وحب الامارة
٢٥٣	« « « « الحب فى الله والحب مع الله
٢٥٤	« « « « التوكل والعجز
٢٥٦	« « « « الاحتياط والوسوسة
٢٥٦	« « « « الهام الملك والقاء الشيطان
٢٥٧	« « « « الاقتصاد والتقصير
٢٥٧	« « « « النصيحة والتأنيب
٢٥٨	« « « « المبادرة والعجلة
٢٥٨	« « « « الاخبار بالحال وبين الشكوى
٢٦٠	« « الدين كله فرق والضلال كله جمع
٢٦٠	الرد على الطائفة الاتحادية فى مقولة الاتحاد وذكر قصوصهم وواضع نصوصهم
٢٦١	فصل فى بيان الإشارة اللطيفة إلى الفروق بين هذه الأمور المذكورة انفا
٢٦١	« فى الفرق بين تنزيه الرسل وتنزيه المعطلة

الصفحة	الموضـــوع
٢٦٢	فصل فى الفرق بين حقائق الأسماء والصفات وبين التشبيه والتمثيل
٢٦٣	فصـل فى الفرق بين تجريد التوحيد وبين هضم أرباب المراتب
٢٦٤	« « « « « متابعة المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم وإهـــدار أقوال العلماء وإلغائها
٢٦٤	فصل فى الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان
٢٦٦	فصل فى الفرق بين الحال الإيمانى والحال الشيطانى
٢٦٦	فصل فى الفرق بين الحكم المنزل الواجب الاتباع والحكم المؤول الذى غايته أن يكون جائزا الاتباع والحكم المبدل

تم الفهرس